وصف البيت الحرام
في الأدب العربي

د. سعاد سيد محجوب

وصف البيت الحرام

في الأدب العربي

د . سعاد سيد محجوب

سعاد سيد محجوب

وصف السجن الحداد في الأدب العربي / سعاد سيد محجوب

أبو ظبي: المجمع الثقافي، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص

ببليوجرافيا

1 - السجن الحر في الأدب العربي

2 - [illegible] في الأدب العربي

3 - [illegible]

المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص ب [illegible] هاتف [illegible]

Email [illegible]

http www [illegible]

حقوق الطبع محفوظة لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

وصف البيت الحرام
في الأدب العربي

قال سبحانه:

﴿ ربِّ أوزعني أن أشكُر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأنْ أعمل صالحا ترضاهُ وأصْلح لي في ذُرِّيَتي إني تُبْتُ إليك وإنّي من المُسلمين﴾

صدق الله العظيم

سورة الأحقاف: ١٥

إهــــداء

إلى زوجي العزيز دكتور عبد الوهاب

أقول :

ثمارُ غَرسك الطيِّب الذي غرستهُ ، قدْ حان أُكُلُهــــا فأهديكَ إيَّاها

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

شكر وتقدير

الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين صلاة العبد الحائج المحتاج إلى رحمة مولاه.

وبعد ،،

فاسمى آيات الشكر والتقدير لأستاذي الشيخ الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب الذي أكرمني الله تعالى بإشرافه وإرشاده، فقد وردت إلى بحور علمه وأنا صادية، وعند شواطئه عرفت سماحة أهل العلم في الجود وكرم النوال.

والشكر الجزيل لأستاذي الدكتور عبد الله محمد أحمد الذي حظيت بإشرافه؛ فلم يتوان أو يضنَّ علي بكريم نصحه وتوجيهه وإرشاده؛ فقد كان كريماً سمحاً في العطاء كالعهد به، ولم يملّ كثرة ترددي لإشباع نهمي العلمي.

وشكري لهما يحمل كلّ معاني التقدير والعرفان والوفاء؛ فمنهما كنت استمدّ العزم، وأرضع العلم. أسأل الله العلي القدير أن يجعلهما ذخراً لأهل العلم وطلاب المعرفة.

وعظيم شكري لمكتبة جامعة الخرطوم وجميع القائمين على أمرها.

والشكر الجزيل لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدولة الإمارات العربية المتحدة - دبي - ففي هذه المنارة الشامخة وجدت كل ما يحتاج إليه الباحث من وسائل العلم والمعرفة، ذهبت إليها في البداية بغرض

الحصول على بعض ماتيسر من المراجع والمصادر، وإذا أنا أمام مؤسسة ضخمة تعج بالمخطوطات والدوريات والمطبوعات، فوجدت بداخل هذه المنارة مايفوق حاجتي مما أغناني عن البحث والتنقيب فيما سواها.

وعظيم شكري للسيد جمعة الماجد الذي أحاطني بكريم عنايته، من توجيه للعاملين بالمكتبة؛ لتسخير كلّ إمكانات المكتبة لخدمة هذا البحث، أسأل المولى عزّ وجل أن يجعل هذا المجهود الضخم الذي يُسخّره لطلاب العلم والمعرفة صدقة جارية، ويثقل به ميزان حسناته، ويظله بظله يومَ لاظلَّ إلا ظلُّه.

ويمتد شكري للعاملين بمكتبة مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث وعلى رأسهم الأخ الفاضل الأستاذ أحمد الأصم، وحسبه من الفخر أنه يحترق ليساعد طلاب العلم والمعرفة لدكَّ حصون الجهل.

وعظيم شكري وتقديري لزوجي العزيز الدكتور عبد الوهاب نقد؛ فقد كان لي نعم الرفيق والصاحب، وله اليد الطولى في إكمال دراستي؛ من شحذٍ لهممي، وعطاء لايتبعه مَنٌّ ولا أذى، فجزاه الله عنّي خيرَ الجزاء.

وشكري لصغاري الأعزاء، الذين كنت استمدُّ من نظراتهم البريئة، وابتساماتهم الحالمة، الزاد لمواصلة المشوار.

والشكر لله تعالى في البدء وفي الختام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

استهلال وتقديم

لقد حظي البيت الحرام بعناية خاصة واهتمام كبير؛ لمكانته الدينية، فهو يمثل منتصف الدائرة للمسلمين، وملتقى تمركزهم لممارسة عباداتهم الدينية وشعائرهم المقدسة، فبالحج إليه مع الاستطاعة تكتمل أركان الإسلام الخمسة، فتناوله بالدراسة المفسرون، وكتب عنه المؤرخون، ووصفه الأدباء، ونظم فيه الشعراء؛ فكل أدلى بدلوه، ولايزال الموضوع بكراً، والمجال خصباً للبحث والتنقيب.

يتناول هذا البحث وصف البيت الحرام في الأدب العربي، تاريخه بدءاً بتفسير قوله تعالى: ﴿ إن أوَّل بيتٍ وُضعَ للناس لَلَّذي بِبَكَّة مُباركاً ﴾[1]، وبناته عبر العصور المختلفة، والشعائر الدينية المتعلقة به في الجاهلية والإسلام، وزينته وكسوته.

اشتمل هذا البحث على أربعة أبواب تضمنت سبعة فصول.

تناولت في الباب الأول تاريخ بناء البيت الحرام بدءاً بتفسير قوله تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾[1]، وماجاء في كتب التفسير، وماتناوله المؤرخون من أن بناء الملائكة كان الأسبق، وذلك عندما أمرهم رب العزة والجلالة أن يبنوا بيتاً لعزته تحت العرش العظيم، وأطلق عليه اسم الضراح، وأمرهم أن يطوفوا حوله، وذلك بعد أن غفر لهم زلتهم التي تمثلت في استنكارهم للأمر الإلهي، عندما أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة له، فنظر إليهم بعين الرحمة، فطافوا حول هذا البيت المعمور، الذي بنوه تحت عرش الرحمن، فكان أهون عليهم من الطواف

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦.

حول العرش العظيم.

ثم كان بناء آدم عليه السلام بمساعدة زوجه حواء، وقامت الملائكة رضي الله عنهم بوضع أساسه، أو كونه أنزل له من السماء عزاء وسلوى بعد الخطيئة التي ارتكبها، والتي أهبط بسببها من الجنة إلى الأرض، وظل يتعبد فيه حتى أتاه اليقين، ورفع البيت بعد الطوفان حتى لايتدنس بالماء القذر.

ثم تناولت محاولات بنائه عبر العصور المختلفة، والهدف من محاولات الهدم والبناء في كل مرة، والكيفية التي بني بها في كل محاولة، والإشارة إلى أنه متعلق بالبيت المعمور، الذي في السماء، وأن هذا البيت هو الرابع عشر من البيوت، ففي كل سماء من السموات السبع بيت، وفي كل أرض من الأرضين السبع بيت، وأن كل بيت بحيال الآخر. وإن بقاء البيت عبر العصور منذ الأزل إلى الأبد بإذن الله تعالى ليس بقوة البنيان، ولكن بقوة من خلق الأرض في ستة أيام، ورفع السماء بغير عمد.

واعتمدت في هذا الباب على الرجوع إلى أمهات كتب التفسير؛ كجامع البيان للإمام محمد بن جرير الطبري ، وتفسير الزمخشري، وتفسير الرازي، وتفسير القرطبي، وابن كثير ، كما رجعت إلى كتب التاريخ ، مثل الكامل لابن الأثير وكتاب العبر. وقد أفرد البلوي في كتابه ألف باء عدة أبواب لتاريخ البيت الحرام، وذكر بناته عبر العصور.

وجاء الباب الثاني تحت عنوان: حرمة البيت الحرام عند الجاهليين، واشتمل هذا الباب على ثلاثة مباحث:

في المبحث الأول : تناولت معتقدات الجاهليين الدينية، وعاداتهم، وتقاليدهم، ونلاحظ أن العادات والتقاليد اختلطت وامتزجت بمعتقداتهم

الدينية. فصلاة الجاهليين كانت مرتبطة بالبيت الحرام في قوله تعالى: ﴿وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾(١)؛ أي صفيراً وتعليقاً.

كما أن الشعر العربي القديم قد حفل بذكر البيت الحرام، فاقسم به شعراؤهم، كقول زهير بن أبي سُلمى:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله ... رجالٌ بنوْهُ من قُريشٍ وجُرهُم(٢)

وذكره النابغة في قوله:

بمصطحباتٍ من لصافٍ وثبرة ... يزرن إلالا سيرُهُنَّ التدافُعُ(٣)

وللأعشى وغيره من الشعراء شعر في وصف البيت الحرام، وتناولوا في وصفهم له الشعائر الدينية المتعلقة به، والأحداث التي ارتبطت به، كما في قول عبد المطلب عندما حاول أبرهة الحبشي أن يغزو الكعبة المشرفة؛ ليغير وجهة حجيج العرب إلى قليسه الذي بناه، لينال رضا سيّده ومولاه النجاشي، وعندها أمسك الزعيم الهاشمي بحلقه باب الكعبة المشرفة يدعو ربه أن يحمي بيته من هذا الغزو، وأن يكرم مجاوريه، فكان يردد وهو آخذ بحلقة باب الكعبة المشرفة:

لاهمَّ إن المرء يمنـ ... ـعُ رحلهُ فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم عدو محالك(٤)

وقد كان للعرب في جاهليتهم نصيب من العلم بالكتب السماوية،

---

(١) سورة الأنفال / ٣٥.

(٢) ديوان زهير / شرح الشنتمرى /٦

(٣) ديوان النابغة الذبياني / ٨١.

(٤) اخبار مكة، الأزرقي ج١ /٨٨.

مكنتهم من معرفة تاريخ البيت؛ فقدسوه وعظموه أعظم تقديس.

وفي المبحث الثاني : تناولت كيفية الطواف والتلبية في الجاهلية، وكيف أن العرب في جاهليتهم كانوا يعظمون البيت الحرام. ومن مظاهر تقديسهم وتعظيمهم له طوافهم حوله، ولم يغيروا في عدد أشواط الطواف، بل أبقوا عليها كما جاءت في شريعة إبراهيم الخليل (عليه السلام)، ولكنهم أدخلوا فيها شيئاً من عبوديتهم وخضوعهم للأصنام؛ فقد كانوا بعد فراغهم من طوافهم يأتون إلى الْعزَّى ويظهرون لها كلَّ أسباب الولاء بطوافهم حولها، كما كانوا يحلون عندها. وجاء الإسلام وطهر هذه الشريعة المقدسة من كل مظاهر الوثنية. وأبقوا كذلك على التلبية والتهليل، ولكنهم حوروا فيها فقد أشركوا مع الله سبحانه وتعالى آلهتهم، وجعلوا ملكها بيده سبحانه وتعالى. وجاء الإسلام وأقرَّ التلبية كما كانت في شريعة إبراهيم عليه السلام.

وبما أن اللسان العربي قد جُبل على قرض الشعر عند أيّ مقام سجلوا كل حياتهم في أشعارهم، حتى صار الشعر ديوان العرب؛ لذا كانوا في أثناء طوافهم ينشدون الشعر. وقد لا يخلو هذا الشعر في بعض الأحيان من فاحش القول، أو قد يكون خارج نطاق الأدب واللياقة، بل كان همُّ بعض الشباب اللاهين العابثين التعرض للنساء في أثناء تأديتهن لمناسكهن. وكان بعضهم يترنم في أثناء الطواف ببعض الترانيم. وجاء الإسلام بمبادئه السمحة، فنهى عن فاحش القول في أثناء الطواف؛ لأن الطواف بالبيت الحرام كالصلاة، فالطائف كالمصلي بين يدي الله تعالى. كذلك نهى عن الإتيان بالأفعال الشنيعة. وفي الوقت نفسه لم ينه عن قرض الشعر الجيد الرصين، لكن ذكر الله أولى وأفضل؛ لأن الهدف الذي من أجله شرع

الطواف هو إقامة ذكر الله تعالى.

وفي المبحث الثالث تناولت بقية أعمال الحج التي تتلخص في الوقوف بعرفة، وقد أكثر الشعراء في جاهليتهم من القسم بموقف الحجيج بجبل إلال، كما اقسموا ببقية المشاعر المقدسة كقول أبي طالب في لاميته :

وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له　　　إلال إلى مفضي الشراج القوابل

والمبيت بالمزدلفة كانت سنةَ توارثوها من دين الحنيفية، حيث نار قصي بن كلاب التي لاتزال توقد حتى اليوم، ثم نزولهم بمنى حيث يتم نسكهم وقضاء تفثهم برمي الجمار والحلق والتقصير ونحر هديهم.

وجاء الباب الثالث يحمل عنوان: مثيرات الشوق والحنين إلى الديار الحجازية المقدسة. فنجد المثيرات نفسها التي استفزت نظيره الجاهلي، وجعلته يحنُّ ويشتاق إلى معاهد صباه، وديار عشيرته، وذكرياته مع فتاته، قد استفزت الشاعر الإسلامي وجعلته يبكي بحرقة وشوق إلى الربوع الحجازية المقدسة حيث زمزم والحجون والصفا والمروة، فإذا ومض البرق من جهة الديار الحجازية المقدسة والمرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، تاقت روحه لزيارتها والتمتع برؤيتها، وإذا تعذّر عليه السفر، وأقعدته الظروف، أرسل بناظريه مع الركب الرائح، وطلب من حادية أن يبلّغ عنه السلام؛ ففي ذلك بعض الشفاء والسلوى لروحه المضنية.

وكعادة الجاهليين في الدعاء لمعاهد الأحبة بالسقيا دعا الشاعر الإسلامي للديار الحجازية بالسقيا.

وكان لهبوب الرياح من جهة أرض المحبوبة تاثير قوي في روح الصب

الوله، كذلك قد أثارت صبا نجد وريح الحجاز كوامن الشاعر الإسلامي، الذي طالما باع الغالي والنفيس ليشم عبق الديار الحجازية المقدسة.

والمثيرات كثيرة، فطالما سهر يرعى النجوم ، ووقف الشاعر الجاهلي على الأطلال الدارسة والمعاهد الخربة، لكنّ نظيره الإسلامي دياره، التي يحن إليها ويقف عندها ليستمد العظة والعبرة منها، هي الديار التي ينظر إليها الله سبحانه وتعالى ليلة النصف من شعبان، فتهفو قلوب الناس، وتدف إليها دفيف النسور إلى أوكارها. وهذه الديار قد سبقه في الوقوف عليها رسل الله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، فتارة يتداعى إلى ذهنه، وهو واقف عند جبل الرحمة، يوم الحج الأكبر ، والرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) يخطب في وفود الحجيج، ويضع اللبنة الأولى لدستور حقوق الإنسان وقانونها، هذا الدستور الكامل الذي سبق كل القوانين الوضعية. وعندما يدنو من الحجر الأسود ليقبله تعظيماً له أسوة بالسنة الشريفة يستمد تعظيمه من تعظيم الذات العليا، وليس كما زعم أعداء الإسلام أن تقبيل الحجر الأسود فيه شيء من بقايا الوثنية والكفر؛ لأن دينَ الحنيفية أولُ من نبذ عبادة الأوثان، وكان تحطيمها على يد والد الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم الخليل، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

ويمثل الحمام، هذا الطائر الوديع الشكل، أحد الرموز التي تثير الشوق والحنين، ففسر الشاعر سجع الحمام وهديله حسب الحالة النفسية التي يعيشها، فإذا كان يبكي بداخله أحس أن الحمام يشاركه مشاعره الحزينة، فيترجم هديله، أو يعزو سببه إلى فقد اليفه، وإذا كان سعيداً أحس أن الحمام يبادله هذا الشعور، فترقص نفسه طربا.

والناقة التي ارتبطت برجل الصحراء وارتبط بها وأحبها، وبادلته هذا

الإحساس، نجده قد شخّصها وحاورها، فأصبحت رفيقة الدرب الطويل، والوسيلة التي يبلغ بها أرض المحبوب، للتمتع برؤيته، أو للممدوح؛ لنيل هباته وعطاياه، فقد تغيّر حالها وتبدل همها فأصبحت مثل صاحبها في هذه الرحلة المقدسة تحن روحها إلى الرحاب السامية، فهي تحنُّ وتشتاق إلى كل ماله صلة بأرض الحجاز، فهي تتشوق إلى تذوق طعم شجر الحجاز، حتى لو كان مُرّاً حامضاً، بل تفضله على غيره من النباتات، ويثيرها البرق الحجازي، كما أثار من قبل صاحبها، وإذا حدا حاديها بذكر المصطفى، عليه الصلاة والسلام، تجدّ في السير وتسرع في الخطى.

وفي الباب الرابع : تناولت كسوة البيت الحرام وطيبه وزينته وخدامه وماله. وكسوة البيت الحرام تأتي من باب التعظيم والتقديس، فقد كسا البيت الحرام أمم كثيرة غير العرب من العجم وغيرها، وكان العرب في جاهليتهم يحتفلون بيوم عاشوراء، وهو اليوم الذي يتم فيه كسوة الكعبة المشرفة، وأقرّ الإسلام هذه السنة الحميدة، ولم ينه عنها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسار خلفاؤه الراشدون على نهجه الكريم. كذلك كانوا في جاهليتهم يجمرون البيت الحرام حتى إن سبب هدم بناء قريش له قبل البعثة المحمدية وإعادة بنائه كان بسبب الشرارة التي طارت من مجمر المرأة القرشية، التي أرادت أن تجمّر البيت الحرام، وذلك من باب التقديس والتعظيم له.

وأول من وضع المعاليق على جدرانه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت عبارة عن قرني الكبش الذي افتدى الله تعالى به إسماعيل الذبيح، عليه السلام. وخدمة البيت من أهم مناصب السيادة والريادة، وكانت حجابة البيت الحرام معقودة بيد بني عبد الدار في الجاهلية، وجاء الأمر الإلهي بعد

فتح مكة المكرمة للرسول، صلى الله عليه وسلم، أن تبقى عندهم كما كانت من قبل ولاتزال حتى اليوم يتوارثونها فيما بينهم مارعوا حق الله فيها.

هذه أهم الجوانب التي تناولتها بالبحث والدراسة في هذا الموضوع لاستخراج صورة واضحة عن عدد المرات التي بني فيها البيت الحرام، وكيفية البناء، والهدف من كل محاولة هدم وبناء، ولماذا لم يرد الرسول (صلى الله عليه وسلم) البيت الحرام بعد البعثة المحمدية إلى قواعد إبراهيم عليه السلام؟ كذلك فقد انشغل الخلفاء الراشدون (رضى الله عنهم) من بعده بتوسيع مظلة الدولة الإسلامية ورقعتها، وتثبيت دعائم الشريعة الإسلامية؛ لذا لم يعملوا على إعادة البيت الحرام إلى قواعد إبراهيم الخليل (عليه السلام).

كما ألقيت بعض الضوء على الشعائر الدينية فيما يختص بعبادة أو شعيرة الحج التي مارسها الجاهليون في عهد جاهليتهم على الرغم من أنها لم تكن مفروضة عليهم، بل كانت شيئاً متوارثاً؛ لذا امتزجت واختلطت بالعادات والتقاليد، ولقد أفسحوا في ديوانهم، وهو الشعر، مساحة واسعة لهذه الشعيرة المقدسة، فوصفوا كل مايرتبط بها من مناسك وكيفية تأديتهم لهذه المناسك، وكانوا يقسمون ويحلفون بكل المشاعر المقدسة، وذلك دليل على اعترافهم بحرمتها وقدسيتها.

وجاء وصفهم للبيت الحرام نظماً فنظموا فيه الشعر الرصين، وجاء وصفهم في منثور كلامهم وفي حكمهم وأمثالهم. ويمكن القول إنَّ وصفهم شمل جوانب الأدب كلها.

والله من وراء القصد ، وإياه أسأل التوفيق، وإياه أستعين.

الباب الأول

الكعبة المشرفة

الفصل الأول

عمارة الكعبة المشرفة عبر العصور

شرف المولى عزَّ وجل بعض الأزمنة على بعض؛ فجعل رمضان أفضل الشهور، وفضَّل بعض الأيام على بعض؛ فجعل يوم الجمعة سيد الأيام، كما فضل بعض الحجارة على بعض؛ فكان الحجر الأسود أنفس الحجارة، كما فضل بعض الأرضين على بعض؛ فجعل مكة أشرف البقاع، وجعل أشرف بقعة فيها بيته الحرام، قال الإمام عليّ كرم الله وجهه : «ألا ترون أن الله سبحانه وتعالى اختبر الأوّلين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لاتضر ولاتنفع، ولاتبصر ولاتسمع، فجعلها بيته الحرام، الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً ، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وثلة، وقرى منقطعة، لايزكو بها خف ولاحافر ولا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر وبحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً، له قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصلة إلى جنته، ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنّات وأنهار، وسهل وقرار، جم الأشجار وآني الثمار، ملتف لين متصل، القرى بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعرائس

مغدقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر هذا الجزاء على حسب ضعف البلاء، ولكان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوته حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، لنفي معتلج الريبة من الناس »[١].

وعن ابن عمر رضى الله عنه: « إنَّ الله عزَّ وجلَّ اختار الكلام فاختار القرآن، واختار البلاد فاختار الحرم، واختار الحرم فاختار المسجد، فاختار موضع البيت »[٢].

ولقد اهتم مؤرخو الإسلام بتاريخ الكعبة المشرفة الأول، وعدد المرات التي أُعيدَ فيها البناء، فمنهم من ذهب إلى أن بناء الملائكة هو الأسبق، وذهب آخرون إلى أن بناء آدم عليه السلام، ثم من بعده ولده شيث، كان عقب بناء الملائكة، ثم كان بناء خليل الرحمن، وهو ثابت وصحيح بنص القرآن الكريم، ولاخلاف فيه، قال الله تعالى: ﴿ **وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعد من البيت** ﴾[٣]. ويعد بناء إبراهيم عليه السلام البداية الفعلية لممارسة العبادة فيه امتثالاً لأوامر الله سبحانه وتعالى، عندما أمر خليله أن يؤذّنَ في الناس بالحج، ثم بنته العمالقة ومن بعدهم قوم جرهم، وقد شغل بناء قصيِّ بن كلاب، الذي كان بعد جرهم، حيّزاً في كتب السير والأخبار، وبنته قريش بعد ذلك، وكانت تعيش آنذاك في ظلمة الجاهلية، وقد شارك

---

(١) نهج البلاغة : ٢٩٢ .

(٢) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي ٢ / ٢٦٩ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٧ .

الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء قريش، وكان ذلك قبل مبعثه الكريم.

أما بعد البعثة المحمدية فلم يقم الرسول صلى الله عليه وسلم بأي إضافات، أو إعادة البناء، أو أيّ ترميمات، وذلك لأن قبيلة قريش، وبقية قبائل العرب، وإن دخلوا في دين الله أفواجاً إلا أنهم مازالوا حديثي عهد بالجاهلية. ومرت الأيام بالدولة الإسلامية التي بناها الرسول صلى الله عليه وسلم وأحكم بناءها، وانقضى عهد الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله تعالى أجمعين، والكعبة المشرفة مازالت على بناء قريش الذي بنوه لها في زمن الجاهلية. وآلت أمور الحكم إلى بني أمية، وشهد عهد الأمويين هدم الكعبة المشرفة وإعادة بنائها على أساس قواعد إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان ذلك على يد عبد الله بن الزبير، كما شهدت هذه المدة الإصلاحات أو الترميمات التي قام بها الحجاج بن يوسف الثقفي، وذلك بأمر من مولاه الخليفة عبد الملك بن مروان، وذلك لردّها على ماكانت عليه في أيام الجاهلية، وإن كان بناء الحجاج الثقفي جزئياً، ولم يشمل كل الكعبة المشرفة.

وعليه ذهب بعض الرواة إلى القول إنّ البيت الحرام قد بني عشر مرات، ومنهم من رأى أن عدد مرات البناء خمس مرات فقط، كما ذهب بعض الرواة إلى أن البيت الحرام قد بُني ثلاث مرات، وآخرون يذهبون إلى أن عدد مرات البناء كان إحدى عشرة مرة، ومن ثم سأتناول كل مرحلة على حدة.

بناء الملائكة عليهم السلام :

عندما خاطب رب العزة والجلالة ملائكته بقوله : ﴿ **إني جاعل في**

الأرض خليفة قالُوا أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفكُ الدّماء ونحن نسبّحَ بحمدك ونقدّس لكَ قال إني أعلم ما لاتعلمون ﴾(١).

أبدت الملائكة اعتراضها على هذا الأمر الإلهي واستنكارها له، ظناً منها أنها أحق بهذا الاستخلاف؛ لأنهم يسبحون الله بحمده، وينزهونه عما لايليق به، قال الله تعالى : **﴿ يسبحون الليل والنهار ولايفترون ﴾**.

وأراد الله عز وجل بالخليفة آدم عليه السلام حتى يقوم بتنفيذ أوامره وأحكامه، ولكن رأت الملائكة أنّ غيرهم يفسد في الأرض بإراقة الدماء، وارتكاب المعاصي، وإيتاء الفواحش، ولكن عندما أدركت الملائكة أنها أغضبت خالقها لاذت بالعرش العظيم تطوف خوفا من عقابه وحسابه، وطمعاً في عفوه ومغفرته، وكان دعاؤهم في طوافهم تضرّعاً وبكاءً، ويسألونه، وهو الغفور الرحيم، أن يغفر لهم زلتهم، ويظلهم برحمته التي وسعت كل شيء ، فأنزل الله تعالى إشفاقا بهم سكينته ورحمته عليهم «فوضع الله تعالى تحت العرش بيتاً على أربعة أساطين من زبرجد وغشاهن بياقوته حمراء ، وسمي البيت الضراح، والضراح في اللغة : الشيء البعيد . ثم أمر الله سبحانه وتعالى ملائكته أن يطوفوا بهذا البيت، ويدعوا العرش العظيم، فطافت الملائكة بالبيت، وتركوا العرش العظيم، وصار ذلك أهون عليهم»(٢).

وهذا البيت الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لملائكته هو البيت المعمور،

---

(١) سورة البقرة : ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء / ٢٠.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد : ٨ .

الذي يدخله كلّ يوم وليلة سبعون ألف ملك، لايعودون إليه أبداً، وتجلّت رحمة الله تعالى ورفقه بملائكته أن يسّر لهم الطّواف حول عرشه العظيم.

وكما جعل سبحانه وتعالى طواف أهل السماء حول البيت المعمور أراد لعباده في الأرض أن يكون لهم مايماثله، فأمر ملائكته أن يبنوا لعزته وجلاله بيتا في الأرض حيال البيت المعمور، الذي في السماء، وهكذا قامت الملائكة عليهم السلام بتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى، وكان هذا أول بناء للبيت الحرام. ذكر ابن كثير: «قوله تعالى على لسان الملائكة عليهم السلام: ﴿ **أتجعل فيها** ﴾ عبارة عن سؤال على وجه الاستكشاف والاستعلام على وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتنقيص لبني آدم والحسد لهم كما توهمه بعض جهلة المفسرين»[١].

وذكر السهيلي في الروض الأنف: «أنّ الله سبحانه وتعالى لما قال لملائكته ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة قالو أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ خافوا أن يكون الله عاتبا عليهم لاعتراضهم في علمه، فطافوا بالعرش سبعاً يسترضون ربهم ويتضرعون إليه»[٢]. ويفسر ابن ظهيرة قول السهيلي: «خافت أن يكون الله عاتبا عليهم أنه لم يقع من الله عليهم وهو الموافق للحكم بعصمته، وقوله تعالى: ﴿ **لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون** ﴾[٣][٤].

(١) الجامع اللطيف، ابن ظهيره / ٧١.

(٢) كتاب الروض الأنف في تفسير ماشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام: ١.

(٣) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف: ٧١.

(٤) سورة التحريم: ٦.

وروي «أن الملائكة حين أسست الكعبة انشقت الأرض إلى منتهاها وقذفت فيها حجارة أمثال الإبل، فتلك القواعد من البيت التي رفع إبراهيم وإسماعيل»[1].

بناء آدم عليه السلام :

جعل الله تعالى الجنة مسكناً ومأوى لآدم عليه السلام وزوجه عندما خاطبه رب العزة والجلالة بقوله تعالى : ﴿ **ويآآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيثُ شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطانُ ليبدي لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقُلْ لكما إنّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين** ﴾[2]، وهكذا أهبط الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض من الجنة؛ لأنهما ظلما أنفسهما، وما كان ربك بظلام للعبيد، وظل آدم يتحسّر ويبكي، واشتد حزنه من هذه المصيبة العظيمة، التي ابتلي بها، فتضرع إلى الله شاكياً باكياً من وحشته؛ لأنه فقد مايستمتع به من طواف حول العرش العظيم مع الحفظة الكرام، ولم يعد يستأنس بتسبيحهم وتقديسهم لخالقهم، وطوافهم حول عرش الرحمن، وجاء في التنزيل العزيز ﴿ **والذين**

---

(١) الروض الآنف السهيلي /١٢٨.

(٢) سورة الأعراف : ١٩ – ٢٣.

إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على مافعلوا وهم يعلمون ﴾(١). وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما هبط آدم عليه السلام خرّ ساجداً معتذراً، فأرسل الله عزّ وجلّ إليه جبريل بعد أربعين سنة، فقال: ارفع رأسك، فقد قبلت توبتك، فقال: يارب إنما أتلهف على مافاتني من الطّواف بعرشك مع ملائكتك، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه إني سأنزل إليك بيتاً أجعله قبلة»(٢)، ويروي ابن عباس أيضاً: «أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ولم ير أحداً فيها غيره، قال: يارب مالأرضك هذه غير عامرة، ولايسبح ويقدس لك غيري، قال الله تعالى إني ساجعل فيها من ولدك من يسبّح بحمدي ويقدسني، وساجعل فيها بيتاً أخصّه بكرامتي، وأحوزه لنفسي، وأوثره على بيوت الأرض كلها، وأحرزه بحرمي، وأجعله أحقّ بيوت الأرض كلها عندي وأولى بكرامتي، أضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فإني اخترت مكة يوم خلقت السموات والأرض»(٣).

وأمر الله تعالى آدم عليه السلام خليفته في الأرض أن يبني له بيتاً في الأرض؛ ليطوف حوله كما تطوف الملائكة في السماء حول البيت المعمور، وحتى يتمكن هو ومن سيجيء بعده من ذريته من ممارسة العبادة فيه، وإقامة ذكر الله، وليعوذ به كل من يبتغي رحمة مولاه.

بدأ آدم عليه السلام، تنفيذاً لأوامر ربه، سفره من الهند التي كانت

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٢) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ٩٨.

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ٤.

مهبطا له، ودليله إلى البيت الحرام جبريل الروح الأمين، فقطع المفاوز والفيافي، وماوقعت قدماه على أي أرض ميتة إلا دبت فيها الحياة بإذن الله تعالى، وتحولت إلى عمران، وعم فيها الخير، وجعلت له البحار خطوة، وكان عليه السلام كلما مر بروضة أو أرض تعجبه يسأل الملك أن يتركه فيها، ويأبى عليه الملك، حتى بلغ به الحال إلى مكة، وكشف جبريل عليه السلام عن أسٍّ ثابت في الأرض السفلى بعد أن ضرب الأرض بجناحه، وعاونت الملائكة آدم عليه السلام في بناء أساس البيت من صخور عظام، قذفتها في الأسّ الثابت الذي كشف عنه جبريل لآدم عليهما السلام. أما حواء زوجه فكانت تنقل له التراب بينما هو يحفر حتى بلغ الأرض السابعة، أو حفر الأرض إلى منتهاها، وقد كان أساس البيت من منتهى الأرض حتى أشرف على وجهها، وقد سخر الله تعالى الصخر لآدم بإذنه وأمره أن يطيعه، وتم بناء الأساس من خمسة أجبل هي : الجودي ، وهو الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، بعد أن نضب ماء الطوفان، ثم جبل حراء، وطور زيتا، وطور سيناء، وجبل لبنان، وكان مربضه جبل حراء.

وبعد أن أتم آدم عليه السلام أساس البيت الحرام بإذن ربه أنزل الله تعالى ياقوتة حمراء من الجنة، كانت بمنزلة العزاء والسلوى لآدم عليه السلام، وكان لهذه الياقوتة أربعة أركان بيض، فوضعها عزّ وجلّ على الأساس، وأمر خليفته أن يطوف بها، وهكذا أذهب الله تعالى عن آدم عليه السلام الهمّ والغمَّ الذي كان يجده بعد أن ظلم نفسه وعصى أمر ربه، وكان عقابه أن أخرجه الله من الجنة إلى الأرض، وصار آدم يأنس لتلك الياقوتة الحمراء؛ لأنه

تعرفها، وروي أنها خيمة من خيام الجنة، لها بابان، شرقي وغربي، وفيها ثلاثة قناديل من ذهب. قال ابن عباس رضي الله عنه: «فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام»(1). قد كان موضع هذه الخيمة غثاء على الماء، وذلك قبل أن يخلق الله السموات والأرض، وقد كان خلق التربة سابقاً لخلق السماء، قال تعالى: ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها** ﴾(2)؛ أي بسطها من تحت مكة. وتناول السيوطي هذا المعنى في قوله:

الحمدُ لله ذي الأفضال والمنن ... ثم الصلاةُ على المبعوث بالسُّننِ

الأرضُ قد خُلقتْ قبل السماء كما ... قد نصَّه الله في حاميم فاستبنِ

ولاينافيه مافي النازعات أتى ... فدحْوُها غير ذاك الخلق للفطن(3)

ويذهب البغدادي إلى أنه: «هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الماء قد دحيت الأرض من تحته»(4).

ويروي ياقوت في معجمه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات بعث ريحاً، فصفقت الماء، فأبرزت عن خسفة في موضع البيت، كأنها قبة، فدحا الأرض من تحتها،

(1) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة: ١/ ٧٥.

(2) سورة النازعات: ٣٠.

(3) الجامع اللطيف/ ابن ظهيرة / ١٧.

(4) تاريخ الكعبة المعظمة ـ عمارتها كسوتها سدنتها/ حسن عبد الله باسلامه/ الناشر الكتاب العربي السعودي جده/ الطبعة الثانية / ١٩٨٢/ ١٢.

فمادت فأوتدها بالجبال »[1].

وقال آخر :

دحى الله العظيمُ الأرضَ دحـيـاً ... وميَّز أهلها موتى ومحيى [2]

وظل البيت كذلك حتى ماكان من أمر الطوفان، فرفعه الله سبحانه وتعالى إلى السماء وذلك حتى لايصيبه الماء النجس، وأصبح مكانه ربوة عالية، وكان آدم آنذاك أتاه اليقين.

وذكر ابن خلدون في مقدمته : « فأما مكة فأوليتها فيما يقال أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك، وليس فيه خبر صحيح يعوّل عليه، وإنما اقتبسوه من مجمل الآية في قوله : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾[3] ومع اختلاف الروايات، وهل خيمة آدم عليه السلام التي أهداه إياها الله سبحانه وتعالى عزاء وسلوى له بعد أن أخرجه من الجنة رفعت بعد أن توفاه الله، أم نسفه بعد الطوفان؟ يرى الأزرقي : أن هذه الخيمة قد رفعت بعد وفاة آدم عليه السلام، وعندها قام شيث ولد آدم عليهما السلام ببناء بيت من الطين والحجارة في موضع الخيمة نفسه التي رفعت[4].

ويمكن القول إن هذا أول بناء حقيقي للبيت الحرام؛ إذ إن مادة البناء

(١) معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر دار بيروت، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧.

(٢) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية: ٤ / ٣٧١.

(٣) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو مقدمة ابن خلدون : ٣٥٠. الآية وردت في النص (آية رقم ١٢٧ سورة البقرة).

(٤) كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: ٣٩.

التي استعملها شيث عليه السلام هي من تركيبة الأرض، فلم يأته الله بها من الجنة، ولم ينزلها له من السماء، وظلّ البيت الحرام الذي بناه شيث عليه السلام مكان التقديس والتعظيم، يتعبد فيه ومن جاء بعده من نسله ومن الأمم الأخرى. وتوالت الأيام وتناسخت القرون، وجاء الطوفان ونسف الغرق فيما نسف البيت الذي بناه شيث، ودرس مكانه وخفي حتى بوأه الله تعالى لإمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

رفع القواعد :

بعد ما كان من أمر الخلاف الذي وقع بين زوجي إبراهيم عليه السلام سارة وهاجر أم إسماعيل، فتولد بينهن داء الضرائر من غيرة وحسد، عندما طلبت سارة من زوجها أن يبعد هاجر وولدها عنها، وينفيهم في مكان بعيد. ولكن جاء الأمر السماوي إلى إبراهيم عليه السلام بالرحيل أو الهجرة إلى بلاد العرب بأهله، فأخذهما؛ أي هاجر وابنها الرضيع إسماعيل قاصداً مكة المكرمة : « ثم جاء بها وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا لوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء، فقالت ذلك مراراً ، وجعل لايلتفت إليها، فقالت له : الله أمرك بهذا؟ قال: نعم . قالت إذاً لايضيعنا »(١).

وقفل الشيخ راجعاً إلى موطنه، ولكن تغلبت عليه عاطفة الأبوة، وأخذته الشفقة على فلذة كبده، فاستدار بوجهه ناحية البيت الذي كان

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٥.

يومئذ عبارة عن ربوة عالية، وقد ألهمه الله تعالى بأن مكان البيت الحرام سيكون في هذا الموضع، وبدأ يدعو ربه مخلصاً : ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾[1]. وأقامت هاجر مع وليدها الرضيع بمكة، راضية بحكم الله وقضائه، واستجاب الله تعالى لخليله، وفجر زمزم لأم إسماعيل سقياً لوليدها ولها، ونقل أرض الطائف من الشام إلى أرض الحجاز، وهي آنذاك أرض خلاء، لازرع فيها ولاضرع، كذلك دعوته عليه السلام ﴿**رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزقْ أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾[2] رزقهم الله طيبا مباركاً. فقد اقتلعها جبريل من موضعها بالشام، وأخذها إلى مكة ، وطاف بها حول البيت، ثم وضعها حيث موقعها الحالي ». هذا ماذكره السهيلي. وذهب الأزرقي إلى « أنّ جبريل طاف بها أسبوعا حول البيت الحرام، عندما ساقها من الشام إلى بلاد الحجاز، استجابة لدعوة خليله والله أعلم بصحة ذلك[3].

وكان إبراهيم عليه السلام يزور أهله بين الحين والآخر، وأخبر ابنه في آخر زيارة كان يقوم بها : أن الله تعالى أمره أن يبني بيتاً لعزته وجلاله حيثما أسكن ذريته من ذلك الوادي، والمقصود بالوادي مكة.

وطلب إسماعيل من أبيه أن يطيع أمر ربه، وسيكون عوناً له وسنداً:

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٧.

(٢) سورة البقرة : ١٢٦.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١ /٣٥.

﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾[١]، وأعلم الله تعالى إبراهيم مكان البيت، وذلك رداً على تساؤلات خليله ونبيّه عليه السلام، فأوحى الله تعالى إليه أن يتبع السكينة، وهي ريح ساكنة طيبة هفافة، أو هي اللينة الهبوب، وجاء في وصفها أنها تشبه الحية، ولها وجه يتكلم، وقيل: لها رأسان وجناحان. وفي بعض الروايات : أنها غمامة أو ضبابة. كذلك كان دليله وهاديه لمعرفة موقع البيت الصّرد، وهو طائر يشبه العصفور، ولكنه أكبر منه حجماً، وله رأس ضخم، فأقبل إبراهيم عليه السلام من أرمينيا على ظهر البراق، يرافقه جبريل، والصرد والسكينة حادياه، وجاء في الاكتفاء : «كان لايمر بقرية إلا قال إبراهيم بهذه أمرت ياجبريل، فيقول لا، حتى قدم به إلى مكة، وهي إذ ذاك عضاة وسلم وسمر». وهكذا انتهوا إلى موضع البيت الذي بوّأه الله عزّ وجل له، وكان إسماعيل مقيماً بها، وهو يومئذ ابن ثلاثين عاماً.

وروى عثمان بن ساج في زبدة الأعمال رواية لم أطلع عليها إلا عنده، قال : «بلغنا، والله أعلم، أن خليل الرحمن عُرج به إلى السماء، فنظر إلى الأرض مشارقها ومغربها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾[٢]، فاختار موضع الكعبة، فقالت له الملائكة : ياخليل الرحمن، اخترت حرم الله في الأرض. قال : فبناه من حجارة سبعة أجبل، ويقال خمسة أجبل، فكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال»[٣].

---

(١) سورة الحج /٢٦.

(٢) سورة الأنعام / ٧٥.

(٣) تاريخ الخميس : ٩٣.

وجاء في مختصر تفسير الطبري : «ملكوت السموات والأرض، وقيل تفجرت له السموات السبع والأرضون السبع، حتى نظر فيهن إلى ملك الله تعالى وقدرته؛ ليعلم حقيقة ماهداه إليه الله»[١].

أما موضع البيت، فقد كان ربوة عالية، تشرف على ماحولها، وروى علي كرم الله وجهه : أن إبراهيم أرشد لمكان البيت بوحي من الله تعالى. وقد درس موضع البيت وخفي بعد الطوفان، وكانت هذه الربوة لاتمتد إليها السيول ولاتعلوها، وأدرك الناس وعرفوا بفطرتهم أن موضع البيت حيث تلك الربوة العالية، التي هي عبارة عن أكمة حمراء، أو تلّ أحمر عليه رضاض من تراب، فقد جاءت معرفة الناس له من غير تمييز ولاتحديد لموقعه بالتحديد، وكانوا يحجون إلى موضعه رغبة وأملاً في الشفاعة أو التبرك، وما أتى إلى ذلك الموضع صاحب حاجة إلا قضيت له حاجته.

ومما يؤكد أن موضع البيت بتلك الربوة العالية أن الأنبياء عليهم السلام أجمعين كانوا يحجونه ولايعلمون مكانه بالتحديد، حتى بوأه الله تعالى لخليله إبراهيم، وأعلمه مكانه».

وكان يعرب وهود (عليه السلام) يحجون إلى موضع تلك الربوة في زمرة من يغدون إليه للحج، وحدث أن طلب يعرب من هود أن يقوما ببنائه، ولكن أخبره هود بأن هناك نبياً سيأتي من بعده، سيقوم ببناء البيت، ويتخذه الرحمن خليلاً[٢].

ولما بلغ إبراهيم عليه السلام، والروح الأمين جبريل، والصرد والسكينة،

---

(١) مختصر تفسير الطبري: ٥٣.

(٢) الكامل في التاريخ : ٨١.

موضع البيت، الذي كان فيما مضي زرباً لغنم إسماعيل عليه السلام، وقفت السكينة، وتطوقت به كالسحابة، وخاطبت الخليل: ابن عليّ، وقال ابن عباس: «بعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلّها إلى أن وافت مكة وقفت على موضع البيت فنودي منها ياإبراهيم إبن على ظلها لاتزد ولاتنقص»(١). وبدأ إبراهيم عليه السلام يحفر القواعد التي أرساها آدم عليه السلام، والروح الأمين يخطط له كيفية البناء، فكان هو البنّاء، وجبريل يقوم بدور المهندس، أما إسماعيل، فقد كان يعاونه، أو ربما كان يناوبه في البناء، ورفعا قواعد البيت التي كانت موجودة من قبل، ولكنها محيت ودرست، فأعلمها الله تعالى له، وكانا يدعوان الله تعالى مخلصين أن يتقبل عملهما: ﴿**وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيلُ**﴾ وهما يدعوان ﴿**ربَّنا تقبَّل منّا إنّك أنتَ السميع العليم**﴾(٢). وكان يعاون إبراهيم عليه السلام سبعة أملاك، وذلك بنقل الحجارة من الجبال، وقد كانت الحجارة هي المادة الخام الأساسية التي استعملت في عملية البناء، وكانت الحجارة تجلب من خمسة أجبل هي طور سيناء، والجودي، وطور زيتا، وجبل لبنان، وجبل حراء.

قال ابن عباس رضي الله عنه : «أما والله مابنياه بنقصة ولامدر، ولاكان معهما ما يسقفانه به، ولكنهما أعلاه وطافا به» وفي رواية أخرى: «رضماً فوق القامة ولم يسقفا»(٣) والرضم : رص الحجارة بعضها فوق بعض.

(١) المرجع نفسه :٨٢.

(٢) سورة البقرة : ١٢٧.

(٣) اخبار مكة للأزرقي: ١ / ٥١.

ويشير الشاعر إلى معنى رضم بقوله:

رزئتهم في ساعة جرعتهم ... كؤوس المنايا تحت صخر مرضَّم[1]

وهو مقام إبراهيم، وقد كان هذا الحجر محفوظاً لدى إسماعيل، وهو الحجر الذي قدمته زوج إسماعيل لضيف زوجها، وهي تجهل حقيقة أمره، عندما كان يزوره في بعض المرات، وأجلسته عليه؛ لكي تزيل عنه بعضَ عناء السفر، وما ألمّ به من شعث، فغاصت رجلاه في الحجر، وأرت زوجها موضع قدمي الشيخ الذي أتى لزيارته، فعرف الولد آثار أثر والده واحتفظ به.

وأراد الخليل عليه السلام أن يجعل للناس علماً يبدؤون فيه طوافهم، وطلب من ابنه إسماعيل أن يحضر له الحجر، وعندما تلكّأ وتأخر عليه بالبحث عنه، أتاه به جبريل من الهند. وتشير بعض الروايات أن الله سبحانه وتعالى استودع الحجر جبل أبي قبيس، وأستأمنه عليه، وأمره أن يعطيه لخليله عندما يراه يبني بيته. وعندما ارتفع البنيان قرب إسماعيل لأبيه الشيخ حجراً ليقوم عليه. وكان يحوله له في نواحي البيت المختلفة أو الأربعة في أثناء البنيان، وأشار إلى ذلك أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل[2]

وكان لها باب واحد لاصق بالأرض وغير مبوب، ولم يجعلا لها سقفاً، وكان طولها فوق القامة، وقدر بحوالي تسع أذرع. أما الشكل الخارجي للكعبة فقد جاء مربعاً زواياه إلى الجهات الأربع، مما يجعل تيارات الرياح

---

(١) كتاب الروض الأنف :١٢٧.

(٢) السيرة النبوية : ٣٣٩.

تتكسر عليها؛ فالرياح مهما بلغت شدتها وسرعتها لاتؤثر فيه، مما لايدع مجالاً للشك أن بقاء الكعبة منذ الأزل وإلى الأبد بإذن الله، ليست بقوة البناء، ولكن بقدرة من خلقها قبل كل شيء، ودحي الأرض من تحتها.

وهذا الابتكار في فن العمارة والبناء يعدّ إعجازاً هندسياً حتى يومنا هذا، وقد اعتمد عليه قدماء المصريين في بناء الأهرامات في هندسة العمارة وفنها.

وحدث أن مر ذو القرنين عليه السلام بينما الخليل وابنه عليهما السلام يقومان بالبناء، وطلب منهما أن يأتياه بدليل على صحة زعمهما أن الله تعالى أمرهما ببناء بيته الحرام، وعندئذ شهدت لهما أكبش، وعندها انصرف مصدقاً مسلماً بهما.

وكان جبريل عليه السلام مرشد الخليل عليه السلام لوضع أنصاب الحرم وحدوده؛ فكان أول من حدّد حدود الحرم، وبعده ابنه إسماعيل، ثم قصي بن كلاب.

ويقول الهمداني في وصف بناء إبراهيم:

حتى إذا أفضوا من المشاهد ... وعادوا إلى بيت مشيّد شائد
خطّ لإبراهيم ذي المعاهد ... ولابنه الصادق في المواعد
إذ يرفعان البيت ذا القواعد ... ويحفران الماء ذا الموارد
فالناسُ بين شاكر وحامد ... وطائفٍ وراكعٍ وساجد(١)

وبتمام بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة المشرفة بدأت مرحلة جديدة في

---

(١) صفة جزيرة العرب: ٣٩١.

حياة البشرية؛ فقد كانت هذه النقطة هي المؤشر الأول لنبذ عبادة الأوثان والتقرب بها وإليها، وبداية دين الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، وتطبيق شرع الله في الأرض، بعد أن فرضت عبادته بالصورة المثلى التي يستحقها، والتي هو أهل لها، فبعد أن فرغ إبراهيم الخليل من تنفيذ أوامر الله تعالى ببناء بيته المحرم أمره الله تعالى أن يدعوا خلقه، ويناديهم للوفادة إليه، وزيارة بيته المحرم، حُجّاجاً وعُمّاراً، وأذَّن الخليل عليه السلام في الناس بالحجّ وأسمع الله صوته من في أرحام النساء وأصلاب الرجال، من سبق في علمه أن يكونوا مسلمين.

ويحكي اليعربي في معلقته الإسلامية قصة رفع القواعد بقوله:

وإذْ يرفعانِ البيت هذا خليلُه ... وذاك ابنُهُ يشدو بذكْرٍ مُـردد
قواعدُ جُبَّ الأخشبان صلابُها ... ومالبثا أن أخلدا أيَّ مخلد
وأسنمةِ خضر أجاءا لأسّه ... إذا قدحت بنارٍ وأزيد
وددْتُ لَو انيَ كنتُ إذ ذاكَ شاهداً ... تألُّقها في لماحة المجرد
زبرجد خبات لأساس جنةٍ ... وينع حجار عند صفوانَ أجرد
علا أذرعاً تسعاً ولا سقفَ فوقَهُ ... فليس خليل الله يعبر بمحْكد
ولكن يرصُّ الصخر رصّاً لكعبةٍ ... وبسعيٍ خفيف الحاذِ في حَفد جرهد
ومن خلفه لجله هو الشرف غرة ... ويناوله الأحجار من جنب جمعد
على مائة أربى خليل محبب ... ولم يك من قرن بمنحنى أجرد
على مائة أربى وللوجه نوره ... وليس عليه ظلة من تجعد(١)

(١) المعلقة الإسلامية في تاريخ الكعبة والمسجد الحرام: ٩١ - ٩٢.

وأسمنة خضر يعني بها الصخور التي بني عليها أساس البيت؛ فقد شبهت بأسمنة الجبال، وأحياناً شبهت بالإبل الخلف. والمحكد الملجأ، أما الحاذ فظهر الشيء، والحفد الخفة في العمل، والجرهد السيار النشيط.

وقال ابن الحاج في منسكه : «وكان صفة بناء إبراهيم عليه السلام للبيت أنه كان ممدوداً من ورائه، وكان له ركنان هما الركنان اليمانيان، فجعلت قريش حين بنوه أربعة أركان»[1].

وخلاصة القول أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بنيا البيت بأمر من الله، وجعلا له ركنين؛ الركن الأسود والركن اليماني، وباباً غير مبوب، ملصقاً بالأرض، ولم يسقفاه، وحفرا بئراً على يمين داخلها؛ ليحفظ بداخلها مايهدى للكعبة من أموال ذهب.

بناء العمالقة :

العمالقة أول من سكن مكة، وكانوا يقيمون حول الحرم، ولكن اختلفت الروايات في بناء العمالقة وبناء جرهم للكعبة، أيهما كان أسبق، يذهب الأزرقي إلى : «أن العمالقة سبقوا جرهم، وذلك فيما يرويه بسند إلى الإمام عليّ كرم الله وجهه أنه قال، في خبر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة : «فبنته العمالقة، ثم انهدم، فبنته قبيلة جرهم». وكذلك مايرويه بسند إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال[2]: «وكان بمكة حيٌّ يقال لهم العماليق، كانوا في عزة وثروة، وكانت لهم خيل وإبل وماشية ترعى حول مكة، وكانت الفعباة ملتفة، والأرض مبقلة، وكانوا في عيش

---

(١) الروض الأنف: ١ / ٤٠.

(٢) أخبار مكة الفاكهي ٥ / ١٣٨.

رخي، فبغوا في الأرض وأسرفوا على أنفسهم، وأظهروا المظالم والإلحاد، وتركوا شكر الله سبحانه وتعالى فسلبوا نعمتهم»[١].

وأكد المحب الطبري ماذهب إليه الأزرقي من أن العمالقة كان لهم قصب السبق في بناء البيت قبل جرهم[٢] . أما الفاكهي، فيروي بسند إلى الإمام علي (كرم الله وجهه) أيضاً مايفيد أنّ جرهم قد بنوا الكعبة المشرفة قبل العمالقة، وذلك في قوله: «إن أول من بنى البيت إبراهيم عليه السلام ثم انهدم فبنته جرهم ثم انهدم فبنته العمالقة»[٣].

وأرى أن العماليق قبل جرهم؛ لأنهم أول من سكن حول الحرم، بدليل أن إبراهيم عليه السلام عندما أخذ أهله مهاجراً من الشام إلى مكة، تنفيذاً للأمر الإلهي له بالهجرة، مر بهؤلاء القوم، وقد كانوا يقيمون أصلاً حول الحرم، وكانوا قد أهدوا إلى إسماعيل الرضيع آنذاك عشرة أعنز، وهي نسل أعنز مكة حتى اليوم، أما جرهم فقد أقبلوا وهم في طريقهم إلى الشام ظاعنين، ورأوا ماكان من أمر الطير بعد أن فجر الله تعالى زمزم سقياً لإسماعيل وأمه، واستأذنوا هاجر في الإقامة معها، كما استأذنوها فيما حباها الله تعالى به من ماء، فأذنت لهم، فأقاموا، وكان هذا أول عهدهم بالحرم. كذلك نجد أن زوج إسماعيل الأولى كانت من العماليق. ومهما كان من تضارب الروايات[٤] نجد أن العمالقة قد آل إليهم الحكم وأسباب

(١) كتاب الإعلام: ٤٣ .

(٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الفاسي ج١ /٩٣-٩٤ .

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ٥ /١٣٨ .

(٤) أخبار مكة للأزرقي: ١ ، أخبار مكة للفاكهي: ٥ /١٣٨ .

الرياسه بمكة، وكان الله قد رزقهم مالاً كثيراً، وجعل لهم سلطاناً قوياً، ولكنهم بغوا في حرم الله وأفسدوا في أرضه، وأباحوا المحظورات، واستحلوا ماكان محرماً، فسلط الله تعالى عليهم غضبه وعذابه، فأضاع ملكهم بعد أن أضاع هيبتهم، وفرق جمعهم، وأصابهم المحل والجدب، وأرسل الله النمل وسلطه عليهم، حتى أخرجهم من الحرم، وماتوا جميعا، وأورث الله تعالى بعدهم الحرم إلى قوم جرهم.

بناء جرهم :

تولى إسماعيل أمر الكعبة المشرفة بعد أبيه إبراهيم خليل الرحمن (على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام)، ثم آل بعده أمر البيت الحرام إلى ابنه ثابت مايشاء الله من الزمن، ثم تولى من بعده جدُّه لأمه، ويدعى مضاض بن عمرو الجرهمي، وبعده أخواله من الجراهمه، وهكذا آل أمر ولاية البيت إلى قبيلة جرهم. وتمتد جذورهم إلى بلاد اليمن، وكانوا قد ظعنوا إلى مكة طلباً للعشب والماء[١].

وهكذا استجاب الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، بأن جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، فقد أقاموا مع هاجر ووليدها حول بئر زمزم. وبمرور الأيام نالوا شرفاً عظيماً ومكانة سامية ورفيعة بين القبائل، وقد نصر الله تعالى قوم جرهم، وأيدهم أينما حلوا ونزلوا، وذلك لتمسّكهم بدين إسماعيل عليه السلام، وتمكنوا من السيطرة على القبائل التي كانت تقطن من حولهم، وتم على أيديهم نفي العمالقة وإبعادهم[٢] عن أرض الحجاز

---

(١) أم القرى مكة المكرمة: ١٠٥.

(٢) مرآة الحرمين: ٩٠.

بعد أن بغوا وأفسدوا في حرم الله تعالى.

وكانت مكة قد اشتهرت بسيولها قديماً، وحدث أن جاء سيل ودخل البيت الحرام، وخرّب بعض جدرانه، أو تصدع بعضها، فقامت قبيلة جرهم بزعامة ملكها مضاض بن عمرو بإعادته على بناء إبراهيم عليه السلام، وقام ببناء البيت لجرهم رجل يُدعى أبا الجدرة عمرو وكني بالجادر[1].

وذكر السهيلي : «وقد قيل إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل قد صدّع حائطه، ولم يكن ذلك بنياناً، وإنما كان إصلاحاً لما وهى منه، وجداراً بني بينه وبين السيل، ونالت جرهم ببنائها للبيت الحرام جاهاً وشرفاً، وعلت كلمتهم بين القبائل، ولكن هان أمر البيت بينهم، فهان أمرهم على الله تعالى، لم يراعوا حرمات الله تعالى في أرضه، ولم يقدروا للبيت الحرام حق قدره، وصاروا يظلمون من دخل الكعبة المشرفة، وهي الحرم الآمن لكل خائف ومستغيث، وكانوا أول من مارس البغي بمكة، وسرقوا مال الكعبة المشرفة الذي كان يهدى لها،و لم ينتهوا عند هذا الحد، بل مارسوا الفاحشة، وأتوا الرذيلة داخل الكعبة المشرفة. وتقف قصة إساف ونائلة أكبر دليل على فجورهم، فإساف رجل من جرهم، ونائلة إمرأة من قطورا، وهما أولاد عمومة، فقد أتيا بالفاحشة وفجرا داخل الكعبة المشرفة، وأنزل الله غضبه وسخطه عليهما، ومسخهما صنمين، ونصبا عند الكعبة المشرفة للعظة والاعتبار، وبمرور الزمن نسي الناس ماكان من أمرهما، ورفعوهما إلى مستوى الألوهية، وصارا يعبدان»[2].

---

(١) تاريخ الخميس : ١٠٩.

(٢) كتاب الروض الانف: ١/١٢٨.

ولما زاد فساد قوم جرهم وبغيهم قام فيهم ملكهم خطيباً: «ياقوم احذروا البغي؛ فإنه لابقاء لأهله، قد رأيتم ماكان قبلكم من العماليق، فاستخفوا بالحرم فلم يعظموه، وتنازعوا دينهم واختلفوا، فسلطكم الله عليهم، فأخرجتموهم من مكة، فتفرقوا في البلاد، فلا تستخفوا بحق الحرم وحرمة البيت؛ لأنه بيت الله، ولاتظلموا من دخله أو جاء معظّماً لحرمته، أو جاء بائعاً لسلعته ومرتعياً في جواركم، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت عليكم أن تخرجوا منه خروج ذلّ وصغار، حتى لايقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم، ولاعلى زيارة البيت الذي هو لكم حرم وأمن، فالطير تأمن فيه»[1].

ولم يعيروا كلام زعيمهم أذناً صاغية واستكبروا وطغوا، وغواهم الشيطان، وزيّن لهم الباطل، فمن ذا الذي يستطيع أن يخرجهم من الحرم، وهم قوم أعزة، ولهم من الثروة والجاه والشرف ماليس لغيرهم.

واختلفت الروايات[2] في الذي قام بإخراجهم من مكة.

أولاً: أجمع بنو بكر من كنانة وغبشان من خزاعة لقتالهم، وذلك لاستبدادهم وطغيانهم وأكلهم مال الكعبة المشرفة الذي كان يهدى لها.

ثانياً: من مظاهر استبداد قوم جرهم أنهم كانوا لايحترمون من يفد إلى حرم الله تعالى، فقد حدث أن منعوا عمرو بن عامر بن ماء السماء من الإقامة بمكة، فتمّ على يديه إخراجهم من الحرم.

ثالثاً: كانت جرهم قد منعت عمرو بن ربيعة بن حارثة حجابة البيت

(١) مرآة الحرمين: ٩٢.

(٢) اخبار مكة للازرقي: ٣٠، اخبار مكة للفاكهي: ١/ ١٣٨، الإعلام: ٥٣.

الحرام، واستنكرت ذلك عليه، وأبت، فتمّ إخراجهم بوساطته.

وذكر النهروالي أن بني إسماعيل عليه السلام هم الذي أخرجوا جرهم من مكة المشرفة[1]. ومهما كانت السبل أو الطرق التي خرجوا بها من مكة المكرمة، ففسادهم قد جرّ عليهم تلك الويلات. ولما رأى زعيمهم مضاض بن عمرو أن القوم لايعيرونه أذناً صاغية، ولا هم منتهون عن استبدادهم وبطشهم وانتهاك حرمات الله في حرمه، أخذ الأموال التي كانت في خزانة الكعبة المشرفة، وغزالي الكعبة المشرفة، وهما من الذهب ، كان قد أهداهما ملك الفرس للكعبة، وقام مضاض الجرهمي بدفن الأموال والغزالين في بئر زمزم، ولم يكن بها أي ماء آنذاك، ودفن البئر وهو يردد[2]:

لاهمّ إنّ جرهما عبادك ... الناس طُرفٌ وهُم تلادُك

وهم قديما قد عمروا بلادك

وخلع الزعيم الجرهمي قومه، وخرج من مكة متحسّراً، وحدث أن نزعت إبل له منه وفرت إلى مكة، وكانت الوحشة قد ملأت نفسه، وحنّ حنيناً موجعاً اعتصر فؤاده إلى مكة، وعندما راح يتقصى أثر إبله، ووجدها بين منحورة ومأكولة، ولا حيلة له في الوصول إلى حلاله، وخزاعة كان آل أمر البيت إليها، وأبت جواره، وحكمت عليه بالنفي، وأهدرت دمه لو حدثته نفسه بالاقتراب من الحرم، فولى أدباره حزيناً كاسف البال وهو ينشد:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمرْ بمكة سامرُ

---

(١) كتاب الإعلام: ٤٣.

(٢) كتاب الروض الأنف: ٨/١١٢

ولم يتربع واسطا فجنوبه		إلى المنحنى من وادي الأراكة حاضر
بلى نحن كنّا فأزالنا أهلها		صروف الليالي والجدود العوائر
وبدلني ربي لها دار غربة		بها الذئب يعوي والعدوان حاضر
فإن تملأ الدنيا علينا بكيلها		ويصبح حال بعدها وتشاجر
فكنا ولاة البيت من بعد نابت		نطوف بهذا البيت والخير ظاهرُ
فأنكح جدّي غير شخص علمته		فأبناؤه منا ونحن الأصاهرُ
فأخرجنا منها المليك بقدرة		كذلك بالناس تجري المقادرُ
أقول إذا نام الخليُّ ولم أنم		إذا العرش لايبعد سهيلٌ وعامرُ
وبدّلت منهم أوجهاً لا أحبها		وحميرٌ قد بدلتها العمائرُ
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة		كذلك عقتنا السنون الغوابرُ
وسحت دموع العين تبكي لبلدة		كذا بها حرمٌ آمنٌ وفيها المشاعرُ
بوادٍ أنيسٍ ليس يؤذى حمامه		ولاصنفرٌ يوماً وفيها العصافرُ
وفيها وحوشٌ لاترام أنيسةٌ		إذا خرجتْ منها فما أن تغادر
فياليت شعري هل تعمر بعدنا		جيادٌ فممضى سيله فالظّواهرُ(١)

ويتناول اليعربي(٢) بالوصف حال قوم جرهم بعد أن وسوس لهم الشيطان، فبغوا في الأرض فساداً، غير مبالين لنصيحة زعيمهم مضاض الجرهمي:

بغوا أشراً في البيت من كل قارح		ومن كلّ كفار ومن كلّ حلقد

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: ١/٥٩٨.

(٢) المعلقة الإسلامية / اليعربي: ٥٩.

فقال مضاض أيُها الناس اخبتوا لربّ غفورٍ عامرٍ بالبيت مشكد
ألا أيها الكُفّار حوروا لبارىء مخافة أخرى من حميم مصخد
ألا أيها الكفار كفّوا فجوركم فإني أراها لعنة في التشوّد

وقوله حلقد؛ أي سيئ الخلق، لاأدب له، والمشكد : المعطي. وذكرهم بالآخرة ومافيها من عذاب ونار محرقة، والتشود : طلوع الشمس وارتفاعها في كبد السماء، وبعد أن وعظهم ولم يتعظوا، ونصحهم ولم ينتصحوا، عمد إلى مافي جبّ الكعبة المشرفة، ومعاليق البيت الحرام، ودفنهم في بئر زمزم، حرصاً منه على أموال الكعبة المشرفة يقول :

فلما عتوا واستكبروا سارفي دجى من الليل في خطو كتر حاف أبرد
يدبّ إلى حيثُ الخزانة ثرّةٌ لك سني عسجديّ صلودد
وفيها ظباء من نضارٍ وأدرعٌ ثقال لصون البيت من شرّ مؤبد
مشفدّة بالخزّ والخمل زينة ومنه بينها للحرب غير المثقّد
وأسياف عقيان هي الضح ضحوةً مرصعةً أغمادها الزمرّد
تأملها والليل مرخ حتاره وقد خفدت ساعاته في تربد
أليس مضاضٌ يعلم البيت أنه محاط بجند جاثم حول محفد

إلى أن يقول :

فأعمق فيها الحفر حتى بدت له أصول صواح من مشيد مصومد
تهلل وجه من مضاض مسهد وصفق قلب بين أضلاع صلخد
وأودع كنز البيت أعطاف زمزم كما رقدت في الريم أعطان مشهد(١)

---

(١) المرجع السابق نفسه : ٦٠-٩٢.

والمصومد : كل شيء غليظ، والصلخد : الشجاع، وفرح مضاض وتهلل وجهه عندما أخفى أموال البيت الحرام ومعاليقه داخل بئر زمزم، ونكالاً بقوم جرهم سلّط المنتقم الجبار عذابه عليهم، وأنزل غضبه بهم، ففرق جمعهم وشتتهم في البلدان، وأرسل إليهم النمل الذي أباد أعداداً كبيرة منهم، يقول اليعربي :

أثابهم الرحمن ملكاً وأنعما فلما طغوا ذاقوا وبال التخدّد
بذرّ مشى فيهم وللذر بأسه فمزق منهم كل نحر ومحسرد[1]

والتخدد : هو الهزال والضعف، والذر : هو النمل ، كما سلط الله سبحانه وتعالى النغف، وهو عبارة عن دود يكون في أنوف الإبل والغنم، فحصدهم حصداً، كما سلط عليهم الرعاف، فقتل معظمهم، وابتلوا بأنواع كثيرة من الأمراض والآفات. وعن كيفية إخراجهم على يد خزاعة بعد أن آل لهم أمر البيت الحرام، وأصبحت مقاليد الحكم بيدها، والمصائب التي ابتلوا بها، يقول أيضاً :

وأطلق ربُّ العرش من قوس بطشه طوائف من أزد كسهم مسدد
فلم يذروا من جرهم قط آهلاً وهل القهار نسكاً لأوغد
خزاعة ذادتهم إلى شر موطن وأهلكهم من بغيهم نار صيهد
ودود رعي منهم أنوفاً وأعيناً فأرؤسهم منه كعظم مجلد[2]

وتحسر الجراهمة على إبعادهم من مكة المكرمة، حيث المشاعر الدينية والحرم، الذي يستمتع به الإنسان والحيوان على حد سواء بالأمن

---

(١) الحلقة الاسلامية / اليعربي ٩١-٩٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ٩١-٩٢ .

والطمأنينة، وندموا على ماضيعوا من مجد رفيع وشرف عظيم تليد، وأتى سيل من سيول مكة التي اشتهرت بها في قديم الزمان، فجرف السيل مابقي من قوم جرهم، وقذف بهم بالموضع الذي يقال له إضم، وذكر أمية ابن أبي الصلت ذلك في قوله:

جرهم دمشوا تهامة في الدهر فسالت بجمعهم إضم(١)

ولقد ملأت الحسرة نفس عمرو بن الحارث، وفاضت عيناه بالدموع، وأنشد باكيا على عزّ ضيعوه وشرف فقدوه:

وكنّا ولاة البيت والقاطن الذي إليه يوفي نذره كلُّ محرم
سكنّا بها قبل الظباء وراثة ورثنا بني حيّ بن نبت جرهم(٢)

وأراد عمرو بن الحارث، أن يعظ من سيأتي بعدهم، ويذكرهم باحترام حرمات الله وتعظيمها، وذلك حتى لايضيعوا ما ضيعوه، ولايفقدوا مافقدوه بسبب بغيهم وفجورهم وسوء تدبيرهم، حتى صار حالهم بئس الحال، فقال واعظاً:

ياأيها الناس سيروا إن قصركم أن تصبحوا ذات يوم لاتسيرونا
حثوا وأرخوا من أزمتها قبل الممات وقضوا ما تقضونا
إنّا كما كنتمو كنّا فغيّرنا دهر فسوف كما صرنا تصيرونا(٣)

وهكذا انتهى أمر جرهم، وتشتت جمعهم، وتفرق شملهم، وآل أمر

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت: ١/ ٦٠٠.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٥٠-٥١.

(٣) شفاء الغرام: ١/ ٦٠٣.

البيت من بعدهم إلى خزاعة، وهي قبيلة من الأزد، وسموا كذلك لأنهم تخلّفوا عن قومهم، وأقاموا بمكة؛ أي تخزعوا وطلبوا من جرهم الإقامة معهم، فلما أبوا عليهم قاتلوهم، وكانت الغلبة لخزاعة، وآلت إليهم كلّ أسباب السيادة والرياسة، وعلى رأسها ولاية البيت الحرام، ونفوا الجراهمة وطردوهم شرّ طردة من أرض الحرم، وبقيت ولاية البيت الحرام في خزاعة ثلاثمائة سنة، وكان آخر زعمائهم حليل بن أبي حبشية الذي صاهره قصي بن كلاب.

ويصف البيحاني في منظومته بناء جرهم للبيت الحرام، وما نالوه من شرف بهذا البناء ولكن ضيعوا ماحباهم الله تعالى به بسبب غيهم وتماديهم في الفساد:

يقال إن أمما من العرب — قد ذهبت وشأنها فيمن ذهب

إلى ان يقول:

وجرهم سلطانها والملكة — قد ضاع منهم بضياع مكة

سدانة البيت قد كانتْ لهمْ — من عهد إسماعيل إذ صاهرهم[1]

بناء قصي بن كلاب:

آل أمر البيت الحرام لقصي بن كلاب بعد وفاة حليل بن أبي حبشية صهره، وكان قد أسند اليه ولاية البيت الحرام عندما حضرته الوفاة، وأنكرت خزاعة عليه ذلك، وهنا جمع قصي أهله وأعوانه من قريش، وأعدّ العدة لقتالهم، يقول ابن كثير: «وكان قصي سيداً رئيساً مطاعاً معظماً، والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب،

---

(١) أشعة الأنوار على مرويات الأخبار: ٣٩٢.

واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة، وإجلائهم عن البيت الحرام، وتسليمه لقصي، فكان بينهم قتال كثير ودماء غزيرة، ثم تداعوا إلى التحكيم، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف من بني كنانة، فحكم لقصي البيت الحرام، وإن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع بشدخه تحت قدميه، وأن ماأصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية، وأن يخلّي بين قصي وبين مكة والكعبة»(١).

وهكذا استولى قصي بن كلاب على الكعبة المشرفة، وانعقدت بيده كل مقاليد الحكم وأمور السيادة. ومن مظاهر سيادته وريادته أن تولى أمر الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء. ويعد هذا دليلاً على أن قصياً قد تمكن من ولاية البيت الحرام بعد قتال شديد، ثم اللجوء إلى الصلح والسلم. ويمكن القول إنّ قصياً تمكن من أمر البيت الحرام بالمكر والحيلة والخداع، وهذه الأساليب يلجأ إليها بعض الحكماء للوصول إلى مرامهم.

ذكر الآلوسي(٢) : «أن حليل بن حبشية أوصى بالزعامة من بعده لولده المخترش وكانت حجابة البيت يومئذ يقوم بأمرها أبو غبشان الخزاعي، الذي أشركه حليل مع ابنه المخترش في ولاية البيت لحرام وسدانته، وكان لقصي من الدهاء والحكمة ماأمكنه أن يخدع أبا غبشان بعد أن سقاه شراباً حتى أسكره، وعندها دفع إليه بمفاتيح البيت الحرام، فقد دفع قصي بزق خمر ثمناً أو مقابل مفاتيح الكعبة المشرفة، وعندما أفاق أبو غبشان من سكرته عضّ أصابع الندم؛ لأنه ضيع بحماقته شرفاً تليداً، وفقد أهم أسباب السيادة

---

(١) السيرة النبوية: ٢ / ١٩٢.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ١ /٢٤٦.

والرياسة، وهي حجابة البيت الحرام، فصار أبو غبشان مضرب المثل في الحماقة فقيل : أحمق من أبي غبشان »(١) وكذلك ضرب به المثل في الندم، وقيل : «أندم من أبي غبشان وأخسر صفقة من أبي غبشان »(٢) وأصبحت خزاعة موضع تهكم القوم وسخريتهم، وأكثر الشعراء من هجائهم، فقال شاعرهم :

باعتْ خُزاعةُ بيت الله إذ سكِرتْ ... بزقّ خمرٍ فما فازتْ ولاربحتْ(٣)

وانبرى شاعر آخر يعيّرهم بفعلتهم الشنيعة هذه، ويعيب عليهم ذلك، وأوقع اللوم على البائع الذي فرط وأضاع حوزة آبائه وأجداده، وبذلك ظلم نفسه وقومه :

أبو غبشان أظلمُ من قُصيّ ... وأظلمُ من بني بكرٍ خُزاعَة

فلا تلحُو قصيّاَ في شراهُ ... ولُومُوا شيخكُم إذ كانَ باعه(٤)

فليس اللوم والعتاب على قصيّ، فقد ربح ربحاً عظيماً بشرائه لمفاتيح الكعبة المشرفة؛ لأنه أعاد بذلك لقريش مجد أبيهم إسماعيل عليه السلام، ويعدّ قصيٌّ الجدَّ العاشر للرسول (صلى الله عليه وسلم).

وكان للعرب مآثر كثيرة يتفاخرون بها، كالشجاعة والإقدام والجود والكرم، أما خزاعة فقد التصقت بها صفة ذميمة، تعد من المناقص، ونبذها الكثيرون، وإن لم تكن محرمة، هي شرب الخمر، فهجاهم بها، فقد نبذ

---

(١) معجم الأمثال العربية القديمة: ١/٥٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه: ١/١٩٩ .

(٣) بلوغ الأرب: ١/٢٤٧ .

(٤) الروض الأنف: ٢ .

هذه العادة الذميمة عدد كبير منهم، وعافت نفوسهم شربها، مع ملاحظة عدم وجود مايمنعها من قانون سماوي أو وضعي ، وفي الوقت ذاته هنالك من تغنى بها وبعتقها وجودة صنعها، وقد انبري شاعر من بينهم وعيّرهم بشرب الخمر، بل جعله من مآثر هؤلاء القوم بقوله(١) :

إذا افتخرتْ خُزاعة في قديم   وجدنا فخرها شرب الخُمور
تبيع لكعبة الرحمن حُمقا   بزقّ بئس مفتخرُ الفخور

وهكذا صار قصي بن كلاب ملكا للعرب، بل كان يعدّ أول ملك قرشي، ولقب بالمجمّع، ومدحه الشاعر بقوله:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا   به جمع الله القبائل من فهر
وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم   به زيدت البطحاء فخرا على فخر(٢)

وزيد هو اسم قصي الحقيقي، وكان يكنى بقصي؛ لأنه كان قد أبعد عن قومه، وقال آخر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا   به جمع الله القبائل من فهر
هم ملكوا البطحاء مجدا وسؤددا   وهم طردوا عنها غزاة بني عمرو(٣)

وافتخر قصي بكريم نسبه، وعظيم شرفه، في قوله:

أنا ابن العاصيين بن لؤي   بمكة منزلي وبها ربيت
إلى البطحاء قد علمت معدّ   ومروتها رضيت بها رضيت(٤)

(١) بلوغ الأرب/ الآلوسي/ ١/ ٢٤٧.

(٢) أخبا رمكة للأزرقي: ٣/ ٣٢ ، الإعلام: ١/ ١٩٤.

(٣) تاريخ الكعبة: ٤٧.

(٤) مخطوطة تهنئة أهل الإسلام بتجديد بيت الله الحرام: ١٤٦.

وقام قصي ببناء كعبة الرحمن بعد أن جمع مايلزم البناء، فكان أول قرشي يقوم ببناء الكعبة المشرفة بعد إبراهيم عليه السلام، وقد أتقن بناءها وجعله محكماً، وذكر الزبير بن بكار : «أن قصيٌ بن كلاب لما ولي أمر البيت الحرام جمع نفقته، ثم هدم الكعبة، فبناها بنياناً لم يبن أحد ممن بناها قبله»[1]، وجاء في مخطوطة المأموني : «أن قصي بن كلاب بعد ولايته للبيت الحرام جمع النفقة لبناء البيت الحرام، ثم هدم الكعبة المشرفة وبناها بناية حسنة لم تبن مثلها من قبل، وسقفها بخشب الدوم، وجريد النخل، ويقال إنه جعل طولها في السماء خمسة وعشرين ذراعا»[2]، وعليه لم تكن عمارة قصي بن كلاب للكعبة المشرفة إصلاحاً أو ترميماً، بل كان هدماً ثم بناء، وكان ينشد وهو يبني :

أبني لقومي بيت رفعتها ... وليبن أهل وراثها بعدي
بنيانُها وتمامُها وحجابُها ... بيد الإله وليس بالعبد[3]

وسجل أعشى بكر بن وائل بناء قصي للكعبة وقوم جرهم، وأجمل في قوله :

حلفت بثوبي راهب الشام والذي ... بناه قصيٌ جدُّه وابنُ جرهم[4]

ولم أقف على وصف باب الكعبة المشرفة في أي رواية من الروايات، ولم تشر كتب السير والأخبار إلا إلى السقف. وغالب الظن أن قصياً قد أبقى

---

(١) جمهرة نسب قريش وأخبارها : ١ .

(٢) محطوطة تهنئة أهل الإسلام: ١٤٦ .

(٣) تاريخ الكعبة: ٤٧ .

(٤) ديوان الأعشى الكبير: ١٨٣ .

عليهما كما كانا في بناء جرهم، فقد جعلت جرهم للكعبة المشرفة بابين بمصراعين.

بناء قريش :

لقد أكدت كل الروايات صحة بناء قريش للكعبة المشرفة، وقد حضره الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك قبل مبعثه الكريم. أما سبب هدم قريش للبيت الحرام فيرجع إلى أن جدرانه قد وهت وضعفت نتيجة للحريق الذي أصاب الكعبة في الجاهلية، فقد جاءت امرأة تجمّر الكعبة المشرفة، وإجمار الكعبة وتطييبها يأتي من باب التقديس والتعظيم، كذلك كان إجمارها وتطييبها سبباً من أسباب النظافة والطهارة، ومن العادات الحميدة التي داوم عليها العرب في جاهليتهم، وأقرها الإسلام ، وحثّ عليها، فحدث أن طارت شرارة من مجمر المرأة القرشية، واحترقت ستور الكعبة المشرفة، وكانت يومئذ غير مسقوفة. ذكر الأزرقي أن رجالاً من قريش جلسوا في المسجد الحرام يتذاكرون بنيان قريش للكعبة، وذكروا كيف كان بناؤها قبل قريش قالوا : «كانت الكعبة مبنية برضم يابس ليس بمدر، وكان باباها بالأرض، ولم يكن لها سقف ، وإنما تدلى الكسوة على الجدر من خارج، وتربط من أعلى الجدر من بطنها». ويذكر الأزرقي أن الكعبة المشرفة عند بنيان قريش لها لم تكن مسقوفة على الرغم من أن قصياً كان قد سقفها بخشب الدوم الجيد وجريد النخل، وكانت جرهم قبله قد جعلت لها سقفاً، ولكن قد يكون أثر فيها تناسخ القرون ومرور السنين، فلم يبنها بعد قصيّ بن كلاب إلا قريش، واشتعلت النيران في ستور الكعبة التي كانت متدلية من جدورها، وسببت هذه الشرارة التي طارت من مجمر المرأة القرشية أول حريق أصاب الكعبة المشرفة، وأدى هذا الحريق إلى تصدع

البنيان وضعفه[1].

والسبب الثاني الذي أدى إلى هدم الكعبة المشرفة لإعادة بنائها السيل العظيم الذي دخلها، فقد اشتهرت مكة قديماً بسيولها في عهد الجاهلية خاصة، وقد شبه الشعراء الجاهليون الشاعر المقدام بالسيل الجارف، والجيوش شبهت بالسيول، وذلك دليل على كثرتها. وتناول الشعراء ذكر السيول في أشعارهم مثل عنترة[2]:

وإذا مامشطوا السابغات حسبتهم سيولاً وقد جاشت بهن الأباطح

وعندما تجيء السيول على الأطلال، وتكشف ماعلقت بها من تراب، شبهه لبيد بتجديد سطور الكتاب القديم، كقوله في معلقته[3] :

وجلا السّيول عن الطلول كأنّها زبرٌ تجدّ متونها أقلامها

وقد عُرف هذا السيل الذي دخل البيت الحرام بسيل فارة، وذلك لأنه أتى بامرأة كانت تقيم بأعلى مكة، ينتهي نسبها إلى بني بكر، وكان سيل فارة هذا قوياً عنيفاً، حتى إنه ملأ مابين الجبلين، ودخل المسجد الحرام، وحاصر الكعبة المشرفة، وأفزع أهل مكة فزعاً شديداً، وقلع الأشجار التي كانت بالوادي أسفل مكة، ونتيجة لهذا السيل ازدادت جدران البيت الحرام ضعفاً على ضعفها الأول، الذي أحدثه الحريق، وكاد السيل أن يقضي على مابقى منها صحيحاً. وهنا اجتمعت قريش وتشاوروا وتذاكروا في أمر إصلاح بيت ربهم، الذي هو حرزهم بين القبائل، وسبب مجدهم وشرفهم،

---

(١) أخبار مكة للأزرقي: ١/١٠٨.

(٢) ديوان عنترة: ٣٨.

(٣) شرح ديوان لبيد: ٢٩٩.

وعقدوا الأمر على تجديد البنيان بعد الهدم، ولكن خاف الناس وهابوا أمر هدم الكعبة المشرفة، وانسلّ من بينهم الوليد بن المغيرة حاملاً معوله في يده، وهو يدعو الله مخلصاً أن يتقبل عملهم، وإنّ غرضهم من الهدم ليس الخراب أو الشر، ولكن هدفهم الإصلاح والخير؛ لأن حرم الله وبيته المعظم يستوجب عليهم إظهار كل مظاهر التقديس والإجلال، فلابد أن تكون عمارته على أحسن حال، وأجمل نمط من أنماط العمارة، ولم يجرؤ أحد من أهالي قريش أو مكة على مساعدته في عملية الهدم التي قام بها، وكيف يتسنى لهم ذلك وقد ملأ الخوف نفوسهم، واختلط هذا الخوف بالرهبة من عاقبة ماسيحدث لهم، كأن ينزل الله تعالى غضبه وسخطه عليهم. وقضت قريش ليلتها تلك وهي تتوجس أن شرّاً ما سوف يلحق بابن المغيرة، وربما يصيبه أذى فادح وجسيم من جراء فعلته هذه، ولكن خيّب الله تعالى ظنهم، وأصبح الصباح والوليد بن المغيرة في أمن الله وأمانه معافى ، ولم يصبه أي أذى، عندئذ انشرحت صدورهم بإذن ربهم، وأقبلوا على هدم البيت الحرام بغرض تجديد البنيان، وليس الإصلاح والترميم فحسب، وبدأوا في الحفر حتى انتهوا إلى قواعد خليل الرحمن عليه السلام، وكانت عبارة عن صخور خضراء اللون، عظيمة الحجم، شبهت بالإبل الخلف؛ أي التي تحمل في بطونها أجنة، وذلك لفرط ضخامتها. وكانوا قد أخرجوا قبل الهدم معاليق الكعبة المشرفة وزينتها، وما كان في الجب من أموال، كذلك أخرجوا هبل الذي كان منصوباً عند الجب. وكان هنالك حية مخيفة الشكل سوداء الظهر، بيضاء البطن، أرسلها الله تعالى لتحرس بئر الكعبة المشرفة التي كانت توضع فيها هدايا البيت الحرام، التي سبق أن تعرضت لعدة سرقات.

وقد قامت هذه الحية بدور الحارس على الكعبة المشرفة وأموالها، وذلك منذ زمن جرهم، عندما بغوا وسرقوا أموال الكعبة، وظلت هذه الحية تقوم بمهمة الحراسة حوالي خمسمائة سنة، وكانت هذه الحية تخرج وتشرف على جدران الكعبة، وكل من يقترب من الكعبة المشرفة يرهبها ويخافها، قال ابن إسحاق: «وكان لايدنو أحد من بئر الكعبة إلا اخزألت؛ أي رفعت ذنبها، وكشت؛ أي صوتت»[1].

وكادت هذه الحية أن تحول بين قريش وبنيان الكعبة المشرفة، وتضرعوا لله تعالى أن يصرفها عنهم حتى يتمّ لهم مرادهم، وهو بنيان بيت الله الحرام، واستجاب الله سبحانه وتعالى لتوسلاتهم، وصرف عنهم هذه الحية الشريرة، فأرسل العقاب، وهو طائر من الجوارح، وقد اشتهر بالسرعة، وقيل في المثل: «أخطف من عقاب، وأطير من عقاب»[2]. وقد صور عبيد بن الأبرص العقاب في حالة انقضاضه على فريسته بسرعة بقوله:

فأدركته فطرحته	والصيد من تحته مكروبُ
فجدلته فطرحته	فكدحت وجهه الجبوب
يضغو ومخلبها في رفة	لابد حيزومه منقوب[3]

أما الأعشى فقد شبه الفرسان في حالة انقضاضهم على الأعداء والبطش بالعقاب:

---

(١) الروض الأنف: ١٣٠.

(٢) جمهرة الأمثال: ٢/ ٢٣.

(٣) ديوان عبيد الله بن الأبرص: ٢٠.

على كلّ محبوك السّراة كأنه عقابٌ هَوتْ من مرقبٍ إذ تعلق(١)

ولاتكون العقاب إلا أنثى. وفي رواية الأزرقي «أنه أقبل طائر من السماء كهيئة العقاب أسود الظهر ابيض البطن ورجلاه صفراوان، وأخذ الحية وطار بها حتى أدخلها جبل أجياد»(٢).

وذكر النقاش: خبر العقاب أو الطائر الذي اختطف الحية من بئر الكعبة، طرحها الطائر بالحجون، فالتقمتها الأرض، وهي الدابة التي تكلم الناس يوم القيامة واسمها أقصى(٣).

وهكذا كفى الله تعالى قريشاً شر هذه الحية، وسجّل عبد الله بن الزبير هذه القصة في قوله:

عجبتُ لما تصوّبت العقابُ إلى الثعبان وهي لها اضطرابُ
وقد كان يكونُ لها كشيش وأحياناً يكون لها وثابُ
إذا قمنا إلى التأسيس شدّت تهيبنا البناء وقد تُهابُ
فلما أن خشينا الرجز جاءتْ عقابٌ تتلئبُّ لها انصبابُ
فضمّتها إليها ثم خلّت لنا البنيان ليس له حجابُ
فقمنا حاشدين إلى بناءٍ لنا منهُ القواعدُ والتّرابُ
غداة نرفع التأسيس منه وليس على مسوينا ثيابُ
أعزّ به المليك بني لؤيّ فليس لأصله منهم ذهابُ
وقد حشدَتْ هناك بنو عديّ ومرة قد تقدّمها كلابُ

---

(١) الأعشى شاعر المجون والخمرة: ٨٩.

(٢) أخبار مكة للأزرقي: ١/ ١٩٠.

(٣) الروض الأنف: ١٣٠.

فبؤآنا المليك بذاك عزاً   وعند الله يلتمس الثواب[١]

وبدأت قريش تعد العدة لبناء البيت الحرام، ومايستلزم البناء من مال ومواد خام، فبدأت القبائل تترافد لجمع الحجارة. وكانت كل قبيلة حريصة أشد الحرص على المشاركة في عملية البناء، حتى لايفوتها شيءٌ من هذا الشرف العظيم، وجمعت الحجارة من جبل يقع في أعلى الوادي، يطلق عليه أسياد، وقيل أجياد، وهو حي من أحياء مكة، وقد نظم الشعراء في أجياد شعراً كثيراً كقول بشر بن أبي خازم:

حلفت بربّ الداميات نحورها   وماضمّ أجوازُ الجعاء ومذنبُ
لئن شبّت الحربُ العوان التي أرى   وقد طال أبعادٌ بها وترهبُ
لتحتملنْ بالليل منكمْ ظعينة   إلى غير موثوقٍ من العزّ تهربُ[٢]

أما المادة الخام الثانية التي احتاجوا إليها في عملية البناء فهي الخشب، وصادف أن تحطمت سفينة بالقرب من ساحل مكة، فذهب نفر من القرشيين على رأسهم الوليد بن المغيرة للتفاوض مع قبطان السفينة، وعرضوا عليه شراء خشب السفينة، وفي مقابل ذلك يمكنه أن يقوم ببيع بضاعته، وتعهدوا أن يساعدوه في ذلك، ويتنازلوا عن أي رسوم تخص بضاعته، وهو ماكان يعرف بالمكس، وبذا تحصلت قريش على الخشب اللازم لعملية بناء البيت الحرام، وتعاونت القبائل وترافدت في جمع الحجارة[٣].

---

(١) السيرة النبوية / ابن هشام: ١ / ٢٥٥.

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزه حسن / ٨-٩.

(٣) إتحاف الورى باخبار أم القرى: ٣ / ١٥٣.

أما فيما يختص بالمال فاشترطوا في المال الذي يجمع لبناء بيت الله تعالى أن يكون مالاً طيباً حلالاً، وقام فيهم أبو وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي، وبين ثلاثة مصادر ينبغي أن لايدخل فيما يتفقونه لوجه الله تعالى؛ لبناء حرمه في أرضه، وهي مهر البغي، ثم بيع الربا، وما كان فيه مظلمة أحد[1]. وهذه الثلاثة من زنا وربا وظلم كان معظم الجاهليين ينفرون منها، وقد نبذها الكثيرون، وكل هذا من صميم دين الحنيفية وتعاليمه السمحاء، الذي بعدوا عنه بمرور الزمان وشطوا. وذكر عمرو بن فهد: «فقام المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، فقال: هل لكم في أمر تبتغون به مرضاة رب هذا البيت، فإذا اجتهدتم لأيكم وجدتم جهدكم نظرتم، فإن خلى الله بينكم وبين بنيانها، فذلك الذي أردتم، وإن حال بينكم وبينه كان ذلك، وقد اجتهدتهم، ثم قالوا: أشر علينا، قال: إنكم قد جمعتم لنفقة هذا البيت ما قد علمتم، وأنكم قد أخذتم في هدمه وبنيانه على تحاسد منكم، وإني أرى أن تقسموا أربعة أقسام على منازلكم في الآل والأرحام، ثم تقسموا البيت على أربعة أقسام، ولا تجعلوا أحد جوانب البيت كاملاً لكل ربع، ولكن اقتسموه أنصافاً من كل جانب من جوانب البيت، فإذا فعلتم فليعين كل ربع منكم نصيبه، ولاتجعلن في نفقة البيت شيئاً غصبة، ولاقطعتم فيه رحماً، ولا انتهكتم فيه ذمة بينكم وبين أحد من الناس، فإذا فعلتم ذلك فاقترعوا بفناء البيت، ولاتنازعوا، ولاتنافسوا، وليصب كل ربع منكم موضع سهمه»[2].

وبعد أن فرغت قريش من إعداد مايلزم لبناء بيت الله الحرام من مال

---

(١) المرجع السابق نفسه ٣/ ١٥٧.

(٢) إتحاف الورى: ٣/ ١٥٣.

ومواد بدأت في عملية البناء حتى ارتفع البنيان، وبلغ موضع الركن، هنا أرادت كل قبيلة من قبائل قريش أن تستأثر بهذا الشرف الرفيع في وضع الركن موضعه، وظهرت النعرات القبلية، وأخذ الشجار يدبّ بينهم، وكادوا أن يعيدوا يوماً من أيام العرب وحروبها الدامية، وعزموا العقد على القتال، وظلّوا على تلك الحال بضعة أيام، ولكن العناية الإلهية كفتهم مشقة الحرب والقتال ، وأفسحت مجالاً للنقاش، وجعلت هناك متسعاً للتشاور والتداول، واجتمعوا في المسجد الحرام، فقال أبو أمية، حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان شيخا كبيراً، أو كان أسن رجل في قريش يومئذ : « ياقوم إنما أردنا البر ولم نرد الشر، فلا تحاسدوا ولاتنافسوا؛ فإنكم إن اختلفتم تشتتت أموركم، وطمع فيكم غيركم، ولكن حكموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفج ». وكان أول داخل هو محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب، الذي عُرف بينهم بالصادق الأمين، وعندئذ لم يكن هناك سبيل لرفض حكمه وقراره، فقد رضيت به جميع القبائل حكماً بينهم، وكأنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هذا الشرف على يد من سبق في علمه أنه البشير النذير، ومخلّص البشرية من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان بالله خالق كل شيء وفاطر السموات والأرض، شرف قد ناله من قبل والد الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل الذبيح، على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام، وذلك عندما رفعا القواعد من البيت، وجاء حكمه صلى الله عليه وسلم بينهم بالعدل، وأرضى كلّ الأطراف المتنازعة؛ إذ جعل الركن في ثوب، وأمر كل قبيلة أن تنتخب من ينوب عنها أو يمثلها، للأخذ بطرف الثوب، فانتخب بنو عبد مناف عتبه بن

---

(١) إتحاف الدرى، عمرو بن فهد /١٥٧.

ربيعة، وكان أبو زمعة في الربع الثاني، وأبو حذيفة بن المغيرة في الربع الثالث، ومثّل قيس بن عدي الربع الرابع، ولما حاذى الركن موضعه الذي يجب أن يوضع فيه، أخذه بيديه الشريفتين، ووضعه مكانه، فكان حكمه هذا برداً وسلاماً على جميع القبائل المتنافرة. وبينما هم كذلك، إذ يظهر إبليس ، لعنه الله، في صورة رجل نجدي مسن، وحاول أن يشارك في عملية بناء الكعبة المشرفة، وقام وناول نبي صلى الله عليه وسلم الحجر، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عافت نفسه الشريفة هذا الرجل، وكرهته، وقال : لايبني معنا أحد إلا من قريش . هنا غضب الشيخ النجدي الممسوخ، وتنحى جانبا وهو يقول :

« واعجباه لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال، عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً، فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحوزهم، كأنهم خدم له، أما والله ليفوتنهم سبقاً، وليقسمن عليهم حظوظا وجدوداً »(١). وفي رواية أخرى : « صاح بأعلى صوته، يامعشر قريش أرضيتم أن يضع هذا الركن، وهو شرفكم، غلام دون ذوي أسنانكم، فكاد يثير شراً فيما بينهم »(٢).

ووصف هبيرة بن وهب حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم في فضّه النزاع الذي أوشك أن يؤدي إلى حرب ضروس فقال :

تشاجرت الأحياء في عضل حطــــة

جرت طيرهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها البغضاء بعــــد مـــــودة

وأوقدوا ناراً بينهم شــــرّ موقـــــد

---

(١) أخبار مكة للأزرقي : ١ / ١١٠ .

(٢) الروض الأنف : ١٣٠ .

فلما رأينا الأمر قـــد جـــدَّ جـدُّه

ولم يبق شيء عـــن ســـلِّ المهـــنَّد

رضـينا وقُلنا : العـــدلُ أولُ طالـــع

يجيء من البطحـاء من غيـــر مَـوعد

فقد جاءنا هـذا الأمـــينُ محمـــدٌ

فقلنا رضينـــــا بالأمـــين محـمَّد

بخير قريش كلهـــا أمسي شيمـــة

في اليـوم مهـما يُحدث اللهُ في غـــدِ

فجـــاء بأمرٍ لـــم ير النـــاسُ مثلَه

أعمّ وأرضى في العـواقـــب والبـدء

أخذنا بأطـــراف الـــرداء وكـــلُّنا

له حقُّه من رفعـــه قبضـــة اليـــد

وقال ارفعوا حتى إذا ماعلـــتْ به

أكنهم وافـــى بـــه خيـــرُ مسندِ

وكـل رضـينا فعلـــه وصنيعَـــهُ

فأعظم به من رأي هـــادٍ ومُهـــتـد

وتلك يـــد منـــه علينا عظيمـــة

نروح بهـا مـدى الزمـان ونغـتـدي(١)

---

(١) مرآة الحرمين: ١ / ٣٧١.

كذلك افتخر أبو طالب بهذا الشرف العظيم، الذي حباهم الله تعالى به[1]:

إنا لنا أوله وآخره ... في الحكم والعدل الذي لاننكره

وقد جهدنا جهده لنعمره ... وقد عمرنا خيره وأكثره

فإن يكن حقًا قضينا أوفره

وقد حاز حكمه صلى الله عليه وسلم وحكمته في وضع الحجر الأسود رضا جميع الأطراف، وتبارى الشعراء في وصف حكمته، يقول زين الدين عبد الرحيم العراقي في أرجوزته الشعرية:

وإذْ بنتْ البيت اختلف ... ملؤُهم تنازعا حتى وقف

أمرُهم فيمن يكون يضع ... الحجر الأسود حيث يُوضع

إذ جاء قالوا كلهم رضينا ... لوضعه محمد الأمينا

فحطّ في ثوبٍ وقال يرفعُ ... كلُّ قبيلٍ طرفا فرفعوا

ثمت أودع الأمينُ الحجرا ... مكانه وقد رضوا بما جرى[2]

وكان البنّاء (ياقوم)، قبطان السفينة، التي ابتاعوا خشبها بعد تحطمها، رجلا رومياً خبيراً بفن العمارة، وله دراية بالنجارة، فطلبوا منه أن يبني لهم بيت الله الحرام، فبنيت بمدماك من حجارة، ومدماك من خشب، وبرضم يابس، وليس بينها مدر، فبلغ عدد الحجارة ستة عشر[3] مدماكاً، والخشب

---

(١) كتاب الطبقات الكبرى، ١ / ٩٤.

(٢) ألفية السيرة النبوية: ٢٦٥.

(٣) شفاء الغرام: ١ /١٥٨.

خمسة عشر مدماكا ، والمدماك هو الصفّ من الحجارة في البناء أو الساف، وهو من المقاييس القديمة لأهل مكة، وبلغ طولها ثمانية عشر ذراعاً، وجعلوا لها سقفاً مسطحاً، وجعلوا لها ميزابا يصب في الحجر، وبنوا بداخلها درجاً من الخشب، يؤدي إلى السطح، الذي يتكون من ست دعائم، وصنعوا لبابها مصراعاً وقفلاً بعد أن تمت تعليته، وذلك حتى يتمكنوا من السيطرة والتحكم في زوار الكعبة الشريفة، وصار الدخول إليها بإذن، وأصدروا قراراً يقضي بدخول القرشيين فقط، وبذا يتسنى لهم رد من يرفضون دخولهم، وذلك حرصاً منهم على ألا تتعرض الكعبة المشرفة لحوادث سرقة، كما حدث في أيام جرهم وغيرهم، والغرض الثاني من تعلية الباب حتى يقف حاجزا بين السيول والكعبة المشرفة، كما حدث أن صدع جدار البيت من قبل عندما دخل الكعبة المشرفة. أما الغرض من صنع المصراع للباب، وجعل القفل له، أنهم حددوا أياماً معينة تفتح وتغلق فيها الكعبة المشرفة، فكان يوما الاثنين والخميس ميعاد فتح الكعبة من كل أسبوع، وقيل يوما الخميس والجمعة، وذكر الفاسي أن فتحها يوم الجمعة مستمر حتى اليوم.

روى البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجدر أمن البيت هو؟ قال : نعم، قلت : فما لهم لم يدخلوه في البيت، (قال : ألم تري قومك قصرت بهم النفقة)، قلت : فما شأن بابه مرتفعاً ! قال: (فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض)[١] فكانوا قد أخرجوا منه حوالي سبعة أذرع من عرضها من الجهة

(١) تاريخ الكعبة: ٥٠ .

الشرقية والغربية، وذلك بسبب قلة كمية الخشب، ولنفاد ماجمع من طيب مالهم لعملية البناء.

وتقديساً للكعبة المشرفة، التي هي حرزهم بين القبائل، وسبب شرفهم وقوتهم، كانوا يخلعون نعالهم عند دخولها، وذلك تقديساً واحتراماً لها، وقد سن الوليد بن المغيرة فيهم هذه السنة الحميدة، وذلك بعد بناء الكعبة، وصارت من يومها عادة متبعة [1]. وبعد أن أكملوا البناء، وأعادوا ماكانوا أخرجوه من الكعبة بعد هدمها، كذلك أعادوا مال الكعبة المشرفة، ووضعوه في خزانتها، كما كان من قبل، وعلقوا عليها معاليقها وزينتها، ونصبوا هبل عند الجب، وقاموا بتحليتها بالصور والنقوش والرسومات. وأورد ابن كثير: «أنهم وجدوا في مقام إبراهيم عليه السلام كتاباً مكتوباً بالسريانية، مكة بيت الله الحرام، بأنه رزقها من ثلاث سبل، لايحل من أهلها»[2].

وروى سعيد بن يحيى الأموي [3]: (أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد في المقام ثلاثة أصفح في الصفح الأول: (إني أنا الله ذو بكة، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، وباركت لأهلها في اللحم واللبن).

وفي الصفح الثاني: (إني أنا الله ذو بكة، خلقت الرحم، وشققت له من اسمي، فمن وصله وصلته، ومن قطعه بتتُّه).

---

(١) اخبار مكة للازرقي: ١/ ١١٨.

(٢) السيرة النبوية: ١/ ٢٧٩.

(٣) السيرة النبوية: ١/ ٢٧٩.

وفي الصفح الثالث : (إني أنا الله، ذو بكة، خلقت الشر والخير وقدرته، فطوبى لمن أجريت الخير على يديه، وويل لمن أجريت الشرَّ على يديه).

وقد قام بترجمة هذه الأصفح جماعة من اليهود إلى العربية.

واستمرت الكعبة المشرفة على بناء قريش حتى بعد مبعثه الكريم، لم يحدث فيها أيّ تغييرات أو إضافات، لحديث السيدة عائشة، رضى الله عنها، الذي سبق ذكره. ولكن يدل على رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في إعادة البناء وردّ الكعبة المشرفة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، ولكن حال بينه وبين ماأراد أن قريشاً كانوا حديثي عهد بالإسلام. وهنالك سبب آخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عاجلته المنية بعد فتح مكة المكرمة.

وذكر التقي الفاسي : « ووجدت بخط عبد الله بن عبد الملك المرجاني أنّ عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم بنى الكعبة بعد قصي، وقبل بناء قريش، ولم أر ذلك لغيره، وأخشى أن يكون وهم، والله أعلم »(١).

أما باسلامة فيقول : « إن بناء عبد المطلب، ولو فرض في صحته، لم يُشتهر، ولم يتداول كثيراً مثل بناء آدم عليه السلام وابنه شيث، فلشهرته تداوله المؤرخون رغم بُعد الزمان »(٢).

ومن خلال البحث والتنقيب في أمهات كتب السير والتاريخ، وماوصل

(١) شفاء الغرام: ٣٠٠.

(٢) تاريخ الكعبة: ٤٩.

إلينا من الشعر العربي، الذي سجل لنا قصة عمارة الكعبة المشرفة عبر القرون والعصور المختلفة، وما يتعلق بأمر بنائها، لم أعثر على مايشير، أو مايمكن الاستنباط، أن عبد المطلب قام ببناء الكعبة المشرفة أو عمل أي ترميمات وإصلاحات لها. وأوردت هنا ماساقه الفاسي في شفاء الغرام من باب العلم بالشيء لا الجهل به.

بناء عبد الله بن الزبير :

عندما آلت مقاليد الحكم ليزيد بن معاوية لم يكن عبد الله بن الزبير من مؤيديه، وذهب إلى مكة المشرفة ومعه أصحابه، ومن تبعه، وبدأ يشهر بيزيد بن معاوية وسوء تدبيره في تصريف أمور الدولة، ويعدد مساوئ بني أمية، وبدأت الفتنة تحتل حيزا بين الفريقين، ولاذ ابن الزبير بالحرم المكي عندما أرسل يزيد الجيوش لمقاتلته، وكانت جيوش يزيد قد نصبت المنجنيق على أخشبي مكة المكرمة، وعندما رمت جيوش يزيد المنجنيق على ابن الزبير وأصحابه تأذّت الكعبة المشرفة من ذلك أذى بليغا، وأصاب الكعبة أذى آخر إثر الحريق الذي أصابها؛ إذ طارت شرارة من نار، أوقدت بمعسكر ابن الزبير، وساعدت الرياح في اشتعال النيران. والكعبة المشرفة يومئذ كانت على بناء قريش، مدماك من حجارة ومدماك من خشب، وعليها كسوتها أو ستورها، وكانت ثياب الكعبة المشرفة لاتنزع منها في كل عام، بل يوضع بعضها فوق بعض، فاحترقت الستور، واحترقت الكعبة المشرفة، وكان ذلك يوم السبت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين[١] وهو الحريق الثاني الذي أصاب الكعبة المشرفة، وذلك بعد الحريق الذي أصابها في زمن

---

(١) تاريخ الأمم والرسل والملوك أو تاريخ الطبري:٣ / ٣٦٠.

الجاهلية.

وبعد ماخمدت الفتنة، ورجعت جيوش الأمويين، جمع عبد الله بن الزبير أشراف القوم وسادتهم وشاورهم في أمر هدم الكعبة المشرفة وإعادة البناء، وكانوا بين مؤيّد ومعارض، فخطب فيهم ابن الزبير:

(يا أيها الناس، أشيروا عليَّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها، أو أصلح ما وهى منها؟)[١]، قال ابن عباس: (إني قد فرق لي فيها رأي أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم عليه الناس، وأحجاراً أسلم عليها الناس، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن الزبير: (لو أن أحدكم احترق بيته مارضي حتى يجدده، فكيف ببيت ربكم؟ وإني لمستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري، فلما مضى الثلاث أجمع أمره على أن ينقضوها)[٢]. وفي رواية أخرى قال ابن عباس: (دعها على ماأقرّها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم وتبنى، ويتهاون بحرمتها، ولكن أرقعها)[٣]. وقضى ابن الزبير أياماً وليالي يفكر في الأمر ويتدبره، حتى شرح الله تعالى صدره لهدمها، وعزم أن يردها إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، وأراد أن يبنيها على شاكلة الخارطة التي وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه لعائشة رضي الله عنها.

وبدأ ابن الزبير يُعدّ العدة في تجهيز مواد البناء والمال اللازم لبنائها،

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد:١٩٣.

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: ٢٦٤.

(٣) محاضرة الأبرار: ٢٦٤.

واستشار العلماء وأهل الرأي ليدلّوه على المكان الذي أخذت قريش منه الحجارة عندما بنت قريش الكعبة المشرفة في الجاهلية[١]، فعرف أنها أخذتها من سبعة أجبل[٢] هي حراء وثبير والمقطع وجبل الخندقة وجبل جلجلة وجبل بأسفل مكة يطلق عليه اسم مقلع الكعبة، ومن جبل المفنجري ويقع بمزدلفة، فامر بنقل تلك الحجارة من تلك الأجبل، وأعدوا له مايكفيه لعملية البناء، وأراد أن يبنيها بالورس، وذكر الأزرقي : «أن ابن الزبير بنى الكعبة بالرصاص المذوب المخلوط بالورس، ولكن أشاروا عليه أن القصة أجود، فأرسل المال اللازم لجلبها من اليمن، وجاء بجماعة من الأحباش حتى يشاركوا في عملية الهدم، عسى أن يكون بينهم من وصفه الرسول صلى الله وسلم في حديثه[٣]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، وتسلبها أموالها، وتجردها من كسوتها، ولكاني أنظر إليه أصيلع أقرع، يضرب عليها بمسحاته ومعوله)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كاني به أسود أفجج يقلعها حجراً)[٤].

وأراد ابن الزبير بهدم الكعبة وإعادة بنائها أن ينال شرف ردّها إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، لذلك وجدناه عمل بكل ماجاء في نص الأحاديث الشريفة، واجتهد رأيه أن ينفذها بحذافيرها، وشاور أهل العلم، واستخار

(١) أخبار مكة للأزرقي :١/١٥٥.

(٢) المرجع السابق نفسه ١/١٣١.

(٣) المسند : ٢/٢٢٠.

(٤) الكعبة المشرفة: ١٩٩.

الله تعالى ، وذلك حرصا منه على مرضاة الله تعالى، وتنفيذا لما جاء في السنة الشريفة.

وأشهد الناس على ذلك وعندما أراد أن يبدأ بهدم الكعبة المشرفة فرّ أهل مكة، ولاذوا بمنى، وأقاموا بها ثلاث ليالٍ، وهم يتوجسون شراً، ويتوقعون أن يصبّ الله عليهم غضبه ولعنته، ولم يتجرأ أحد منهم أن يبدأ بهدم الكعبة المشرفة، وتقدم ابن الزبير يحمل معوله وبدأ يهدم فيها ويقذف بحجارتها، وجعل جماعة من الأحباش يقومون معه بعملية الهدم. وعندما رأى الناس ذلك منه صعدوا معه وشاركوا في عملية الهدم، وكان قد وضع مايسترها، وذلك حتى يتمكن الناس من أداء فريضة الصلاة والطواف من خلف هذه الستر، وساوى ابن الزبير حيطانها بالأرض، وحفر حتى كشف عن قواعد إبراهيم الخليل عليه السلام، وأشهد الناس على هذا الأساس الثابت التشابك، وهي عبارة عن صخور عظيمة الحجم حمراء اللون، اهتزت مكة كلها لحركة الواحد منها.

وكان ابن الزبير قد أخرج مافي بئر الكعبة المشرفة من مال، وكلّ مايهدى لها، كذلك معاليقها وحليتها واستأمنه شيبة بن عثمان. أما الركن فجعله في تابوت، وحفظه في دار الندوة. وكان البناء من وراء حاجز أو ستور، فلما ارتفع البنيان وبلغ موضع الركن أمر ابنه عباد وجبير بن شيبة بوضع الركن موضعه، وهو قائم في صلاته، وذهب البعض أنه وضعه بنفسه(١)، وقيل ابنه حمزة مع الحجبة. وعند كمال البناء بلغ طول الكعبة المشرفة سبعة وعشرين ذراعاً، وذلك بزيادة ثمانية عشر ذراعاً على بناء

---

(١) صحيح البخاري / شرح الكرماني: ٣ / ٣٦٨.

الخليل عليه السلام، وتسعة أذرع على بناء قريش، وقصر الدعائم ثلاثة بدلا من ستة دعائم في بناء قريش، وصار للكعبة بابان، وألصقهما بالأرض، أحدهما شرقي والآخر غربي، كما أراد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وأبقى على الميزاب كما كان يصب في الحجر. أما درجها فقد أعاد صنعه من الخشب، وجعله بداخلها، ويؤدي إلى سطحها كما كان من قبل، وجعل البلق في سقفها، وهو نوع من أنواع الرخام يوجد باليمن.

ويعدّ عبد الله بن الزبير أول من بلط المطاف، وماحول الكعبة المشرفة من أرض، كبسها بما تبقى من الأحجار التي جلبها لبناء الكعبة المشرفة.

وهكذا أتم عبد الله بن الزبير بناء الكعبة المشرفة، ورد إليها أموالها ومعاليقها وحليها، ومسحها بالداخل بالعنبر والمسك، ومسح جدرانها الخارجية بالمسك، ثم كساها القباطي المصرية. واعتمر عبد الله بن الزبير بعد ذلك ماشيا ومعه من أطاعه.

واستمرت الكعبة المشرف على بناء عبد الله بن الزبير حتى مقتله في حربه ضد الحجاج ابن يوسف الثقفي، وآل الأمر من بعده إلى الحجاج بن يوسف الثقفي.

بناء الحجاج الثقفي :

تولى الحجاج بن يوسف الثقفي الإمارة على مكة المكرمة بقتله لابن الزبير، وفور دخوله مكة المكرمة كتب إلى عبد الملك بن مروان، وهو الخليفة آنذاك؛ ليعلمه ماأحدثه ابن الزبير بالكعبة المشرفة، وماأدخل فيها من الزيادات والإضافات التي لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستنكر الخليفة ذلك، وأمر عامله الحجاج بن يوسف الثقفي أن يرد

الكعبة المشرفة على ماكانت عليه في زمن قريش، وأمره أن يضع الحجر الأسود في موضعه الذي وضعه فيه الجاهليون، وأن يستقصر مازاده ابن الزبير، أي أن يقوم بهدم الجانب الذي بناه ابن الزبير، الذي اعتمد في بنائه على حديث خالته السيدة عائشة[1] أم المؤمنين رضي الله عنها وعن الرسول صلى الله عليه وسلم، ورفع الباب بعد أن كان ابن الزبير ألصقه بالأرض؛ لأن الشك راوده في عدم صدق ابن الزبير فيما رواه عن أم المؤمنين، ولكن عندما ثبت له صحة قول ابن الزبير عضّ أصابع الندم، وصار يلعن الحجاج.

ولما تولى أبو جعفر المنصور أراد أن يبنيها على مابناها ابن الزبير، ولكن الإمام مالك أبى عليه ذلك، وقال له : (أنشدتك الله ياأمير المؤمنين ألا تجعل هذ االبيت ملعبة الملوك بعدك، لايشأ أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته في نفوس الناس، فصرفه عن ذلك)[2].

ومما تقدم أرى أن بنا ءالحجاج لبيت الله الحرام لم يكن سوى مجرد ترميمات، أو كان عبارة عن بعض الإصلاحات، أو تعديلات لاتعدُ من صميم البناء؛ لأن أي بناء لابد من أن يسبقه وضع أس ثابت. وإذا كان البناء قائماً فلا بد أن يسبقه هدم، ثم إعادة البناء. ولكن الحجاج لم يفعل كل ذلك، بل هدم جانباً معيناً ، وأضاف أو زاد على ماكان موجوداً في الأصل، ويعدّد عبد القادر الطبري عدد المرات التي بنيت فيها الكعبة المشرفة في قوله[3]:

بنى البيت خلقٌ وبيت الإله مدى الدهر من سابق يكرم

---

(١) أديان العرب في الجاهلية: ٢٨ .

(٢) تاريخ الخميس ، الديار بكرى ج١ /١٨٨ .

ملائكة، آدم، ولده خليل عمالقة جرهم

قصي قريش ونجل الزبير وحجاج بعده يعلم[1]

ويمكن أن نجمل القول في أن الكعبة المشرفة قد بنيت عدة مرات، وإن اختلفت الروايات وتضاربت أحياناً في عدد المرات التي بنيت فيها كعبة الرحمن، فإذا جعلنا بناء إبراهيم عليه السلام ورفعه للقواعد حداً فاصلاً للمدتين على أساس أن بناء الخليل عليه السلام للكعبة المشرفة يعدّ مؤشر البداية لإقامة شعيرة الحج بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى خليله عليه السلام أن يؤذّن في الناس ويناديهم للوفادة لبيته الحرام، وذلك لإقامة ذكر الله تعالى.

وبناء على ماتقدم تكون الكعبة المشرفة قد بنيت مرة واحدة قبل بناء الخليل عليه السلام، وهو بناء شيث بن آدم عليه السلام، فقد بناها شيث بالطين والحجارة، وقد يرجع عدم شهرة بناء شيث لتناسخ القرون وبعد المدة الزمنية.

أما عدد المرات التي أسست فيها قواعد الكعبة المشرفة قبل بناء إبراهيم الخليل فمرتان:

الأولى: عندما أرست الملائكة قواعد البيت الحرام، ثم جاء آدم عليه السلام وجعل يحفر حتى ناداه منادٍ حسبك يا آدم، فكانت عمارة آدم عليه السلام للكعبة المشرفة مجرد تاسيس على ماهو قائم أصلاً من تاسيس الملائكة. والتاسيس الثالث للقواعد كان تاسيس الخليل عليه السلام، ويعدّ بناؤه البناء الثاني للكعبة المشرفة. ويمكن القول إنه ثالث من رفع القواعد،

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٩٥.

وثاني من قام بالبناء . ثم جاء بعده العمالقة وجرهم، وإن اختلفت الروايات في الترتيب الزمني بينهما، ثم تلاهما قصي بن كلاب، الذي أحكم بنيانها، وعظم شأنها، وأكرم الحجيج.

وعقب قصي بن كلاب كانت عمارة قريش للكعبة المشرفة بعد أن هدمتها، وردت القواعد إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، وقد حضر الرسول صلى الله عليه وسلم بنيان قريش للكعبة المشرفة، بل شارك في نقل الحجارة للبناء، وتم على يديه الشريفتين وضع الحجر الأسود مكانه، واستمرت الكعبة المشرفة على بناء قريش بعد البعثة المحمدية، وذلك لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كره أن يردها لقواعد إبراهيم؛ لأن القوم مازالوا حديثي عهد بالإسلام، إضافة إلى أن المنية قد عاجلته. واستمرت كذلك طيلة عهد الخلفاء الراشدين، وذلك لانشغالهم بالفتوحات الإسلامية لنشر الدين الإسلامي ، وتثبيت قواعده وتعاليمه السمحة، وتوسيع رقعة مظلة الإسلام.

ثم قام بهدمها ابن الزبير بعد الحريق الذي أصابها، وردّها للخارطة التي وضعها الرسول الكريم في حديثه الشريف، وأظهر الأساس، وأشهد الناس على ذلك.

أما بناء الحجاج الثقفي فكان مجرد ترميم فقط، لم يشمل كل الأجزاء، بل ترميم جزئي.

ومجمل القول: أسست الكعبة المشرفة أربع مرات :

الأولى : تاسيس الملائكة عليهم السلام.

الثانية : تأسيس آدم عليه السلام في الأس الثابت في الأرض السفلي، الذي

كشف له عنه جبريل عليه السلام، وسخر الله تعالى له الصخر، وأمر الملائكة أن تساعده.

الثالثة : تأسيس خليل الرحمن، وقد ساعدته الملائكة بنقل الحجارة.

الرابعة : عندما ردها ابن الزبير رضي الله عنه إلى قواعد إبراهيم عليه السلام.

التأسيس والبناء أيضا كان ثلاث مرات :

المرة الأولى : رفع إبراهيم للقواعد وبناء البيت الحرام بمساعدة ولده إسماعيل عليهما السلام.

والمرة الثانية : هدم قريش للكعبة المشرفة ورد القواعد إلى ماكانت عليه عند بناء إبراهيم عليه السلام.

والمرة الثالثة : هدم ابن الزبير وردها أيضاً إلى قواعد إبراهيم عليه السلام.

أما البناء فقط فقد تم مرتين :

بناء شيث ولد آدم، وبناء قصي بن كلاب.

وانحصرت محاولات الإصلاح والترميم في عهد جرهم والعمالقة، وأخيراً ترميم وإصلاح الحجاج الثقفي.

ودخل السيل الكعبة المشرفة مرتين :

إحداهما في زمن جرهم، والأخرى في عهد قريش.

وتعرضت الكعبة المشرفة للحريق مرتين :

المرة الأولى : في عهد قريش ، وذلك عندما تطاير الشرر من مجمر المرأة

القرشية، التي أرادت أن تطيب الكعبة.

المرة الثانية : عندما حاصر الأمويون عبد الله بن الزبير، ولاذ واحتمى بالبيت الحرام، ولكن نيران الأمويين امتدت إليه داخل حرم الله تعالى، فتأذت الكعبة المشرفة من المنجنيق الذي نصبه الأمويون على جبل أبي قبيس، ورموا به ابن الزبير وأعوانه، عندها سمع للكعبة المشرفة أنيناً موجعاً.

الفصل الثاني

ملحقات الكعبة المشرفة

جب الكعبة المشرفة:

بعد أن أتم الخليل عليه السلام بناء الكعبة المشرفة حفر حفرة بداخلها على يمين الداخل، وبلغ عمقها ثلاث أذرع، وجعل هذه الحفرة بمنزلة الخزانة للكعبة المشرفة؛ ليوضع بداخلها كل مايُهدى للكعبة المشرفة من أموال وذهب وغيره، جاء في تاريخ الخميس: «وهو الجب الذي نصب عليه عمرو بن لحي هُبلَ، الصنم الذي كانت تعبده قريش، وتستقسم عنده الأزلام»[1].

ولم تكن الكعبة يومئذ مسقوفة، مما جعل هذه البئر عرضة لعدة حوادث من السرقة كما حدث في عهد جرهم، عندما وسوس الشيطان لأحدهم أن ينهب مابداخلها، ولكن أنزل الله تعالى غضبه وسخطه على هذا الرجل الجرهمي، وخسف به، وسميت البئر (بالأخسف)، وأرسل الله تعالى بعد ذلك حية تحرسها أكثر من خمسمائة سنة، منذ عهد جرهم إلى عهد قريش، فلم يستطع أحد أن يأخذ من مال الكعبة المشرفة شيئاً من ذلك الحين. وأراد عمر رضى الله عنه أن يأخذ مال الكعبة، ولكن علياً كرم الله وجهه نصحه أن لايتصرف فيه، وقال له: ليس ذلك لك، فانتهى عمر رضى الله عنه[2].

(١) تاريخ الخميس: ١٠٠.

(٢) اخبار مكة للازرقي: ١ / ١٧٠.

مقام إبراهيم عليه السلام :

سبقت الإشارة[١] إلى أن إبراهيم عليه السلام كان يزور ابنه من الشام بين الحين والحين، وفي إحدى زياراته لم يجد ابنه، ووجد زوجته التي أكرمته، وأحسنت ضيافته، وهي تجهل حقيقة أمره، وكان يبدو على الشيخ الزائر الشعث والغبر من أثر عناء السفر، فأرادت زوجة إسماعيل أن ينزل هذا الرجل المسن ضيفاً عليها لحين عودة زوجها، ولكنه أبى ذلك، وعندها أرادت أن تريحه من وعثاء السفر، وتزيل عنه بعض مالحق به من غبر ، وطلبت منه أن يترجل عن راحلته، حتى تغسل له رأسه، وعندما رفض وأبى الترجل عن راحلته، أتت بحجر من داخل بيت إسماعيل ، وهو يومئذ حجر رطب أبيض مثل المهاه، وملقى ببيت إسماعيل، فأسند الشيخ الضيف رجله أو قدمه على الحجر، وهو على راحلته، فغسلت له شق رأسه الأيمن، وفعلت كذلك بشقه الأيسر، وأراد الله تعالى أن يجعل من ذلك آية للعاملين : وفيه ﴿**آيات بينات**﴾[٢]، فغاصت قدما الشيخ في الحجر بمقدار سبعة أصابع، وعندما جاء إسماعيل علم بمقدم أبيه الكريم، وعرف آثار قدميه الكريمتين، فقبلهما، واحتفظ بالحجر في بيته للتبرك بآثار قدمي أبيه عليه السلام.

وتنفيذاً لأوامر الله سبحانه وتعالى لخليله ببناء البيت الحرام قام الخليل يبني ويعاونه ابنه إسماعيل، فلما ارتفع البنيان وأصبح عالياً على الشيخ، ولا يستطيع أن يطوله، وكان يومها قد تجاوز سنه المائة عام قدم له ابنه ذاك

(١) انظر الصفحة ٢٨ من هذا الكتاب.

(٢) سورة آل عمران : ٩٧ .

الحجر الذي كان ملقى في بيته، ليقف عليه حتى يكمل ماأمره الله تعالى به من بناء بيته الحرام، وكان إسماعيل يحول له الحجر في جهات البيت الأربعة.

يمكن أن نستنج من ذلك أن مقام إبراهيم عليه السلام يرشد ويدّل على أن كل شيء يراد به وجه الله تعالى لابد أن يكون طيباً وعلى أكمل وجه ماوسع الإنسان ذلك، وقد تكون الفلسفة التي رمى إليها إبراهيم عليه السلام بمقامه على هذا المقام، أو وقوفه على ذلك الحجر، أنه أراد أن يكون بناء البيت الحرام على أتم وجه وأكمل صورة، وذلك ببذل الجهد المستطاع حسب قدرته وطاقته، وبقدر ما هو متاح له،وقد ورد قول أبي طالب عن أثر قدمي إبراهيم عليه السلام في ذلك الحجر:

وموطئ إبراهيم في الصّخر رطبة   على قدميه حافيا غير ناعل(١)

وكان العرب في جاهليتهم قبل الإسلام يأتون بالمنكرات عند مقام إبراهيم عليه السلام كعبادة الأصنام يقول الشاعر :

ومقامُ إبراهيم كان مقاما   للأعادي فزال عنه العداءُ(٢)

ولقد قدس كثير من الأمم والملل آثار أقدام الأنبياء، فقد قدس النصارى أثر قدمي عيسى عليه السلام بقبة الصعود (بجبل الزيتون)، كذلك آثار أقدامه في محراب بالمسجد الأقصى. وهنالك آثار أقدام موسى عليه السلام في (محطة قدم) بدمشق. وأثر أقدام آدم عليه السلام بجبل سرنديب، عندما أهبطه الله تعالى إلى الأرض، وفي صخرة بيت المقدس آثار أقدام،

---

(١) انظر الصفحة : ٢٩ من هذا الكتاب.

(٢) أديان العرب / ٦١.

قيل إنها للنبي إدريس عليه السلام، كذلك هنالك بعض الآثار الشريفة على هذه الصخرة نفسها يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[١].

قال أبو الجهم: «ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت، وأدخل الحجر في البيت، جعل المقام لاصقاً بالبيت عن يمين الداخل»[٢].

ويبلغ طول المقام حوالي ذراع واحدة، قال الفاسي: «ومقدار ارتفاعه من الأرض ذراع وربع»[٣]. وقد سبقت الإشارة إلى أن القدمين قد غاصتا فيه بمقدار سبع أصابع، وعند ماأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج، ويدعوهم لزيارة بيته الحرام لإقامة شعائر الله وذكره، قام إبراهيم على المقام حتى فاق أطول الجبال في الطول، أو أن الجبال قد تواضعت له حتى أسمع الله تعالى صوته[٤].

وعند بناء قريش للكعبة المشرفة ألصقت المقام بالبيت، كما كان في بناء إبراهيم عليه السلام، وذلك حرصاً منها وخوفاً عليه من سيول مكة العوارم، واستمر في موضعه؛ أي ملتصقاً بالبيت الحرام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك في خلافة أبي بكر رضى الله عنه، ولكن ذهب به سيل أم نهشل في خلافة عمر رضى الله عنه، وعثر عليه بأسفل الجبل، وبعد أن تأكد عمر رضى الله عنه من صحة موقعه رده إلى مكانه، وربط

---

(١) الرحلة الحجازية: ١٢٥.

(٢) تاريخ الخميس: ١٠٧.

(٣) شفاء الغرام: ١٩٠.

(٤) انظر الصفحتين: ٥٧ – ٥٨ من هذا الكتاب.

بأستار الكعبة المشرفة[1].

وكانت الحجارة على ماهي عليه اليوم، غير أنه سبحانه وتعالى أراد أن يجعل المقام آية من آياته، فلما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج قام على المقام حتى صار أطول من الجبال وأشرف على ماتحته، فنادى الناس وطلب منهم أن يستجيبوا ويلبوا دعاء خالقهم، فلما فرغ من أمر المقام جعله قبلة، فكان يصلي إليه مستقبل الباب، فهو قبلة إلى ما شاء الله، ثم كان إسماعيل بعده يصلي إليه إلى باب الكعبة المشرفة، ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأُمر أن يصلي إلى بيت المقدس، فصلى إليه قبل أن يهاجر.

وشرع الله تعالى الصلاة عند مقام إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذُوا من مَقام إبراهيم مُصَلّى** ﴾[2]، وهنا بنص الآية الكريمة يخرج المسح والتقبيل، روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «لما أهبط الله عزَّ وجل آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي، وتعلم ماعندي فاغفر لي ذنبي. اسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ماكتب لي، ورضني بقضائك». فصلاة آدم عليه السلام ودعاؤه عند المقام؛ لان الله أعلمه أو أوحى إليه أن المقام من المواضع التي يستجاب فيها الدعاء، وعندما فرغ آدم من دعائه أوحى الله تعالى له، ياآدم، إنك قد دعوتني بدعاء

---

(١) أخبار مكة للازرقي: ١/ ٣١٥.

(٢) سورة البقرة: ١٢٥.

استجيب لك فيه، ولن يدعوني به أحد من ذريتك من بعدك إلا استجبت له، وغفرت له ذنبه، وفرجت همومه، واتجرت من وراء تجارته، وأتته الدنيا وهي راغمة، وإن كان لايريدها»[1].

وروى الأزرقي : «أنه لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام، فقال له : طف به سبعاً فطاف به سبعا هو وإسماعيل، يستلمان الأركان كلها في كل طواف، فلما أكملا سبعا صلّيا خلف المقام ركعتين»[2]، كذلك فقد صلى صلوات الله عليه وسلامه خلف المقام كما صلى من قبله جده الخليل، والد الأنبياء، وإمام الحنفاء، فيما يرويه ابن عمر قال : (قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة)[3].

وكما ذكر الشعراء الجاهليون المقام في أشعارهم كذلك أكثر الشعراء من ذكره ووصفه يقول الحريري :

وقلت للائمي أقصر فإني سأختارُ المقام على المُقام[4]

يريد بالأولى مقام إبراهيم عليه السلام، وبالثانية دار الإقامة

ويذكر آخر كيفية صلاته وخشوعه عند المقام، وأنه يدّخرها ليوم الهول العظيم:

---

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن: ٢/ ١٢٤.

(٢) أخبار مكة للأزرقي: ١/ ٣٩.

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ٣/ ١٥٠.

(٤) مقامات الحريري: ٢٤٨.

وتركع تلقاء المقام مصليا   صلاة أرجيها ليوم معاد[1]

وقد سبقت الإشارة إلى أن تُبع الملك الحميري قد سجد عند المقام تقديساً وتعظيماً له، ويقول له ابن حجلة:

ياسائلي عن مقامي في المقام عشا   جلوتُ كأس مدامٍ عنده مفتق

لله برقٌ به أمسيتُ أرمقُهُ   لم يبق فيَّ ولا فيه سوى رمقِ[2]

وقد تعرض المقام لحادث سرقة من قبل رجل يدعى جريج، كان نصرانياً أو يهودياً وأسلم، أو ادعى الإسلام، وحاول بعد سرقته أن يسلّمه لملك الروم، ولكن العناية الإلهية حرسته، فعثر عليه عنده، وكان جزاؤه القتل.

وجاء تفسير القرطبي لقوله تعالى: ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾[3] أي أثر قدمي إبراهيم عليه السلام. كما أن الصفا والمروة والحجر الأسود كلّها آيات بينات.

الحجر الأسود :

استوحش آدم عليه السلام بعد أن أهبطه الله تعالى من الجنة إلى الأرض، فكان كثير التضرع والبكاء والندم على ماارتكب من خطايا، حتى إن الملائكة أشفقت عليه، وكانوا يرأفون لحاله ويبكون معه، فأنزل الله تعالى الحجر الأسود عزاء وسلوى له، وذلك حتى يزيل همّه وغمّه، وكان الحجر الأسود أو الركن يومئذ عبارة عن ياقوته بيضاء، كان آدم يتخذها في الجنة كرسياً يجلس عليه، ولما رآه آدم عرفه فاستأنس به.

(١) مثير العزم: ٢ / ٢٢٦.

(٢) الجامع اللطيف: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ٩٧.

وعندما جاء الطوفان، ورفع البيت الحرام من الأرض إلى السماء، وذلك حتى لايتدنس ويتأذى من الماء القذر، عندئذ استودع الله تعالى الحجر الأسود جبل أبي قبيس؛ وفيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: (نزل الركن الأسود فوضع على أبي قبيس كأنه مهاة بيضاء، فمكث أربعين سنة، ثم وضع على قواعد إبراهيم)[1].

وجاء في رواية بهجة الأنوار: «إن أصل الحجر الأسود كان ملكاً من الملائكة، وكان الله تعالى قد أسند إليه حراسة آدم في الجنة حتى لاتمتد يده إلى الشجرة المحرّمة وذلك لقوله تعالى: ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ولم نجدْ له عَزماً** ﴾[2] وأرادت مشيئة الله تعالى أن يتغيب هذا الملك، ويغفل عن آدم الذي وسوس له الشيطان، وارتكب المحظور أو مانهي عنه في غياب حارسه، فاقسم الله تعالى بعزته وجلاله أن يمسخ هذا الملك، ويصيّره حجراً أو جوهرة.

وعندما انتهى الخليل عليه السلام من بناء البيت الحرام، وأراد أن يجعل للناس علماً مميزاً يكون مبدءاً لطوافهم، ومنسقاً له، أرسل ابنه إسماعيل ليبحث له عن حجر حسن، ولكن تلكأ الولد على الوالد، حتى إنّ ما أتى به بعد ذلك لم يعجبه، هنا ظهر الروح الأمين وهو يحمل الحجر الأسود من الجنة، واختلفت الروايات[3] في الحجر الأسود، والكيفية التي كان بها

---

(١) تاريخ الخميس: ١٠٠.

(٢) سورة طه: ١١٥.

(٣) اخبار مكة للازرقي: ١/٥١.

محفوظاً قبل بناء الخليل، فمنهم من ذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى كان قد استودعه جبل أبي قبيس، ونُسب الجبل إلى رجل يُدعى أبا قبيس؛ لأنه بنى فيه داراً وأقام فيها، ويسمى الجبل الأمين، وكان ذلك زمن الطوفان، وقال له إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له[1] يقول ابن عربي :

وبالجبل الأيمن يمين ربي	قد أودعه به الروح الأمين
إلى أن جاء إبراهيم يبني	مكان البيت ناداه الأمين
لدي وديعة خبئت زماناً	مطهرة يقال لها اليمين
فخذها ياخليل الرحمن تربح	فهذا السوق وهذا الثمن الثمين
وكبّر واستلم واسجد وقبّل	ليشرف عن سجدتك الجبين
وقل هذا اليمين يمين ربي	وأني الواله الدنفُ الحزين
ينادي من طباق القربِ عبدي	أتاك المجد والعزّ المكين
ولبّتْك المشاعر والمساعي	وقال بفضلك البلدُ الأمين
ألا أيُّها الحجر المعلّى	تغيُّر وجهك النقي المصون
سوادُكَ من سويدا كلِّ قلبِ	ويبسك من قساوتها يكون
يهون عليَّ فيك سوادُ عيني	إذا تجلّت بأسودها العيون[2]

وفي رواية أخرى : إن أبا قبيس ناداه، إن لك عندي أمانة.

ووضعه في الركن الملاصق للباب حتى يدل الناس ويرشدهم إلى أن هذا هو أول حدود البيت الحرام، وعليه يكون مبدأ الطواف. ووجد هذا الحجر

---

(١) تاريخ الخميس : ٢.

(٢) محاضرة الأبرار: ١ / ٣٨١.

الاحترام من قبل إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده ممن يدين بدين الحنيفية، وقد وجد الاحترام والتقديس كذلك من قبل العرب في عهد جاهليتهم. وبما أنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ومنها ماهو مصنوع من الحجارة إلا أنهم لم يعبدوا هذا الحجر أبداً على الرغم من تقديسهم له. أما تلك الأصنام فقد كانت زلفى لله تعالى، يقول الشاعر:

وهناك لاحجرٌ ولاعارٌ على ... ذي الحجْر في التقبيل للأحجار(١)

ويقول قيس بن الأسلت :

فقوموا فصلوا ربّكم وتمسّحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب(٢)

أما تعظيم الحجر الأسود، فمستمد من تعظيم الذات العلية، ووضعه من قبل إبراهيم الخليل عليه السلام دليل واعتراف منه بتنفيذ أوامر الله تعالى، فكان هذا الحجر بمنزلة الذكرى، فهو يمين الله في الأرض. وعن أبي هريرة رضى الله عنه يقول : (من فاوض الحجر الأسود فإنما يفاوض يد الرحمة)(٣)، فقد جبل الناس في الدنيا عند وفادتهم لأيّ صاحب سلطان أو جاه أو ملك عظيم بتقبيل يده، وذلك دليل على الاحترام والانقياد، أو مظهر من مظاهر السمع والطاعة لصاحب الشأن، فكان الحجر الأسود بمنزلة يمين الله سبحانه وتعالى، وهو المتصف بكل صفات الكمال، وسبحان الله تعالى عما يصفون. ومصافحة الحجر الأسود تعني تقديم العهد والميثاق عند الله تعالى، هذا الميثاق الذي فُطرَ عليه الإنسان، لذا يتناوله الإنسان بإيمان

---

(١) المجموعة النبهانية: ٢/ ١١٢.

(٢) البداية والنهاية: ٢/ ١٦٣.

(٣) اخبار مكة للفاكهي: ٢/ ٢٠٠.

كامل. وينظم لنا البغدادي هذاالمعنى شعرا، ويؤكد أن هذا الركن، وهو يمين الله في الأرض، فلابد للإنسان من أن يتناولها بإيمان كامل، وذلك في قوله :

من فاوض الركن فقدْ فاوضته بيدي هذا يميني فحيُّوها بإيمان[1]

ولة أيضاً :

وبالحجر الميمون لُذنا فإنه لربّ السماء في أرضه يُمناهُ[2]

ويفتديه الزملكاني بقلبه، وليس هناك من يستحق المصافحة بعده :

أفدي بأسود قلبي نور سواده منْ لي بتقبيله من بعد يُمناك[3]

فالحجر الأسود يشفع لمن وافاه واستلمه بحقه، كما يشهد كثير من العبادات، مثل الصوم والصلاة وقراءة القرآن، فهو يمين الله في الأرض، يصافح به من جاء من عباده من حقير وجليل، غني أو فقير. والمصافحة من غير تشبيه ولاتمثيل. وعنده تسكب العبرات، روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (استقبل النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً، ثم التفت، فإذا هو بعمر بن الخطاب، فقال ياعمر هنا تسكب العبرات)[4]؛ فتقبيله سنّه مؤكدة عن الرسول الكريم.

يقول الصلاح الصفدي عند لثمه للحجر الأسود، فهو يُمني نفسه أن يحظى بذات المكان الذي لثمه فيه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام :

---

(١) شفاء الغرام: ٢ / ٤٦١.

(٢) المرجع السابق نفسه :٢ / ٤٥٦.

(٣) المجموعة النبهانية: ٢ / ٤٨٦.

(٤) الجامع الطيف: ٣٣.

قبلُه لعلَّ فمي يُلاقي مكاناً فازَ بالهادي البشيرِ(١)

كذلك لثم الشهاب محمود الحجر الأسود، عسى أن يظفر وتلامس شفتاه ذات الموضع الذي لثمه فيه الرسول صلى الله عليه وسلم:

وتجلّى لنا سنا الحجر الأ سود عن غُرّة الصباح المنير
جامعاً بين صورة الليل للنا ظر فيه وبين معنى البُدور
فلثمناه كله لنلاقي موضعاً خُصّ بالتثام النذير(٢)

والنذير هو الرسول الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فقد جاء مبشراً بالجنة، ومنذراً من النار وسعيرها. وتقبيل الحجر الأسود تتجلى فيه كل معاني التقديس والانقياد للذات العليا، فهو شعار لربوبيته سبحانه وتعالى، ورمزاً لسلطانه المنزه. يصف الصرصري في ميميته كيفية استلام الحجيج للحجر الأسود بقوله :

وقادهمُ اشتياقُهمُ فأمّوا إلى الحجر المقبّل باستلامِ
لهمْ زجلٌ بذكر الله يحكي دويّ النحل أو شدو الحمام(٣)

وأظهر الصفدي لهذا الموضع كل أسباب الولاء والتعظيم:

إلى سيد الأحجار في الحرم الذي قضى الخالق الباري بتعظيم شأنه
حثثنا مطايا الشوق والسوق في الفلا فجاءت بنا إنسان عين زمانه(٤)

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/ ٥١٣.

(٢) المجموعة النبهانية: ٢/ ١٦٨.

(٣) المرجع السابق نفسه : ٤/ ٤٦.

(٤) الدرر الفرائد: ٢/ ١٤٩٢

ويعني تقبيله للبغدادي بذلَ كلّ أسباب العبودية ومظاهرها :

نقبلـــه مـــن حبّنـــا لإلهنـــا فكم لثمة طيّ الطواف لثمْنـــاه[1]

وقال آخر:

وضـعت خـدي لأدني من يطيـف بكم وضع احتقار ومامثلي بمحتقـــر[2]

حكى الشريف أبو عبد الله قال : « حضرت بمكة عند الشيخ محب الدين الطبري، فجاءه رجل مستفتياً له عن تقبيل الحجر الأسود، وقال علّمني السنة في تقبيل الحجر، يعني أبصوت أم بدون صوت؟ فقال له الشيخ : إني لا أستطيع ، قال فاطرق الشيخ، ثم ارتجل هذه الأبيات :

وقال إذا قبّلت وجنة من تهـــــوى
فلا تُسمعنّ صوتاً ولاتعـــلنن النجوى
فقلت ومن يملك شفاهاً مشـــــوقة
إذا ظفرت يوماً بغايتهـــا القصـــوى
وهل يشفي التقبيل إلا مصوتـــاً و
هل يبرد الأحشاء سوى الجهر بالشكوى[3]

وكما يحتاج الجسم إلى الغذاء لكبح جماح شهوة الجوع، فإن القلوب تصدأ، وهي بحاجة إلى الغذاء الروحي؛ ليجلو عنها الصدأ؛ لذا يتزاحم

(١) شفاء الغرام: ٢ / ٤٥٩ .

(٢) الدرر الفرائد : ٢ / ٥١٤ .

(٣) ملء العيبة بما جمع في بطون العيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة: ١٢٥/٥ .

الناس عند استلام الحجر الأسود، وقد جسد أحد الشعراء هذا المنظر بقوله[١]:

في الحجر الأسود كمْ أودعت   أسرارُ أنسٍ من علوم الغُيوب
تزدحمُ الأفواهُ في لثمه   كأنها تلتقط قوت القلوبِ

ويتناول الصفدي المعنى نفسه في قوله:

تقبيل ذاك الحجر الأسود   يصدُّ عني حرَّ قلبي الصّدي
في الكعبة الغرّاء خالٌ من الدُرِّ   على صفحة خدٌ نَدي[٢]

وصور لنا شاعر آخر منظر الحجيج، وهم يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب بين لاثم للحجر وساجد عنده، حتى كأنه مصدر سر الحياة، فالكل يريد أن يروي ظمأ نفسه من هذا الماء العذب:

للحجر الأسود كم لاثمٍ   وساجدٍ مرغم فيه الجباه
تزدحمُ الأفواه في ورده   كأنه ينبوع ماء الحياة[٣]

وقال آخر:

وتزاحموا في الورد يستلمُونه   أرأيت في الورد الظّماء الهيّما[٤]

ويروي الترمذي عن عبد الله بن عمر: أنه كان يزاحم على الركنين الحجر والركن اليماني، فقيل له في ذلك، فقال: إن أفعل فإني سمعت

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/٥١٤.

(٢) الدرر الفرائد: ٢/ ١٤٩٢

(٣) المرجع السابق نفسه: ٢/١٤٩٣.

(٤) المجموعة النبهانية: ٤/٩٧.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن مسحهما كفارة للخطايا، وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحط الخطايا حطاً)(١).

والزمخشري يقول في رائيته :

فمقبل الحجر المسح ملصقا خدّي به وعليه دمعي قاطر(٢)

فقد هوى إلى الحجر الأسود يقبله ويتمسح به، كما تمسح به من قبله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وتبعه في هذه السنة الحميدة السلف الصالح، ويتدفق الدمع من عينيه خوفاً ورهبة وأملاً في شفاعته، وهناك من يسوغ مزاحمة الناس في استلام الحجر الأسود الذي يحتل مكانة تفوق مكانة سواد العين بالنسبة له :

أقول وقد زُوحمت عن لثم أسود
من البيت إن تحجب فما السرُّ يُحجبُ
فإنك منا بالمحلّ الذي به
محلّ سواد العين أو أنت أقربُ(٣)

ويقول ابن العربي في مبالغته لتقبيله الحجر الأسود :

يمينُ المؤمن الركنُ اليماني أبايعه لأحظى بالأماني
يمينٌ مالها حجبٌ تعالتْ عن الحجاب والحجب المباني

(١) مرآة الحرمين: ٣٠٥.

(٢) المجموعة النبهانية: ٢ / ١٣٤.

(٣) الدرر الفرائد : ٢ / ١٤٩٢.

أمنتَ بلثمها من كلّ سوءٍ يَصيرني إلى دار الهوان(١)

وتيمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم، واقتفاء أثره الكريم ،شدّ الزمخشري رحاله إلى الديار الحجازية المقدسة، وألقى عصاه فيها، وهي كناية عن الإقامة، ولاذ بالحجر الأسود يبكي ويدعو ربه أن يخلصه من آثامه وذنوبه :

سيري تماضرُ حيث شئت وحدّثي إني إلى بطحاء مكة سائرُ
حتى أنيخ وبين أطماري فتى للكعبة البيت الحرام مجاورُ
متعوّذ بالركن يدعو ربّه يشكو جرائر بعدهُنّ جرائرُ
يشكو جرائر لايكاثرها الحصى لكنّها مثل الجبال كبائرُ(٢)

وأكثر الشعراء من تشبيه الحجر بالخال، فهو بالنسبة للبيت الحرام كالشامة في جسم الإنسان، أو في خد الحسناء، يتناول شمس الدين النواجي هذا المعنى بقوله :

يا ربة الخال ياذات الجمال ويا حبيبة القلب ياأقصى أمانيه(٣)

فربة الخال هي الكعبة المشرفة، وخالها الحجر الأسود.

وقد ملأ حب ذات الخال قلب الشاعر يوسف النبهاني، وملكت فؤاده(٤):

لستُ أنسى زمنا قد سلفا فيك يامكة بالعيش الهني

---

(١) محاضرة الأبرار: ١ /٣٧٨.

(٢) المجموعة النبهانية:٢ / ١٣٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه :٤ /٢٨٨.

(٤) المرجع السابق ٤ /٤٥٦ .

إذ من المروة أسعى للصّفا وبذاتِ الخال وجدي عمّني

وعندما لثم الشاعر تلك الشامة الجميلة، التي زانت تلك الوجنة الشريفة، زال عنه الظمأ، وانطفأت النيران المتأججة في صدره:

وألثم خال وجنتها فيُطفي لهيب سعير أحشائي الصّوادي(١)

ووصف آخر حال هذا الخال، وهو مضمخ بالمسك، حتى صار كأنه قطعة من المسك، أو هي المسك ذاته، وما كان منه إلا أن يفرط في إظهار كل مظاهر التذلل والخضوع علّه يفوز أو يحظى بلثم هذا الخال الذي أذهب عقله :

ياكعبة الحسن التي قد أذهبتْ نسكي وهاجتْ لوعتي وشجوني

ماذا يضرّك لو سمحت بقبلةٍ في خالك المسكيّ للمسكين(٢)

وهناك من يوصي صاحبه بالإسراف في تقبيل هذا الخال بتواضع:

قبّل الخال لاأبالك عشْرا ياأخا حبّها بغيرِ إباء(٣)

روي عن الإمام علي كرم الله وجهه: (إن العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم حين مسح ظهره ألا يشركوا به شيئاً، كتبه في صك وألقمه الحجر الأسود، ولذلك يقول المستلم له إيماناً بك ووفاء بعهدك)(٤)، والعهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم عليه السلام الفطرة التي يولدون بها، وبذا

---

(١) المجموعة النبهانية: ٢/٦٥.

(٢) الدرر الفرائد المنظمة: ٢/٤٥٩.

(٣) الروض الأنف: ١٢٩.

(٤) أخبار مكة للفاكهي: ٢/٢٥٠.

يكون بينهم وبين خالقهم ميثاق عظيم، يقول الرشيد البغدادي[١] :

على لثمة للشعث والغبر رحمة   فكم أشعث كم أغبر قد رحمناهُ
وذاك يومُ القيامة لنا شاهدٌ   وفيه لنا عهدٌ قديمٌ عهدناهُ

والعهد القديم هو الميثاق والفطرة التي فطرَ الله سبحانه وتعالى عليها بني آدم، وهي أن لايشركوا به .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشدّ بياضاً من اللبن، فسوّدته خطايا بني آدم)[٢] .

ويشير الصلاح الصفدي إلى أن هذا الحجر كما سبقت الإشارة إليه كان أبيض كالمهاة عندما أنزله الله تعالى من الجنة، ولكن سودته خطايا بني آدم، وتناول هذا المعنى زين الدين بن عمر المعري في قوله :

ألم تر خالها المسودَ أضحى   يفوقُ على الصباح المستطير
تقبله الطوائفُ طائفاتٍ   فيا شرف المباسم والثغور
تكون درة بيضاء لكنْ   تسود من ذنوب أولي القصور[٣]

وقد أثرت خطايا بني آدم وآثامهم، فحولت هذه المهاة البيضاء إلى قطعة سوداء شديدة السواد، فلا شك أن تأثير الذنوب والمعاصي، وكل أنواع الفجور والبغي، يكون أشد على القلوب من الأحجار، مع العلم أن هذا

---

(١) مثير العزم الساكن: ٣٦٧ .

(٢) الدرر الفرائد : ١ / ٥١٢

(٣) صفة جزيرة العرب : ٣٣٠ .

الحجر ليس من أحجار هذه الدنيا، يقول الشاعر:

تشرف الركنُ إذا قبلْتُ أسودهُ   وزيد فيه سواد القلب والبصر[١]

ولقد تعرض الحجر الأسود لعدة حوادث نهب وسرقات، فعندما بغى قوم جرهم في الحرم، وأخرجوا منه، ونفوا إلى أرض اليمن، عمد زعيمهم عمرو بن الحارث إلى الحجر الأسود وغزالي الكعبة المشرفة، ودفنهم في بئر زمزم، ويصف اليعربي حال الزعيم الجرهمي ومحاولته إخفاء الحجر الأسود في بئر زمزم:

مشى جذلا بالكنز حتى أتى به   ركية إسماعيل في غير صعدد

وأودعها من أقدس الله أسودا   غفا أسفا في فسحة من تعقّد

وطمّ طواها باسمع لطمه   ولامفصح غبّا لصاحب مزود[٢]

وركية إسماعيل يريد بها سقيا إسماعيل، وأقدس الله أسود فهو الحجر الأسود، وبقي الحجر الأسود مدفونا ببئر زمزم حتى أخرجه قصي بن كلاب، وأعاده إلى مكانه الذي كان الناس يتمسحون به على سبيل التبرك.

ويذهب باسلامة إلى أن إعادة الحجر الأسود تمّ على أيدي بني إياد بن نزار عندما أبعدوا من مكة المكرمة، وكانت هناك امرأة من بني خزاعة قد حضرت حادثة دفنه، فحدثت قومها بذلك، فنقلوا الخبر إلى مضر بعد أن اشترطوا عليه أن يسند إليهم أمر ولاية البيت الحرام، وعليه لم يكن الحجر الأسود مدفوناً حتى عهد قصي بن كلاب، بل أعيد في عهد ولاية خزاعة للبيت الحرام.

---

(١) المرجع السابق نفسه : ٣٤٠.

(٢) الحلقة الاسلامية في تاريخ الكعبة والمسجد الحرام ٩٢.

وبقي الحجر الأسود في موضعه، لم يتعرض لأي أذى منذ عهد جرهم إلى أن كان عهد عبد الله بن الزبير، فقد أثّر فيه الحريق الذي أصاب الكعبة المشرفة، وقام ابن الزبير بشده بالفضة، ثم كانت حادثة القرامطة، وذلك عندما ضرب أبو طاهر القرمطي أو أحد أعوانه الحجر الأسود بدبوس فهشمه ثم قلعه، وبقي عندهم اثنين وعشرين سنة، وكان الناس آنذاك يضعون أيديهم موضعه للتبرك، ويسجل الصلاح الصفدي حادثة سرقة القرامطة وتغيبه عندهم في قوله:

فياويح القرامطة الذين | استطالوا بالعتوّ و بالفجور
لقد نقلوهُ عُدوانا وظلماً | إلى هجرٍ وجدّوا في المسير
أتوا أمراً عظيماً فاستحلّوا | بذلك حرموا الأمر الخطير
تغرّب عندهم عشرين عاما | وتلت عامين من بعد الكسور
ولكنّ المطيع شراه منهم | بخمسين ألف دينارٍ نضير
وجاءَ لأخذه ابن عكيم | وكان بأمره عين البصير
ومن خبث ومكرٍ شبّهوه | بآخر فعل بهتان وزور
جاءوا والعبير يضوعُ منه | وقد لفّوه في خرق الحرير
علامته على الأمواه يطفو | ولايشبط من نار السعير
ويحكى أن أجمالاً ثلاثاً | تفسخ تحته عند المرورِ
وحين أعيد جاء على بعيرٍ | ضعيف طابَ هذا البعير(١)

وكان يهدف من سرقة الحجر الأسود وأخذه إلى بلدة هجر، وهي

---

(١) صفة جزيرة العرب: ٣٥٠.

بالأحساء، أن يوجه وجهة حجيج العرب وقبلتهم. وقيل إنه حمله إلى الكوفة، وباءت مساعيه بالإخفاق. وعندما حملوه هلك تحته أربعون جملاً، وعند ماأعيد إلى مكانه حمل على بعير هزيل، إلا انّ الله أكرم هذا البعير وأسمنه.

وأشار الصفدي إلى خاصية من خواص هذا الحجر، أو من عجائب هذا الحجر، وهو ليس من أحجار هذه الدنيا، أنه لايغطس في الماء، ولايحترق بالنار؛ أي لاتسري الحرارة فيه.

وعلى الرغم من كل المحاولات الخبيثة، التي تعرض لها الحجر الأسود، قبل حادثة القرامطة وبعدها، إلا أن عين الله تعالى كانت تحرسه، والعناية الإلهية ترعاه، فخلّصه الله سبحانه وتعالى من كل فجور وبغي لحقه، وأنقذه وأعاده إلى مكانه؛ أي موضعه في الكعبة المشرفة.

وذهب بعض أعداء الإسلام إلى أن تقبيل الحجر الأسود واستلامه فيه شيء من بقايا الكفر والوثنية وعبادة الأصنام، فهذا أبعد مايكون من دين الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، فهو الذي عافت نفسه وكرهت أن يتخذ من الأصنام آلهة، ونبذ دين آبائه وملتهم، فقد بدأ عليه السلام بتحطيمها، وجاءت حكاية إبراهيم وهو يخاطب أباه في قوله تعالى: ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلالٍ مبين** ﴾[1]، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بإزالتها نهائياً عند فتح مكة المكرمة، وكان يتلو قوله تعالى: ﴿ **وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهُوقا** ﴾[2]،

(١) سورة الأنعام: ٧٤.

(٢) سورة الإسراء: ٨١.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ماأشار إلى أي صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولاأشار إلى قفاه إلا وقع على وجهه، يقول تميم بن أسد الخزاعي:

وفي الأصنام معتبرٌ وعلمٌ   لمن يرجو الثواب أو العقاب(١)

ولايستلم المسلم الحجر الأسود إلا بتكبير الله سبحانه وتعالى، فتقبيل الحجر الأسود ليس من إرث الجاهلية، بل ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾(٢).

وعندما حج أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ما كان منه إلا أن استلم الحجر الأسود وقبله، وقال: «إني أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك»، وعندما حج عمر بن الخطاب قال ماقاله أبو بكر الصديق، وكان الإمام علي كرم الله وجهه حاضراً عندئذ فردّ على الخليفة عمر بل يضر وينفع بإذن الله؛ لأن الله عندما أخذ العهد على بني آدم أجرى نهراً أطيب من اللبن، وألين من الزبد، فاستمد القلم الذي كتب به العهد في رق، وألقمه الحجر الأسود، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يؤتى بالحجر الأسود يوم القيامة وله لسان يشهد لمن قبله بالتوحيد)(٣).

وهناك بعض الأحجار الأخرى تجد التقديس والتعظيم، فصخرة بيت المقدس كانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة المشرفة، لذا تجد الاحترام عند

---

(١) السيرة النبوية: ٤ / ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

(٣) الروض الأنف: ١٢٩.

المسلمين، كذلك قدسها اليهود والنصارى؛ لأنها كانت محل قربات نفر كريم من أنبياء بني إسرائيل، كإسحاق ويعقوب وداود وسليمان، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

فالتقديس لم يكن أصلاً لذات الصخرة، ولكن لعلاقتها بشيء مقدس، وانقياداً وطاعة لأوامر الله سبحانه وتعالى، وكذلك استلام الحجر الأسود أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإحياء لسنته الشريفة.

حجر إسماعيل عليه السلام :

وهو عبارة عن الحائط الذي يقع في شمال الكعبة المشرفة على شكل نصف دائرة، وبناه إبراهيم عليه السلام بالعريش بعد بناء البيت الحرام؛ ليكون حظيرة لغنم إسماعيل عليه السلام[١]. وعليه لم يكن حجر إسماعيل جزءاً من البيت؛ لأن بناءه كان بعد بناء البيت الحرام، وعندما بنت قريش الكعبة المشرفة في عهد الجاهلية اقتطعت جزءاً من مساحة الكعبة المشرفة، وأضافتها إلى مساحة الحجْر، وذلك لأن ماجمعوه من طيّب أموالهم لم يكن يكفي لبناء بيت الله الحرام، على المساحة نفسها، التي بناه عليها إبراهيم (عليه السلام).

ويقع الجزء الذي اقتطعوه من البيت في الجهة الشمالية.

واستمر البيت الحرام على حاله؛ أي حال بناء قريش له بعد البعثة المحمدية، وطيلة عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

وكان أول هدمٍ له هدم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[٢]، كما سبقت

(١) أخبار مكة للأزرقي: ١ / ٣٩.

(٢) انظر الصفحة ٥٧ من هذا الكتاب.

الإشارة إلى ذلك، ورده لقواعد إبراهيم عليه السلام؛ أي إخراج الحجر من البيت الحرام، ولكن لم يستمر بناء ابن الزبير طويلاً كما مر بنا[1]، فقد رده الحجاج على ما كان عليه في الجاهلية، وبذلك استُقصر جزء من مساحة البيت وأضيف إلى مساحة الحجر، وقد قدرت هذه المساحة بحوالي ست أذرع وشبر.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: (كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي، فأدخلني في الحجر، فقال صلّ في الحجر إذا أردت دخول البيت؛ فإنه هو قطعة من البيت، ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة، فأخرجوه من البيت)[2].

يقول ضرار بن الخطاب:

لم يحظ بالبيت فيما قد مضى أحدٌ ... من البرية لا عربٌ ولا عجمُ
بعد ابن هاجر أنّ اللـه فضّلـه ... إلا زهير له التفضيلُ والكرمُ[3]

وللصلاح الصفدي:

طوى في طوافي اللـه لـي منهُ لـذةَ
إذا نُشرتْ بشّرت عمري باليُسْر
وكم حسناتٍ فاض في الحجر دُرُّها
وسال بها الميزابُ حتى امتلا حجري[4]

---

(١) انظر الصفحة ٦١ من هذا الكتاب.

(٢) أخبار مكة للفاكهي: ٢ / ٩٠.

(٣) الدرر الفرائد: ١ / ١٥٠٤.

(٤) المرجع السابق ٢ / ١٥٠٤.

ويستعمل الشعراء الإسلاميون بعض المحسنات البديعية، كما جاء في قول الشاعر يوسف النبهاني :

أجلستْني في حجْرها بعد تقبيلِ فمي منها اليمين
ولقد منّتْ بأوفى بِرِّها إذ دعتني أدخلُ البيت الأمين(١)

وحجر إسماعيل من المواضع التي يستجاب فيها الدعاء، لذا يفضل أن يكثر الناس فيه من الدعاء والتضرع، روى مالك بن دينار: «بينما أنا أطوف بالبيت، إذ أنا بامرأة جهيرة في الحجر، وهي تقول أتيتك من شقّة بعيدة مؤملة لمعروفك، فأملني معروفاً من معروفك، تغنيني به عن معروف من سواك، يامعروفاً بالمعروف»(٢).

وكان الميزاب يصب في الحجر منذ عهد قريش، فأبقى عليه ابن الزبير؛ أي جعله يصب في الحجر، ولم يخالفه الحجاج الثقفي في ذلك، يقول شمس الدين النواجي في الميزاب:

وانثر دموعك من ميزاب مقلتها في الحجر فالفضل من نعماهُ مبذولُ(٣)

وروى علي رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي هريرة رضى الله عنه : (ياأبا هريرة إن على باب الحجر ملكاً يقول لمن دخل فصلى ركعتين مغفوراً لك مامضى فاستأنف العمل، وعلى باب الحجر الآخر منذ خلق الله الدنيا إلى يوم يرفع البيت، يقول لمن صلى وخرج

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ /٤٥٧ .

(١) مثير العزم الساكن / ابن الجوزى: ١ /٣٧٧ .

(٣) المجموعة النبهانية:٣ /١٤٨ .

مرحوما إن كنت من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تقيا)[١].

وفي الحجر قبر إسماعيل عليه السلام، ودفنت إلى جواره أمه هاجر.

الحطيم :

موضعه بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام وزمزم وحجر إسماعيل، وهو عبارة عن الجدار القائم حول الحجر؛ أي هو البقعة المحصورة بين الكعبة المشرفة والحجر غرباً والمقام وزمزم شرقا. وذكر ابن الأثير: «أن موضعين سميا بالحطيم، قال : سمي حطيم مكة، وهو مابين الركن والباب؛ أي الملتزم، وقيل هو الحجر المخرج منها، يعني الكعبة، سمي به؛ لأن البيت رفع وترك هو محطوماً، وقيل : لأن العرب كانت تطرح فيه ماطافت به من الثياب، فتبقى حتى تتحطم بطول الزمن»[٢].

يقول عبد الله ابن لسان الدين الخطيب في معنى الحطيم وهو الكسر:

وبكيت من دمع المآقي زمزما   وتركت جسمي كالحطيم حطيما[٣]

وقد استمد الحطيم اسمه من معناه، يقول الحريري في المقامة الرملية:

وأنفق ماجمعت بأرض جمع   وأسلو بالحطيم عن الحُطام[٤]

أرض جمع إشارة إلى المشاعر المقدسة، ويريد بالحُطام متاع الدنيا.

وعنده يزدحم الناس ويتدافعون للدعاء والتضرع؛ لأنه من المواضع التي

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١ / ١٥٠٤.

(٢) كتاب الكامل: ٩٠.

(٣) المجموعة النبهانية: ٤ / ٩٧.

(٤) مقامات الحريري: ٢٤٨.

يحبذ فيها الدعاء، ويشد الزمخشري رحاله حيث يطيب له المقام في هذا الموضع المبارك(١):

ألقي العصا بين الحطيم وزمزم لا يطبيني أخوة وعشارُ
ضيفا لمولى لايخلُ بضيفه ويريه أقصى ما تمنّى الزائر

وإلقاء العصا كناية عن الإقامة الدائمة، فهو قد عقد العزم على الإقامة بين الحطيم وزمزم، حيث يجد الزائر من المار أحسن وفادة وضيافة، لذا فهو قد نبذ كل متاع الدنيا الفانية.

وتكاثرت ذنوب البعض حتى إنه عجز عن حصر ماغترفه من آثام وخطايا، وعلى كثرتها قام بتهشيمها وتحطيمها عند الحطيم، كما حدث لبرهان الدين القيراطي(٢):

كم حطمنا لدى الحطيم ذنوبا كثرت عدّة عن الإحصاء

وماحلف أحد عنده كاذباً إلا عجل الله تعالى له بالعقوبة، ومادعا مظلوم على ظالمه إلا أهلكه الله تعالى وقال الشاعر(٣):

فلكم بالحطيم حطم قوم ندّ عنهم في الندوة الجلساءُ

وعليه استخلص مما تقدم أن اسم الحطيم يطلق على ثلاثة مواضع:

فالحجر يعرف بالحطيم، كما أن الملتزم يعرف بالحطيم، ومابين زمزم ومقام إبراهيم عليه السلام والكعبة المشرفة أيضاً يعرف بالحطيم، وذهب البعض أن الشاذروان هو الحطيم.

(١) الزمخشري: ١٩١.

(٢) المجموعة النبهانية: ١/ ١٤١.

(٣) المرجع السابق نفسه: ١/ ٢٥٥.

سقيا إسماعيل عليه السلام :

وضعه حيث أمره الله تعالى هو وأمه، حيث لايوجد مايشبع الجوع، ويؤنس الوحدة، ويروي الظمأ .

واستجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإكراماً لهذه الأم المؤمنة الصابرة المحتسبة لله تعالى، فجّر جبريل الروح الأمين بئر زمزم بأمر الله تعالى سقيا لابن خليله عليه السلام، يقول البلوي : «وكانت زمزم سقيا إسماعيل عليه السلام، فجّرها روح القدس بعقبه، وفي تفجيرها بالعقب دون أن يفجرها باليد أو غيرها إشارة إلى أنها وراثته هو ومحمد وأمته»[1] .

وعندما كانت هاجر تبحث عن جرعة ماء؛ لتنقذ رضيعها من الهلاك من شدة العطش، كانت تمشي تارة، وتجري تارة أخرى بين الصفا والمروة؛ لذلك شرع الله تعالى على حجاج بيته الحرام السعي بينهما بالكيفية التي سعت بها هاجر وعدد المرات نفسها .

فقد سعت السيدة هاجر بهمة ونشاط، يدفعها إيمانها الكامل بالله ورضاؤها بعدالة حكمه؛ أي بذلت ما في وسعها من الجهد والقدرة مع التوكل التّام عليه سبحانه وتعالى، وجاء في التنزيل العزيز : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيثُ لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[2] . وحاولت أم إسماعيل أن تجمع الماء لتزمه بالتراب، حتى لايفوتها شيء منه، قبل أن تأتي بماعونها لتملأه؛ لتسقي رضيعها، وصوّر

---

(١) ألف باء :٣٣٦ .

(٢) سورة الطلاق : ٢ - ٣ .

أحد الشعراء منظر السيدة هاجر وهي تحاول أن تحوض الماء براحتيها[١]:

وطفـقتْ تبني له الصّـفائحـا لو تركـتْـهُ كـان مـاءً سـائحـا

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال لو لم تغرف منه، لكانت زمزم عيناً معيناً)[٢]. وجاء في الذكر الحكيم قوله تعالى : **﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾**[٣] والماء المعين هو الماء الكثير الذي يسهل تناوله.

ووصف شاعر ماء زمزم بقوله[٤]:

غنمنا عندَ بيت الله عـيـشـاً منا في المقـام هنـا أمـين

ودار بماء زمـزم لي نـديمٌ وطـاف لنـا بـكـاسٍ من مـعـين

وذكر الفاكهي أن إبراهيم عليه السلام قد قام بحفر بئر زمزم بعد حفر جبريل عليه السلام، ثم حفرها بعد ذلك ذو القرنين، ثم اندرست زمزم بتناسخ القرون وتوالي العصور، ومحي مكانها، فغيبت بعد دفن جرهم لها. وفي زمن عبد المطلب أهداه الله تعالى إياها تشريفاً وإكراماً له، ولمن سبق في علم غيبه أنه سيكون الرسول المنتظر من أحفاد عبد المطلب بن هاشم. أرى الله تعالى الزعيم القرشي في المنام أن يقوم بحفر بئر زمزم بعد أن ساق له من الدلائل والعلامات التي يستدل بها على موضعها.

---

(١) فضائل مكة وحرمة البيت الحرام: ٩٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد: ١٩٨.

(٣) سورة الملك: ٣٠.

(٤) الدرر الفرائد: ٢/١٥٠٧.

روى ابن هشام أنه قد قيل لعبد المطلب عندما أمر بحفر زمزم[1]:

ثم أدع بالماء الأولاد روي غير الكدر يسقي حجيج الله في كل منبر

ليس يخاف منه شيء ماقد عمر

والماء الرويّ هو الماء الكثير، وأصلها الرواء، فهو يسعى لعمل الخير والبر، حتى يباعد الله تعالى بينه وبين المصائب في مقبل أيامه.

أما قبيلة قريش فقد عارضت عبد المطلب عندما ذهب ليبحث عن موضع البئر؛ ليقوم بحفرها وإعلامها، وكان عبدالمطلب يردد في أثناء حفره لها[2]:

اللهمّ أنت الملكُ المحمود ربي أنت المبتدي والمعيد

وممسك الراسية الجلمود من عندك الطارفُ والتليد

إن شئت ألهمت كما تريد لموضع الحلية والحديد

فبين اليوم لما تريد إني نذرتُ العاهد المعهود

أجعله ربي فلا أعود

ولكن بعد أن يسّر الله تعالى لعبد المطلب مهمته التي أمره بتنفيذها، وتفجرت ماؤها بعون الله تعالى على يده، وجد مادفنه الزعيم الجرهمي من أدرع وأسياف وغزالي الذهب، عندئذ أرادت قريش أن تقتسم معه ماأهداه إياه الله تعالى وتشاركه في المغانم، فاستشاروا آلهتهم وضُرب بالقداح، وحكمت الآلهة بالغزالين للكعبة والأدرع والأسياف لعبد المطلب، تقول

---

(١) السيرة النبوية: ١.

(٢) البداية والنهاية: ٢/٢٥٩.

صفية بنت عبد المطلب في هذا الشرف العظيم:

نحن حفرنا للحجيج زمزما شفا سقم وطعام مُطْعِما
ركضةُ جبريل ولما تعظما سقيا نبيّ الله في المحرما
ابن خليل ربّنا المكرّما[1]

وقد كانت هنالك آبار كثيرة قد حفرها القرشيون قبل عهد عبد المطلب، كالطّوى، وكانت ملكاً لعبد شمس بن مناف، وكانت بذر لهاشم بن عبد مناف، قال الشاعر:

سقى الله أمواهاً عرفت مكانها جراباً وملوكاً وبذّر والغمرا[2]

كذلك كانت خم أو الحفر لبني كلاب، يقول ابن أبي الجهم في ذلك:

وقدما غنينا قبل ذلك حقبةً ولانستقي إلا نجم أو الحفْر[3]

وعلى الرغم من وجود عدد كثير من الآبار إلا ان زمزم نالت الحظوة والفضل على كل الآبار التي كانت تسقي حجيج بيت الله الحرام من قبل، فقد استمدت بئر زمزم هذه المكانة من قربها من المسجد الحرام، ولكونها هزُمة جبريل، وسقيا إسماعيل عليهما السلام، وقام عبد المطلب ببناء أحواض حول البئر لسقاية الحجيج، وكان تجديد عبد المطلب لبئر زمزم في سنة خمسمائة وأربعين[4].

وافتخر بنو عبد مناف بهذا الشرف العظيم الذي خصّهم الله تعالى به،

---

(١) سبل الهدى والرشاد: ١٠٠ - ١٠١.

(٢) السيرة النبوية ١ / ٢٠٠.

(٣) تاريخ الخميس: ١ / ١٨١.

(٤) السيرة النبوية: ١ / ١٩٦.

وقال شاعرهم مفاخرا :

ورثتنا المجـــد من آبـــــا ئنا فنحن بنـــا صُـــعُـــدا
ألم نسْق الحـــجـــيج ونــــ حـــر الدلافـــة الـــرَّفْـــدا
ونلقي عند تصـــريف الـ منايا شـــــــدداً رُفُـــدا
وزمـــزم فـــي أرومـــتنــــا ونفـــقـــا عين منْ حـــســـدا(١)

الدلوف من الجمال : السمين الذي يدلف من شدة سمنه، والرفدا : هو القدح الكبير، أما الرُفدا، فهي العطاء، قال تعالى : ﴿وأتْبعوا في هذه لعنةً ويومَ القيامةِ بئس الرّفدُ المرفُود﴾(٢). وأراد بقوله في أرومتنا : أي في حوزتنا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لم يرخّص رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد أن يبيت ليالي منى بمكة إلا للعباس بن عبد المطلب من أجل سقايته الحجيج)(٣).

ومعنى زمزم في اللغة : صوّت من بعيد تصويتاً له دوي غير واضح. وتناول المسعود هذا المعنى في قوله : (إن الزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء)(٤)، ويجيء أيضاً بمعنى الإسراع في السير، يقول الصّرصري في مدح خير البرية:

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١ / ١٩٦.

(٢) سورة هود : ٩٩.

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ٢.

(٤) مروج الذهب: ٢٩٠.

فيا خير من زمّ النياق لحجّه وألجمَ خيلاً للجهادِ وأسرجا[١]

ومن معانيها أيضاً الترنم بالألحان كقول الشهاب محمود:

بها زمزم الحادي فطابتْ بذكرها مواردُ حاديها وطاب سميرها[٢]

ولزمزم أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمّى، (فمن أسمائها ما قاله المنادي لعبد المطلب عندما أمره أن يحفر طيبة؛ ثم جاءه ثانية : فقال له بره، وجاءه في الثالثة وأمره أن يحفر المضمونة، ثم جاءه في المرة الرابعة وأمره أن يحفر زمزم، وأعلمه مكانها)، يقول البغدادي:

ولي بزمزم سرٌ فيه زمزمةٌ عنوانها عند أزمان وأزمان[٣]

ومن أسمائها كذلك سقيا الله إسماعيل، وهزمة جبريل؛ أي نقرة جبريل في الصخر، ومن أسمائها أيضاً بركة، وسيدة، وناقعة، وعونة، وبشرى، وسارة، وصافية، وعصمة، وسالمة، وميمونة، ومباركة، وكافية، وعافية، ومغذية، ومطاهرة، ومفداة، وحرمية، ومروية، ومؤنسة، وطعام طعم، وشفاء سقم.

وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال في زمزم : (إنها طعام طعم وشفاء سقم)، وروى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ماء زمزم لما شرب له)، وتناول القيراطي ماجاء في نص الحديث الشريف بقوله:

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ٤٤-٤٧.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢ / ١٧٨.

(٣) شفاء الغرام: ١ / ٤٦.

وأشربن منْ شراب زمزم كأساً دبّ منها السرور في الأعضاء
فهي حقّاً طعام طعم لجوعٍ ولها للسقيم أيّ شفاء (١)

وتناول شاعر أخر المعنى نفسه :

شفيت يازمزم داء السقيم وأنت أصفى ماتعاطى النديم
وكم رضيع لك أشواقُهُ إليك بعد الشوق مثل الفطيم(٢)

وذكر آخر أن من ضمن منافعها أنها تزيد في قوة البدن، واعتدال المزاج، وإضافة إلى تفوقها على كل أنواع المياه بالطعم الطيب:

لزمزمَ نفعٌ في المزاج وقوةٌ
تزيدُ على ماء الشّباب لذي فتْك
وزمزم فاقت كل ماءٍ بطيبها
ولو أنّ ماء النيل يجري على المسك (٣)

والفتك هو الجنون، أو من يصاب بمرض في عقله.

وكم شربها حجيج بيت الله الحرام وزواره؛ لتغسل وتزيح عن نفوسهم مالحق بها من آثام وخطايا، كذلك لتطفئ حر اللهيب المتاجج بدواخلهم، يقول الصرصري:

تخلّفنا عن البلد الحرام وما فيه من النّعم الجسامِ
وفاز بفضله إخوان صدقٍ لنا نهضوا مع الوفد الكرام

---

(١) المجموعة النبهانية: ١/١٤١.

(٢) المرجع السابق : ١/١٤١.

(٣) المرجع السابق: ٤/٤٥.

إلى أن يقول :

ومـــالوا نحـــو زمـــزم حين حلّوا   ليـــبـــرد منهم حـــرُّ الأوام [١]

والأوام هو الظمأ الشديد .

ولابن حجر :

ألا ليت شـعـري هـــل أبيتنّ ليلة   بمكة أشـفـــي ذا الفـــؤاد المفنّدا

وهلْ أردنْ مـاء النعـيـــم بزمـزم   وهل لي أن أروى وأسـعى وأسـعـدا

وإني لصـادٍ صـــادرٍ عن مـــواردي   إلى أن أرى من عين زمـزم مـوردا [٢]

والفؤاد المفند ؛ أي الذي لايصدقه، وصاد جمعها صُداة، وهو الذي اشتد به العطش، أما الصادر فهو الذي لم يشرف على موارد المياه. وشارك آخر ابن حجر في المعنى نفسه :

وياليـــتني رويت منْ مـــاء زمـزم   صـدى خلد بين الجوانح صـادي [٣]

واستمدت ماء زمزم أفضليتها على ماء نهر الكوثر؛ لأن جبريل عليه السلام كان قد غسل منها قلب الخاتم الأمين عليه الصلاة والسلام :

يازمـــزم الطيـــبـةُ المنجـد   يامن علتْ قـدراً على المشـتـري

رضـيع أخـلافـك لايشـتـهـى   فطامـه إلا لدى الكوثـــر [٤]

وطعم ماء زمزم يختلف من شخص لآخر، فمنهم من يراه عذباً :

---

(١) المجموعة النبهانية ٤ /٤٦-٤٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٢ / ٦٢ .

(٣) مثير العزم : ٢٠٠ .

(٤) الدرر الفرائد : ٢ /١٥٠٧ .

بالله قولوا لنيل مصر ... بأنني عنه في غناء
بزمزم العذب عند بيتٍ ... مخلّق السّترِ بالوفاء(١)

أما عند أبي العلاء المعري فقد كان مذاقه على خلاف ذلك، فنجده قد أحسّ بطعم الملوحة فيه:

تباركت أنهار البلاد سوائح ... بعذبٍ وخُصّت بالملوحة زمزم(٢)

وهنا لك من يحسّ بنشوى روحية عند شرابها، تفوق النشوى واللذة التي يجدها شارب الخمر المعتّقة، يقول النبهاني:

أشربُ الخمر شرب النهم ... دون إثم غير سكران ملوم
إنما أعني سُلاف زمزم ... صانها الرحمن لابنت الكروم
فأراني كالمليك الأعظم ... من سروري وتجافيني الهموم(٣)

والسلاف أفضل أنواع الخمور وأعتقها، وبنت الكروم كناية عن الخمر، واللذة التي يحسها شارب ماء زمزم تسري في كل أوصاله، يقول القيراطي:

واشربن من شراب زمزم كاساً ... دبّ منها السرورُ في الأعضاءِ(٤)

ولابن الصاحب:

وتجتلي الكعبة الغراء في خلعٍ ... منَ الجمال على من يفوقها الخفرُ
فغنّني واسقني من ماء زمزمها ... هذا هوُ العيشُ لاخمرٌ ولانحسرُ(٥)

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٢/ ١٥٠٨

(٢) لزوم مالا يلزم: ٢/ ٢٦٤.

(٣) المجموعة النبهانية: ١/ ١٤١.

(٤) شفاء الغرام: ٢/ ٤٦٥.

(٥) محاضرة الأبرار: ١/ ٢٧٥.

وأجرى أحد الشعراء مفاضلة بين مكة والمدينة، وذكر زمزم فيها :

وزمزم والحجرُ فينا فهلْ ... لكمْ مكرماتٌ كما قدْ لَنا
وزمزم طعمٌ وشربٌ لمنْ ... أراد الطعام وفيه الشّفا
وزمزم ينفي هموم الصّدور ... وزمزم من كلّ سقمٍ دوا
ومن جاء زمزم من جائعٍ ... إذا تضلّع منهُ اكتفى

إلى أن يقول :

وفينا سقاية عمّ الرسول ... ومنها النبي امتلا وارتوى[1]

وقال عنها ابن عباس رضي الله عنهما: «هي شراب الأبرار وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يهدي من مائها»[2]، وجرت هذه سنة في حجيج بيت الله الحرام وزواره حتى يومنا هذا، فهم يستهدون ماءها عند قدومهم على سبيل البركة.

وقد أثبتت التحاليل المعملية أن ماء زمزم لها تأثير المياه المعدنية، وأن لها تأثيراً في الجهاز الهضمي خاصة عند السفر لمسافات طويلة؛ لأنها تمكن الجسم من طرد السموم، وتجدد نشاط الجهاز الهضمي، وقد أكد الأطباء أن ماء زمزم فيه نفع كبير للكُلى والمعدة والكبد[3].

وقد نال ماء زمزم التقديس والاحترام من قبل الشعوب الأخرى على مللها ومذاهبها المختلفة، كتقديس الفرس لها، والزمزمة عندها، كذلك

---

(١) شفاء الغرام : ٢/ ٤٦٥.

(٢) أخبار مكة للفاكهي: ٢/ ٢٩٢.

(٣) المرجع السابق نفسه: ٢/ ٣٠٠.

قدسها الدراكنة والهنود، كما قدس الهنود بحيرة مادن، ونهر الكنج، والنصارى يعتقدون في نهر الشريعة الذي يوجد بالقرب من بيت المقدس، وهناك ماء لورده في جنوب فرنسا يقدسه الإفرنج ويعتقدون فيه.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما عندما يشرب من ماء زمزم يدعو بقوله: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كل داء»[١]، وزاد الحسن البصري على ذلك بعد قوله شفاء من كل داء: «وسقم برحمتك ياأرحم الراحمين».

وهكذا كانت بئر زمزم استجابة لدعاء الخليل عليه السلام، ورحمة بالطفل الرضيع، وإكراماً لتلك الأم الصابرة المحتسبة لله، ولكنها في البدء والختام هي من أجل سيد الخلق أجمعين، الذي استسقى الغمام بوجهه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

الملتزم:

موقعه بين الحجر الأسود وباب الكعبة المشرفة، وهو من المواطن التي يستجاب فيها لدعاء الناس، يلتزمونه ويدعون عنده بإخلاص، حيث تقضى حوائجهم:

وملتزم فيه التزمنا لذنبنا … عهود وعفو فيه لزمناه[٢]

وقال شمس الدين النواجي :

ثم قف بالباب ملتزماً … من حماها خير ملتزم

---

(١) أديان العرب: ١٢٢.

(٢) شفاء الغرام: ٢/٤٥٩.

علْ تحظى من منازلها   في ربا التنعيم بالنعم[١]

وللبغدادي :

وعند ملتزم منا الملتزم   لو شاء ماشاء من غير منان[٢]

الركن اليماني :

قام ببنائه رجل من اليمن يدعى أبي بن سالم، فنسب إليه، وذكر ذلك شاعرهم في قوله :

لنا الركنُ من بيت الحرام وراثةً   بقية ماأبقى أبيُّ بنُ سالم[٣]

وروى الفاكهي أنّ على الركن اليماني ملكاً موكلاً به منذ خلق الله السموات والأرض، فإذا مررتم به فقولوا : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فإنه يقول آمين[٤]. واستلم البغدادي الركن اليماني مع وفد الحجيج وهو يدعو ويستغفر الغفور الرحيم:

ونستلم الركن اليماني طاعةً   ونستغفر المولى إذا مالمسناه[٤]

واستلم آخر الركن اليماني امتثالاً لأوامر الله تعالى، وإحياءً لسنة نبيه الكريم:

واستلم الركن اليماني تابعاً   لسنة مهدي وطاعة هاد[٦]

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ١١٦ .

(٢) شفاء الغرام: ٢ / ٢٦١ .

(٣) مثير العزم الساكن: ٢٨٥ .

(٤) صفة جزيرة العرب: ٣٤٤ .

(٥) شفاء الغرام: ٢ / ٤٥٩ .

(٦) مثير العزم الساكن : ٢ / ٢٢٦ .

الميزاب :

أول ميزاب للكعبة المشرفة كان في عهد قريش عندما هدمتها وأعادت بناءها، وذلك لأن الكعبة المشرفة عبر العصور المختلفة لم يجعل لها سقف، على الرغم من أن قصيّ بن كلاب كان قد أحكم بناءها وسقفها بجريد النخل، وخشب الدوم إلا أنه لم يجعل لها ميزاباً.

وصنعت قريش الميزاب، وجعلته يصب في حجر إسماعيل عليه السلام، كذلك فعل ابن الزبير عندما ردّ القواعد إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، وأبقى عليه الحجاج بن يوسف الثقفي عندما قام ببعض الإصلاحات والترميمات الجزئية للكعبة المشرفة. وذكر الأزرقي أن طوله يبلغ أربع أذرع، وسعته ثماني أصابع.

وبما أن الميزاب يصب في الحجر ويرويه مما تجود به مياه الأمطار، جانس الشاعر بين المعنيين في قوله :

ثم طف بالبيت واسع وكن ... في رضى المولى على قدم

ارو من ميزاب مقلتك الـ ... ـحجر إن شحّتْ يدُ الدّيَم(١)

وذكر الأزرقي : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حذا ميزاب الكعبة المشرفة وهو في الطواف يقول : اللهم إني أسالك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب، وهو مصلى الأخيار).

كما جاء في قول ابن عباس : (صلوا في مصلّى الأخيار؛ أي الميزاب)(٢).

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٣٤٨.

(٢) أخبار مكة: ٣ / ٢٨١.

المستجاب :

وهومابين الركن اليماني والباب المسدود، الذي فتحه ابن الزبير، بناءً على حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كما مر بنا ، ولكن قام بسدّه الحجاج الثقفي، وهو من المواضع التي يستجاب فيها الدعاء، يقول الشاعر :

من يستجر فإنّ المستجار لهُ	**نعم المجيرُ إذا يلجأ لي الجاني[1]**

يقول البغدادي :

وكم موقف يجاب لنا فيه الدُّعا	**دعونا به والقصد فيه نويناه[2]**

ويمكن أن نجمل القول إنّ العرب كانوا في جاهليتهم يقدسون كل المشاعر الدينية، وتتجلى مظاهر تقديسهم وتعظيمهم لهذه المشاعر المقدسة في وقوفهم عندها حجاجاً وعماراً، وكانوا يحلفون بها، وقد عدّد أبو طالب هذه الأماكن المقدسة في لاميته بقوله :

وبالبيت حق البيت من بطن مكة	**وبالله إن الله ليس بغافل**
وبالحجر المسوّد إذ يمسحونه	**إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل**
وموطئ إبراهيم بالصخر رطبة	**على قدميه حافياً غير ناعل**
وأشواط بين المروتين إلى الصفا	**ومافيها من صورة وتماثل**
ومن حجّ بيت الله من كل راكب	**ومن كل ذي نذر ومن كل راحل**
وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له	**إلال إلى مفضى الشراج القوابل**

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٢ / ٣٠١.

(٢) صفة جزيرة العرب: ٣٩٥.

وتوقافهم فوق الجبال عشية — يقيمون بالأيدي صدور الرواحل

وليلة جمع والمنازل من منى — وهل فوقها من حرمة ومنازل

وجمع إذا ما القربات أجزنه — سراعاً كما يخرجن من وقع وابل

وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها — يؤمّون قذفاً رأسها بالجنادل(١)

لقد عدّد أبو طالب كل مشاعر الحج في زمن الجاهلية. وقد جاراه ابن الفارض :

قسما بالحطيم والركن والأستار — والمروتين مسعى العباد

وظلال الجناب والحجر والميزاب — والمستجار للقُصّاد

ماشممت البشام إلا وأهدى — لفؤادي تحية من سعاد(٢)

(١) السيرة النبوية، ابن هشام: ج١ / ٣٣٩.

(٢) الدرر الفرائض المنظمة في أخبار الحاج ومكه المعظمة، عبد القادر الجزيرى : ج١ / ١٩٢.

الباب الثاني
حرمة البيت الحرام عند الجاهليين

* المبحث الأول : معتقدات الجاهليين الدينية وعاداتهم وتقاليدهم
* المبحث الثاني : الوقوف بعرفة وبقية أعمال الحج
* المبحث الثالث : الطواف وإنشاد الشعر

المبحث الأول

معتقدات الجاهليين الدينية وعاداتهم وتقاليدهم

لم تكن للعرب ديانة مشروعة ومفروضة عليهم، وذلك في المدة التي كانت بعد مبعث سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقبل نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ **لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وماكنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾[2].

المقصود بالقوم في هاتين الآيتين العرب. ولم تشهد المدة بين مبعث إبراهيم عليه السلام والبعثة المحمدية إرسال ايٍّ رسول لهؤلاء القوم، لذلك لم يكن لزاماً عليهم أن يتبعوا أي ملة من الملل، علماً بأن رسالة موسى وعيسى عليهما السلام قد كانت خاصة ببني إسرائيل فقط، ولم تكن للعالم عامة: ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآيتنا أن أخرجْ قومك من الظلمات إلى النور** ﴾[3].

وبمرور الأيام وتقادم العصور اندثرت شريعة الحنيفية، ولكن بقي شيء من بقاياها، وهذا القليل المتبقي قد أخذ طابع الشيء المورث أكثر من كونه

(١) سورة يسن: ٦.

(٢) سورة القصص: ٤٦.

(٣) سورة إبراهيم: ٥.

رسالة سماوية، حتى ماتوارثوه قد تعرض لتغيير في بعض ملامحه الرئيسة، وأحياناً قد يكون هذا التغيير تغييرا كليّاً.

وقد وصف الإمام علي، كرم الله وجهه، حال العرب قبل البعثة المحمدية بقوله: «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين، وفي شر دار مُنيخون، بين حجارة خشن وحيات صمّ، تشربون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة»[1]. وعبد العرب الأوثان تقربا وزلفى لله تعالى، جاء في التنزيل العزيز: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾[2]، وعليه لم تكن عبادة الأوثان من صميم بيئة أرض الحجاز، ولكنها كانت دخيلة على أعرافهم وتقاليدهم، ويذهب ابن كثير إلى القول: «ويزعمون أن أول ماكانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل «عليه السلام» أنه كان يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم حيث مانزلوا وضعوه به، كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون مااستحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلفت الخلوف، ونسوا ماكانوا عليه». وكان أول من ابتدع هذه البدعة وجلب الأصنام وأدخلها أرض الحجاز عمرو بن لحي، وقد كان أسنّ بني خزاعة، وبيده ولاية البيت الحرام، ويصور لنا البيحاني قصته في قوله:

وسافر الخبيثُ عمرو بن لحي — إلى بلاد الشام من قبل لؤي

---

(1) نهج البلاغة: 92.

(2) سورة النجم: 19- 20.

ثم أتى بهبل الأعلى كما سمّاه واحتلّ به أرض الحمى
وأظهر الناس له العبادة ولم تكن تلك لهم بعادة[1]

وكان هبل من أعظم آلهتهم وأكبرها، وكانوا عنده يستقسمون بالأزلام، ويستخدمونه في أمور دينهم ودنياهم، وكان يمثل إله الحظ عندهم، ثم كثرت بعد ذلك الأصنام داخل الكعبة وخارجها ، حتى بلغ عددها ثلاثمائة وستون صنماً، يقول في ذلك سحنة بن خليفة الجرهمي :

ياعمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌ واحدٌ أبدا فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهلٍ سيصطفي دونكم للبيت حجابا[2]

وكان لكنانة صنم يسمى (سعداً)، وقد حدث أن جاءه رجل بإبله متبركاً، ولكن ماكان على (سعد) من دماء الأنصاب جعلت الإبل تنفر منه، وتفرقت وتشتتت، فانصرف صاحبها غاضباً من هذا الإله الذي لايضر ولا ينفع وهو يردد[3] :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وماسعد إلا صخرة لاهدى لها يرجى ولا تدعى لغي ولا رشد
وماسعدُ إلا صخرةٌ بتنوفة من الأرض لايدعو لغيّ ولا رشد

والتنوفة : هي الأرض التي تنعدم فيها الحياة؛ أي فلاة.

---

(١) اشعة الانوار على مرويات الاخبار: ١ / ٢٥ .

(٢) مروج الذهب: ١ /٢٦٨ .

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي: ١ /٢٦٨ .

وقد كثر عدد الأصنام حتى أصبح لكل قبيلة صنم، فنجد خزاعي بن عبد نهم قد أعلن ثورته وغضبه على نهم صنم بني مزينة بعد سماعه برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان يردد :

ذهبتُ إلى نهـم لأذبـح عـنده عنيزة نسكٍ كالذي كنت أفعلُ
فقلت لنفسي حين راجعتْ عقلها أهذا إله أبكم ليس يعقـلُ
أبيت فديني اليوم دين محمد وربي الإله الماجد المتفضل(١)

أما بنو حنيفة فكانوا يعبدون إلههم (حيس) قال الشاعر :

وإذا تكون كريهة أدعى لها وإذا بحاس الحيس يدعى جندب(٢)

والحيس هو تمر ينزع نواه ويدق مع أقط، ويعجنان بالسمن، ثم يدلك ويعجن باليد حتى يبقى كالشريد، وقد كانوا أُصيبوا بمجاعة في سنة من السنين، اضطرتهم أن يأكلوا إلههم الذي كانوا يعبدونه، وقيل فيهم :

أكلتْ حنيفةُ ربّها على التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربّهم سوء العواقب والتباعة(٣)

أما بنو غطفان فقد كانوا يعبدون العزّى، وهي شجرة تقع بوادي نخلة، الكائن شرقي مكة، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم سيفه المسلول خالد بن الوليد بقطعها عند فتح مكة المكرمة، فاستأصلها من جذورها وهو يردد :

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي : ١ / ١٧٤ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ١ / ٢٦٨ .

(٣) حياة سيد العرب : ٢٣ .

ياعزّ كفرانك لاسبحانك   رأيتَ الله قد أهانك[١]

يقول المنذر بن هشام : «وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم من الناس، وسموها بأسمائها على مابقي فيها من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل، هذيل ابن مدركة»[٢]، وقد شابهوا في ذلك قوم نوح، الذين كانوا أول قوم يعبدون الأصنام؛ لهذا كان نوح أول رسول من عند الله تعالى ينهى عن عبادة الأصنام، قال تعالى: **﴿وقالوا لاتذرنّ آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوقَ ونسرا وقد أضلوا كثيراً﴾**[٣].

فقد كان العرب يؤمنون بالله تعالى، وما كانت نذورهم التي نذروها، وماقربوا من القرابين، وماساقوا من هدي، ومازالوا يؤمون البيت الحرام حجاجاً محرمين ملبين لله تعالى إلا تقرباً لله الواحد الأحد، طلباً للشفاعة، وأملاً في الصفح والغفران، قال الله تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقُولُنَّ الله﴾**[٤].

ولقد عظم العرب الكعبة المشرفة حق تعظيم، وكانوا يزورونها ويقصدونها للحج والعمرة إيماناً ويقيناً منهم ان هذا هو بيت الله الحرام وحرمه في أرضه؛ فكانوا يقفون بعرفة، ويسعون بين الصفا والمروة، ويرمون الحجارة، ويطوفون سبعة الأشواط، ويقبلون الحجر الأسود. ومن مظاهر

---

(١) العصر الجاهلي : شوقي حنيف /٣٥.

(٢) كتاب الأصنام: ٩.

(٣) سورة نوح :٢٣.

(٤) سورة الزمر: ٣٨.

تقديسهم للكعبة المشرفة كسوتهم لها؛ فكانوا يكسونها الحلل والقباطي والوصائل ، وكانوا يسوقون الهدي إليها، وينحرون عندها، ويهدونها، يقول أمية بن أبي الصلت :

إني أعوذ بمن حجّ الحجيج له ... والدافعون لدين الله أركانا

مسلمين إليه عند حجّهم ... لم يبتغوا بثواب الله أثمانا

ودليل إليه عند حجَهم ... لم يبتغوا بثواب الله أثمانا[1]

ودليل احترام العرب للكعبة المشرفة قبل مبعث إبراهيم عليه السلام؛ أي قبل بنائه لها، أنّ قوم عاد أتوا إلى الكعبة المشرفة، وهي يومئذ ربوة عالية، وقد كانوا يدركون أن في هذا الموضع حرم الله تعالى، حيث تستجاب الدعوات، وعند هذه الربوة العالية أخذوا يدعون الله، ويطلبون السقيا من جدب ومحل كان قد أصاب أرضهم، ولكنهم انشغلوا بشرب الخمر، وانصرفوا إلى اللهو، وكان لزعيم العماليق مولاة تدعى (جارية)، أخذت تحذّرهم من سوء عاقبة أفعالهم بقولها[2] :

ألا ياقيلُ ويحك ثم فيهم ... لعل الله يمطرنا غماما

فيسقي أرض عاد إنّ عادا ... قد أمسوا لا يبيتون الكلاما

ولم تحظ الكعبة المشرفة بهذا التقديس والتعظيم والمكانة الرفيعة من قبل العرب فقط، بل نجد أن الأمم الأخرى قد عظّمت وقدست الكعبة المشرفة، فالفرس كانوا يحجون إلى البيت الحرام منذ قديم الزمان، وقد حكى لنا شاعرهم بعد إسلامه قصة ملك الفرس، وكيفية مسير قاصداً أرض الحجاز،

---

(١) بلوغ الأرب : ٢٥٤ .

(٢) الرحلة الحجارية : ١١٣ .

حتى أتى البيت الحرام، وأظهر عنده كل مظاهر الولاء والتقديس، بحجّه له، والطواف حوله، وذلك في قوله :

ومازلنا نحجُ البيت قدما ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسانُ بنُ بابك سار حتى أتى البيت العتيق قاصدينا
وطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروي الشاربينا[1]

ويقول آخر :

وزمزم الفرسُ على زمزمِ وذاك من سالفها الأقدم[2]

ويرجع سبب تقديس الفرس الكعبة المشرفة أنهم كانوا يعتقدون أن روح إلههم (هرمز) قد حلّت بها؛ لهذا كانوا يحجّون إليها، ويقربون لها القرابين، ويهدونها الهدايا .

وكذلك الهنود كانوا يجزمون القول، ويقطعون الشك باليقين، أن أحد آلهتهم، ويدعى (شبوه)، كان قد حج إلى البيت الحرام وبرفقته زوجته، وأن روحه قد حلت بالحجر الأسود، حتى إنهم كانوا يطلقون على مكة اسم (مكشيتا)، أو (موكششيشانا)، وهذه التسمية مستمدة من أسماء بيت الآلهة عندهم .

أما أسعد الحميري، وهو من أهل اليمين، ويرجع نسبه لقوم تبع، فقد أراد أن يغزو بلاد الحجاز، حتى يتمكّن من بيت الله الحرام، ويفرض سيطرته عليه، ولكنه مرض مرضاً شديداً وهو في طريقه إلى بلاد الحجاز،

---

(١) أديان العرب : ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٣٢ .

وحال المرض بينه وبين ماأراد ، فاستشار الكهنة والرهبان وأهل العلم، فأشاروا عليه أن يعدل عما نوى من أفعال شنيعة بالبيت الحرام، وأن يظهر كل أسباب الولاء والإجلال للكعبة المشرفة، وأن يذهب إلى مكة تائباً مستغفراً ومعظماً للبيت الحرام، فذهب حيث حرمُ الله في أرضه، وكسا الكعبة المشرفة، وذبح الذبائح، وأطعم الناس. وكان أول من جعل لباب الكعبة المشرفة الإقليد، وهو المفتاح أو القفل، وقال :

وكسونا البيت الذي حرّم اللهُ ... ملاء معضّدا وبُرودا
أقمنا به من الشّهر عشرا ... وجعلنا لبابه إقليدا
وخرجنا منه نؤمّ سُهيلا ... قد رفعنا لواءنا معقودا[1]

وتحكي سبيعة بنت الأجب قصة أسعد الحميري، وكيف أن الله أذلّ ملكه، وجعل يكفر عن ذنوبه بكسوتها وإطعام أهلها :

ولقد غزاها تبّع ... وكسا بنيتها الحبير
وأذلّ ربي ملكه ... فيها فأوفى بالنّذور
يمشي إليها حافياً ... بفنائها ألفا بعير
ويظلّ يطعمُ أهلها ... لحم المهاري والجذور
يسقيهم العسل المصفّى ... والرحيض من الشعير[2]

ولقد لخصت سبيعة بنت الأجب كيف أن الحميري قد كفر عن ذنوبه، وماأراد أن يقوم به من أفعال شنيعة، وذلك بكسوة الكعبة المشرفة بالحبرات اليمانية، وخلع نعليه إجلالاً وتقديساً لحرمتها، وذبح الذبائح لإطعام أهل

---

(١) أخبار مكة للنهروالي: ٣/ ٩٧ .

(٢) أديان العرب: ٢٩ .

مكة، وأعد لهم الشعير المصفّى لشرابهم، وكانت أفعاله هذه اعترافاً منه بحرمة هذا البيت الحرام.

وذكر السهيلي أن تبعاً عندما أخبره الأحبار والرهبان عن الرسول المنتظر الذي بشرت به كتبهم، ويسمى أحمد، قال شعراً:

شهدتُ على أحمد أنه رسولٌ من الله باري النّسم
ولو مُدّ عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عمّ
وجاهدتُ بالسيف أعداءه وفرّجتُ عن صدره كلّ همّ[1]

وعن هذه المحاولة التي عدل عنها أسعد الحميري يقول أبو طالب:

كاده تبع فيمن جندت حمير والحي من آل قدم
فانثنى عنه وفي أوداجه جارحٌ أمسك عنه بالكظم[2]

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن سب أسعد الحميري؛ لأنه أول من كسا الكعبة المشرفة بقوله: (لاتسبوا تبعاً فإنه كان أول من أسلم)[3]، وقد كانت هناك بعض المحاولات سبقت محاولة أسعد الحميري: «وكان بعض التبابعة قد سار إليه وأراد هدمه وتخريبه، فقامت دونه خزاعة فقاتلته أشدّ القتال، حتى رجع خاسراً. وأما تبع الثالث، فهو الذي نحر له وكساه، وجعل له غلقاً أقام عنده أياماً، ثم رجع إلى اليمن، وكان ذلك في عهد قريش»[4].

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ١٥٤.

(٢) أديان العرب: ٣٠.

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ٥/ ٢٣١.

(٤) تاريخ الكعبة المشرفة: ٣٠٩.

أما الصابئة وهم قوم من الفرس والكلدانيين، وكانوا يعبدون الكواكب، فقد كانوا يعتقدون أن الكعبة المشرفة بيت من البيوت المعظمة لديهم، ويبلغ عددها سبعة بيوت، وهي خاصة بزحل؛ لذا وجدت التقديس والاحترام عندهم. وكانت كل الديانات ، على أشكالها المختلفة، من مسيحية ويهودية وديانة وثنية، تجد متّسعا وبراحا داخل الكعبة المشرفة، فهنالك صورة السيدة مريم العذراء، وابنها عيسى عليهما السلام، ويعني هذا أن كل من يؤمن بالمسيحية ويدين بها يمكنه أن يمارس طقوسه الدينية وعبادته داخل الكعبة المشرفة، أما اليهود فنجد لهم بعض الصور والتماثيل تفسح لهم مجال التعبد بداخلها، ونصب الوثنيون آلهتهم وأصنامهم خارج الكعبة وداخلها، حيث كانوا يتقربون بها إلى الله تعالى، وكان لإبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل عليهما السلام تماثيل وصور منحوتة داخل جدران الكعبة المشرفة، وهذا دليل على اعترافهم بدين الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام.

وتتجلى مظاهر تقديسهم واحترامهم للكعبة المشرفة في الحلف والقسم بها، ولقد أكثر الشعراء الجاهليون من ذلك كقول زهير:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قريش وجرهم[1]

ويشير زهير بن أبي سلمي في قسمه هذا بحرمة بيت الله منذ الأزل، فقد طاف حوله في سالف الزمان أمم قديمة موغلة في القدم، كما أشار إلى قصة بناء الكعبة المشرفة في الزمان الأول.

وتناول الشعراء الإسلاميون المعنى نفسه، أو قد ساروا على نهج الشعراء

(١) شرح المعلقات السبع: ١٠٧.

الجاهليين نفسه في القسم بالبيت الحرام وبقية الشعائر المقدسة على الرغم من أن الشريعة الإسلامية قد نهت عن ذلك، فقد ورد في الحديث الشريف: (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)، فالإمام البرعي يقسم بالبيت الحرام، وماألحق به من أماكن مقدسة :

قسما بالبيت والركن الذي طاب تقبيلا ومسحا واستلاما[1]

وقال آخر[2] :

أقسم بالبيت ومن طاف به ومن نحا وجهته من نحا

وكلّ من أعمل لله الخطا محا بها من الخطايا ما محا

يقسم العدوي بالبيت الحرام الذي تحجه قريش، وتوقف الحجيج بجبل عرفة، إكمالا لحجهم ونسكهم، وذلك في قوله:

وأقسم بالبيت الذي حجت له قريش وموقف ذي الحجيج الآل[3]

وكانوا يدركون ويقرون أن لهذا البيت حرمة، لذا كانوا يعظمونها ويقدرونها حق قدرها، ومن دخل في حرمه فهو آمن من كل أذى، ولايتعرض إليه أحد بمكروه أو سوء.

حكى بعض العباد أنه قال : كنت أطوف بالبيت ليلاً، فقلت يارب : قلت: ومن دخله كان آمناً، فمن ماذا هو آمن، فسمعت من يكلمني ويقول: من النار، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد[4].

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ٣٠.

(٢) المرجع السابق نفسه: ١ /٣٠٣.

(٣) أديان العرب: ٢١.

(٤) الجامع اللطيف: ٥١.

وذكر الفاكهي «أن القاتل يدخل الحرم فيأمن فيه حتى يخرج منه فيقام عليه الحد»[١] وأورد أبو سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه صرف ولاعدل)[٢].

والصرف: إنفاق المال أو بذله، وأراد بالعدل المثل أو النظير، وورد قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿ ولايُقبلُ منها عدل ﴾[٣].

وذكر القرطبي في تفسيره للآية : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾[٤] قال: كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان، أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم[٥]. ولم يكن هذا الأمن مقصوراً على الإنسان فقط، الذي كرمه الله سبحانه وتعالى، بل شمل كل أنواع الحيوانات التي يحرم صيدها عند بيت الله الحرام، وبذا تكون في مأمن من شباك الصيادين، وتستمتع بالطمأنينة يقول جرير :

حورٌ حرائر ماهمّ من بريبةٍ   كظباء مكة صيدهن حرام[٦]

ويحدثنا شاعر آخر كيف أن الصيد محرم حول الكعبة المشرفة :

وانظر عروس البيت يجلى حسنها   للناظرين فلذ بها مستغنما

(١) اخبار مكة للفاكهي: ٣/ ٣٦٠.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٣/ ٣٦٠.

(٣) سورة البقرة: ١٢٣.

(٤) سورة الحج : ٢٥.

(٥) تفسير القرطبي: ١٢/ ٣٤.

(٦) ديوان جرير: ١.

فهي التي ظهرت فضائلهـا فـلا يخفى وهل يخفى سنا قمر السما
ومن العجائب أنهـا محروسـة والصيد فيهـا لايزال محرمـا
والطير لايعلـو علـى أركانهـا إلا ليشفـى إن غـدا متألمـا[1]

ويتناول الجرهمي المعنى نفسه مشيراً إلى أنّ كلّ الحيوانات صيدها محرم في وادي مكة، سواء كانت من الحيوانات الأليفة أو الوحشية:

وادٍ حـرامٌ طيـرهُ ووحشُـه نحنُ وُلاته فـلا نغُـشُّـه[2]

ويستمتع الحمام في الحرم المكي بالأمن والطمأنينة حداً جعله مضرب الأمثال، فيقولون:

(آمن من حمام الحرم)[3]، وقيل أيضاً: (آلف من حمام مكة)[4].

ويقسم رؤبة بن العجاج بحمام الحرم، ومايحظى به من أمن:

فـلا وربِّ الآمنـات القطـن بمحبس الهـدي وبيت السدن[5]

وله أيضاً:

وربِّ هذا البلـد المحـرّم والقـاطنات البـيت غـير الرزم
أوالفا مكة من ورق الحمي[6]

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/١٥٠٨.

(٢) المرجع السابق نفسه: ١/١٦٢.

(٣) كتاب جمهرة الأمثال العربية: ١/١٩٩.

(٤) المرجع السابق نفسه: ١/١٩٩.

(٥) ديوان رؤبه بن العجاج: ٥١.

(٦) المرجع السابق نفسه: ٢٧.

ولقد تحسر عمرو بن حارث الجرهمي، وأبدى أسفه، وحزن حزنا شديداً عندما أبعد من مكة ونفي منها مع قومه، وذلك بسبب فسادهم وطغيانهم، ولم يراعوا حرمات الله في أرضه، فقد نفوا من مكة حيث المشاعر الدينية المقدسة، وحيث يستمتع الإنسان والحيوان على حد سواء بالأمن والطمأنينة والاستقرار، فخرج باكيا وهو يردد :

فسحّت دموع العين تبكي لبلدة بها حرمٌ آمن وفيها المشاعر
وتبكي لبيت ليس يؤذى حمامه يظل به آمنا وفيه العصافرُ
وفيه وحوش لاترام أنيسة إذا خرجت منه فليست تغادر(١)

وقال رجل من بني عجل:

حرمٌ حرامٌ أرضها وصيودها والصيد في كل البلاد محلل(٢)

وقد شمل هذا الأمن النبات الكائن حول الحرم، فلا يجوز أن يقطع من شجر الحرم شيء إلا في بعض الحالات، وبعض أنواع من الشجر، فقد روى عباد بن جعفر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لايقطّ إلا الأخضران بعرنه، ومر ، يعني الأراك والسدرة)(٣).

وأخرج ابن ماجه في سننه عن صفية بنت شيبة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب عام الفتح فقال : (ياأيها الناس : إن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، لايعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا يؤخذ لقطعتها إلا منشد، فقال العباسي : إلا

---

(١) اخبار مكة للفاكهي: ١ /٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق نفسه: ١ /٢٩٨ .

(٣) اخبار مكة: ١ /٢٠١ .

الإذخر، فإنه للبيوت والقبور. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا الإذخر)[١].

والإذخر بكسر الهمزة : حشيشة طيبة الرائحة، يسقف بها البيوت فوق الخشب، كما يستعمل الإذخر لسد الفراغات التي تتخلل الفتحات، ويستعمل أيضاً وقوداً.

وفي التفسير أن الله سبحانه وتعالى حين قال للسموات والأرض: ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾[٢] لم يجبه لهذه المقالة إلا أرض الحرم، فلذلك حرمها الله؛ صيدها وشجرها وخلاها إلا الإذخر، فلا حرمة إلا لذي طاعة.

وكانوا لايقرون الظلم في حرم الله، وينهون الناس عن الإتيان به، ويردعون من تحدثه نفسه بارتكابه. وقد حذر رجل من الجراهمة عمرو بن لحي، ونهاه عن الفجور بوادي مكة، وقد سبقت الإشارة إلى أن عمرو بن لحي هو أول من جلب الأصنام إلى بلاد الحجاز وأدخل الوثنية بها[٣] فقال له واعظا ومحذرا :

ياعمرو لاتظلم بمكة إنها بلد حرام[٤]

كذلك نجد أن سبيعة بنت الأجب قد أوصت ابنها خالد بن عبد مناف أن ينتهي عن الظلم والفجور بمكة، وتذكره بحرمتها، وتحذره من سوء

(١) سنن ابن ماجه / كتاب المناسك، باب فضل مكة : ٢/ ١٣٠٨ حديث رقم ٣١٠٩.

(٢) سورة فصلت: ١١.

(٣) انظر الصفحة ١٠٦ من هذا الكتاب.

(٤) أديان العرب: ٢١.

العاقبة:

أبنيّ لاتظلم بمكة لا الكبير ولا الصغير
واحفظ محارمها ولا يغررك بالله الغرور
أبنيّ من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
ابنيّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
والله أمنها وما بنيت بعرصتها قبور
والله آمن طيرها والعصم تأمن في ثبير[1]

ومنهم من افتخر بالتمسك بالفضائل والبعد عن الرذائل امتثالاً لأوامر الله تعالى وخوفاً من غضبه وعقابه، كعمر بن الحارث:

ونحن ولينا البيت من بعد جرهم ونمنعه من كل باغ وظالم
ونمنعه من كل باغ يريده فيرجع منا عنده غير سالم
ونحفظ حق الله فيه وعهدنا ونمنعه من كلّ باغ وآثم
ونترك مايهدى به لانمسه نخاف عقاب الله عند المحارم
وكيف تريد الظلم فيه وربنا يصير بأمر الظلم من كل غاشم
فو الله لاينفك يحفظ أمره ويعمره ماحج أهل المواسم[2]

كذلك من مظاهر تقديسهم وتعظيمهم لهذا الحرم المقدس أنه لم يتجرأ أحد منهم أن يبني داراً له في نطاق دائرة الحرم؛ أي حوله، إلا ماكان في

(١) البداية والنهاية: ٢/١٥٣.

(٢) أخبار مكة للفاكهي: ٥/١٩٥.

عهد قصي بن كلاب، وقد مضت الإشارة[1] إلى أنه كان من أكبر زعماء قريش ويعدّ أول ملك قرشي، فقد أشار عليهم أن يبنوا مساكنهم حول الكعبة المشرفة، وكان رجلاً سياسياً محنكاً، وكان يرمي إلى هدف سياسي؛ أي أن تتوافر لقبيلة قريش كل أسباب القوة والمنعة والسيادة، فإذا بنوا مساكنهم حول الكعبة المشرفة لايجرؤ أحد على قتال قريش أو منازعتها في أمور السيادة والرياسة، اللتين كانت تستحوذ عليهما دون القبائل الأخرى، فقد كان قصي على علم تام بأن كل القبائل العربية تعظم الكعبة المشرفة، ولايجرؤ أحد على قتال قريش ماداموا مجاورين لحرم الله في أرضه، وأصبح تحاشي الظلم واجتنابه دستوراً وقانوناً يلتزم به الجميع، وإن كانت بعض التحرشات تظهر على السطح، وينتج عنها بعض الاعتداءات، كما كان من أمر زيد بن عمرو بن نفيل، وذلك عندما نبذ عبادة الأصنام، فاعتدوا عليه، فانشأ يقول:

لاهم إني محرم لاحلة   وإن بيتي أواسط الحلة

عند الصفا ليس بذي مضلة[2]

وقوله (إني محرم لاحلة)؛ أي إنني أسكن بالحرم، وليس بالحلة. ومن مظاهر احترامهم وتقديسهم لحرمة الحرم أنهم كانوا لايبيتون فيه بالليل، ولكن يقضون فيه أوقات النهار فقط.

وحتى يتمكن أهل قريش من الدفاع عن المظلوم والمستجير، أنشؤوا حلفاً سموه حلف الفضول، وهو الحلف الذي ذكره الرسول صلى الله عليه

---

(١) انظر الصفحة ٣٤ من هذا الكتاب.

(٢) أديان العرب: ١٨ - ٢١.

وسلم في بعض أحاديثه، وقال: (لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت)[١]، ويقول فيه الزبير بن عبد المطلب :

حلفت لنعقدنَ حلفاً عليهم — وإن كنّا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا — مقربة الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا — أباة الضيم نمنع كل عار[٢]

وله أيضاً في حلف الفضول :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا — أن لا يقيم ببطن مكة ظالمُ
أمرٌ عليه تعاقدوا وتوافقوا — فالجار والمظلوم فيهم سالمُ[٣]

ومن أحلافهم أيضاً حلف القسامة، وذلك عند التهمة بالقتل في حالة إثبات هذه التهمة أو نفيها.

وحاول الحارث بن حلزة أن يذكر قومه بما تعاهدوا عليه في حلف ذي المجاز، عندما بدت منهم بعض المحاولات للاعتداء على الآخرين، وذلك في قوله:

واذكروا حلف ذي أعجاز وما — قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ينـ — ـقض ما في المهارق والأهواء
واعلموا إننا وإياكم فيـ — ـما اشترطنا يوم اختلفنا سواء[٤]

---

(١) أخبار مكة للفاكهي: ٥/١٩٥.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٥/١٩٥.

(٣) اخبار مكة للفاكهي: ٥/١٩٥.

(٤) شرح المعلقات السبع: ٢٣٥.

وعلى الرغم من وجود هذه الأحلاف إلا أننا نجد أن أول بغي حدث بمكة بين جرهم وقطورا، وهم سادة مكة آنذاك، وكان على رأس جرهم مضاض بن عمرو، ويرأس قطورا السميدع، فقال مضاض بن عمرو في هذا الحدث:

ونحن قتلنا سيد الحي عنوة   فأصبح فيها وهو حيران موجع
وماكان يبغي أن يكون سواءنا   بها ملكا حتى أتانا السميدع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا   وعالج منا غصة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته   نحامي عنه من أتانا وندفع
وماكان يبغي أن يلي ذاك غيرنا   ولم يكن حيٌ قبلنا ثمَ يمنع
وكنا ملوكاً في الدهور التي مضت   ورثنا ملوكاً لاترام فتوضع(١)

واعترافا منهم بحرمة هذا البيت الحرام وتقديساً وتعظيماً لحرم الله في أرضه كانوا يخلعون نعالهم عند دخو ل الكعبة المشرفة، وكان أولّ من سن فيهم هذه السنة الحميدة الوليد بن المغيرة، وذلك بعد بناء قريش للكعبة المشرفة. ولكن حسب ماورد في قول سبيعة بنت الأجب، عندما وصفت أسعد الحميري ومحاولته التي لم تر النور، وكان يريد غزو الكعبة المشرفة، ورجع نادماً، أوضحت أنه دخلها حافياً غير ناعل، وذلك لإظهار تقديسه واحترامه في قولها:

يمشي إليها حافياً(٢)

---

(١) تاريخ الكعبة المعظمة باسلامه: ٣٠٣ - ٣٠٤..

(٢) انظر الصفحة ٤١ من هذا الكتاب.

وقد يكون تفسير هذا التناقض بين الخبرين أن أول من دخلها حافياً أسعد الحميري وذلك حتى يظهر أسفه، ويبدي ندمه على فكرته الآثمة، وماهمّ أن يقوم به تجاه حرم الله من أفعال منكرة وشريرة. ولكن أهل قريش لم يسايروه فيما فعل آنذاك، حتى ماكان من أمر هدم قريش للكعبة المشرفة، وإعادة بنائها، ودخول الوليد بن المغيرة غير منتعل، وجرت فيهم عادة بعد ذلك. وكان الحواريون قد خلعوا نعالهم قبل ذلك فيما رواه ابن الزبير: إن الحواريين خلعوا نعالهم حين دخلوا الحرم إعظاماً أن ينتعلوا فيه[١].

وخلع النعال عادة يدل على التعظيم والاحترام، وكان أول من طلب منه أن يخلع نعليه موسى عليه السلام، عندما خاطبه رب العزة والجلالة بقوله: ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طُوى ﴾[٢].

وكان البيت الحرام منذ الأزل يحتل مكانة دينية رفيعة بين جميع القبائل العربية على اختلاف ميولها وأهوائها ودياناتها، وكذلك نجده قد حظي بما يماثل هذه المكانة بين الأمم الأخرى؛ فقد كانت كل الشعوب المختلفة تعظمه وتقدسه، وارتفع شأن العرب بين الأمم، وشأن قريش خاصة بين القبائل العربية، وأصبحت مكة مركزاً تجارياً مهماً، وصار لقبيلة قريش الكلمة النافذة المؤثرة، واليد الطولى، التي تستطيع أن تبطش بها عند الحرب، وعندما تضطر إلى استعمال القوة، وهي ذات اليد التي تعطي الفقير وذي الفاقة.

---

(١) مخطوطة زبدة الأعمال: ٤٩.

(٢) سورة طه:١٢.

إضافة إلى الكيان السياسي القوي، الذي تمخض من مجاورة قبيلة قريش للكعبة المشرفة، أدى هذا الانتعاش التجاري والسياسي بمكة المشرفة إلى أن فكرت بعض الامم بغزو بلاد الحجاز طمعاً في خيراتها، وذلك لما تتمتع به من أسواق تجارية، أيام موسم الحج خاصة، مما جعلها مركزاً لكل المنطقة؛ إذ كان من طبيعة الموسم أن يفد إليه الناس من الأجناس المختلفة في البلدان المتنوعة، وكل من هؤلاء وأولئك يجلب معه ماتشتهر به بلده من بضاعة، فاصبحت مكة المشرفة سوقاً تجارية كبرى، تدرّ على أهلها الأموال الطائلة؛ لذا فكر بعضهم أن يسلبوا هذا المجد من أهل قريش، وأرادوا إيجاد النظير الذي ينافس الكعبة المشرفة، ظناً منهم أن قريشاً قد بنت الكعبة المشرفة للفت الأنظار واستقطاب الحجيج، وكان من مجموعة الذين فكروا في منافسة الكعبة المشرفة أبرهة الأشرم، الذي كان حاكماً على اليمن من قبل النجاشي ملك الحبشة، وأراد أبرهة الأشرم أن يكسب ود مولاه النجاشي ملك الحبشة ورضاه؛ لذا فكر أن يبني بيتاً بصنعاء، يضاهي بيت العرب الذي يقدسونه ويعظمونه بمكة ويحجون إليه كل عام، وقرر أن يكون بيت صنعاء على قدر عال من الجمال وزخرفة البناء وهندسة العمارة، وبذا يتفوق على الكعبة المشرفة في الحسن والجمال، حتى يتمكن من جذب حجيج العرب واستقطابهم، ولفت الأنظار إليه، وكان لأبرهة الأشرم ماأراد ، فقد بني بيته بصنعاء حبّاً في مولاه وتقرباً منه، وكيداً في العرب، وأطلق على بيته اسم القليس، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية إكليزيا، ومعناها الكنيسة، وجاء قليس أبرهة الأشرم بصنعاء آية في الجمال والفن المعماري الرفيع والزخرف البديع، الذي لم يسبقه إليه أحد، وصارت موضوع حديث

كل القبائل العربية وغيرها، وتناقلوا أخبار بيت الأشرم الحبشي، الذي بناه؛ ليضاهي به وينافس به بيت الله الحرام، الذي حرمه الله وأكرمه، وهنا ثارت حفيظة العرب وحمية الجاهلية فيهم، وماهدأت، ومارتاح لهم بال، حتى انتقم لهم رجل من بني فقيم، ذهب هذا الرجل الفقيمي وأحدث فيه، ولطخ جدرانه بعذرته.

وفي رواية أخرى: «أن سبب بعث أبرهة بالفيل إلى مكة أن ابن بنته أكسوم، ابن الصباح الحميري، خرج حاجاً، فلما انصرف من مكة نزل بكنيسة نجران، فعدا عليها ناس من أهل مكة وأخذوا مافيها من الحلي، كما أخذوا متاع أكسوم، فانصرف إلى جده مغضبا، فلما ذكر له مالقي بمكة من أهلها تألى بيمين أن يهدم البيت، فبعث رجلا من أصحابه يقال له شمر بن مقصود على عشرين ألفا من خولان ومعراء والأشعريين»[1].

ولم يترك أبرهة الحبشي العرب ينعمون ويهنئون بهذا الانتقام، وثارت حفيظته، وأقسم بصليبه أن يرد هيبة قليسه، وقرر أن يقود الحملة بنفسه إلى بلاد العرب، حتى يصل إلي كعبتهم التي يقدسونها ويعظمونها، ويحجون إليها، ويهدمها، وبذا يثأر لقليسه، ويرد له هيبته ومكانه الرفيع الذي أراده له، وكان الروم يمدون للأشرم الحبشي يد العون والمساعدة؛ لأنهم أرادوا قبل ذلك غزو بلاد الحجاز حتى يتمكنوا من السيطرة عليها وفرض نفوذهم، ولكنهم أخفقوا في تحقيق هذا الحلم، ووقفوا خلف الأشرم الحبشي، حتى يحقق ماعجزوا عنه، وكذلك ساند الفرس أبرهة في نواياه الشريرة، حتى يتمكن من غزو بلاد الحجاز؛ لأنهم أخفقوا في الماضي في

---

(١) إتحاف الورى: ١ / ٢١.

غزوها، فقد حالت وعورة الطريق وخطورته دون رغبتهم، ووقفت حجر عثرة دون تحقيق مطامعهم؛ لذا نجد أن الروم والفرس كانوا يرون في أبرهة الأشرم المعول الذي يستطيع أن يهدم بيت العرب المقدس، وبذلك يسلبون العرب مجدهم وتجارتهم الرابحة.

ويقول المؤرخ (واشنجتون أرفنج) عن أرض الحجاز وهجمات الغزو التي تعرضت لها : « ربما تدلنا دراسة أخلاق العرب وطبائعهم على الأسباب التي جعلت أحوال العرب ثابتة على مرّ الزمن. فقد كان وضعهم الجغرافي وصحاريهم القاحلة الواسعة تحميهم من الغزو، كما أدى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهم في الاستقلال الديني والسياسي إلى أن صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار »(١).

وقاد الأشرم الحبشي حملته الانتقامية بنفسه، على رأس جيش جرار مزود بالعدة والعتاد والفيلة على عادة الأحباش في حروبهم، وكان على رأس الفيلة فيله الذي يدعى محموداً، وكان فيلاً عظيم الحجم، وماصطحبه أبرهة في أي حرب من حروبه إلا كان النصر حليفه، وكان من ضمن الذين تبعوا أبرهة الحبشي والتفوا حوله نفر من بني خثعم، وكذلك نفر من بني منبه بن كعب، وكلاهما لم يكونا يعظمان الكعبة المشرفة حق تعظيم، فكانوا لايحجون إلى البيت الحرام كبقية القبائل، ولايحرمون الحرم كغيرهم، وخرجوا يتبعون الأشرم الحبشي وهم يرددون :

إن البلد لبلد ماكول ... يأكله علكٌ والأشعرون والفيل(٢)

(١) حياة محمد : ١٩ .

(٢) إتحاف الورى : ٢٠ .

أما بنو منبه فقد تبعوا أبرهة الأشرم، وكانوا لايقدسون البيت الحرام ولايؤدون شعيرة الحج ومناسكها، ونجد منهم من يقول مستهتراً بحرمة البيت الحرام، كالأسود بن مقصود:

يافرس أعدي به إذا سمعت التلبية[1]

وكان نفيل بن حبيب، وهو من بني خثعم، قد انضم إلى جيش الأشرم الحبشي وتبعه، وأسندت إليه مهمة إرشاد الحملة في الطريق الصحراوي الوعر، وهناك رجل آخر أرسله بنو ثقيف مع أبرهة الأشرم؛ ليكون هادياً ودليلاً له في طريقه، ويدعى أبا رغال، وينتهي نسبه إلى قوم ثمود، ولم يكمل أبو رغال مهمته؛ إذ أتاه اليقين والجيش في حدود منطقة المغمس، ودفن هناك، وصارت العرب ترجم قبره، وذلك استنكاراً واستهجاناً لفعلته الذميمة، وذلك بانضمامه لجيش الأشرم الحبشي، ويقول جرير في هجائه للفرزدق[2]:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال

وعندما علمت قريش بأخبار حملة الغزو الحبشية الانتقامية المتجهة إلى ديارهم أيقنوا وتأكدوا أنه لاحول ولاقوة لهم بمواجهة هذا الجيش الجرار، الذي أتاهم على ظهور الفيلة، ومزود بكامل العدة والعتاد، فلاذوا بالكعبة المشرفة، والتفوا حولها، واحتموا بها؛ ليستمدوا من حرم الله الأمن والطمأنينة، وصاروا يدعون ويتضرعون ويتوسلون إلى الله تعالى أن يصرف عنهم هذا البلاء. وكان عبد المطلب آنذاك سيد قومه وزعيمهم، وبيده كل

---

(١) كتاب المنمق في أخبار قريش: ٧٠.

(٢) ديوان جرير: ٤٢٦.

مقاليد الرياسة والحكم، فكان أكثرهم تضرعاً لله تعالى، ويسأله في إخلاص أن يخلصهم من هذا الخطر الذي لا حول ولا قوة لهم به، وعندما اشتد به الكرب والهمّ أمسك بحلقة باب الكعبة المشرفة، وهو يدعو ربه أن يصرف عنهم الصليبيين وينصرهم عليهم، ويخلصهم من بغيهم، وفجورهم ، وكان على يقين تامّ أن الله ناصرهم؛ لأنهم دعوا الله في بيته الحرام، حيث تستجاب الدعوات، فأخذ أبو طالب يردد:

لاهم إن العبد يمنـ ... ـع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ ... ـب وعابديه اليوم آلك
لايغلبنّ صليبهم ... ومحالهم أبدا محالك
وإن كنت تاركهم وقبـ ... ـلتنا تأمر مابدالك(١)

ومن تضرعه ودعائه كذلك قوله :

يارب لا أرجو لهم سواكا ... يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... امنعهم أن يخربوا قراكا(٢)

وقد مضت الإشارة(٣) إلى أن أبرهة قد بعث قائداً على الجيش نيابة عنه، رجلا يدعى شمر بن مقصود، فقد دعا عليه عبد المطلب بالخزي والخذلان، وهو يدعو الله تعالى ويتضرع إليه في قوله :

لاهم فاخز الأسود بن مقصود ... الأخذ الهجمة ذات التقليد
بين حراء وثبير فالبيد ... أخفرته ربّ وأنت المحمود

---

(١) إتحاف الورى: ١٨ .

(٢) المرجع السابق نفسه: ١٨ .

(٣) انظر الصفحة ١٤٢ من هذا الكتاب.

قد أجمعوا ألا يكون لك عيد ويهدموا البيت الحرام المعمود

والمروتين والمشاعر السود[١]

فقد أطلق لقب الأسود على قائد الحملة؛ لأن الأحباش تميل الوانهم إلى السواد، وقد يكون الغالب الأعم.

وأراد عبد المطلب أن يحذر أبرهة الأشرم من عواقب فعلته الشريرة هذه، وحكى له قصة تبع الحميري، وذلك من باب العظة والعبرة، عندما أراد فعل السوء بالبيت وهم به، وكيف أن الله بيَن له قدرته، وماأصابه من مرض جعله يعدل عن فكرته، فخاطبه قائلاً :

قلت والأشرم تردى خيله وإن ذا الأشرم غر بالحرم

كان تبَع فيمن جندت حمير والحي من آل قدم

فانثنى عنه وفي أوداجه جارح أمسك عنه بالكظم

نحن أهل الله في بلدته لم يزل ذاك على عهد أبرهم

إلى أن يقول :

إن للبيت لربًا مانعا من يرده بظلم يصطلم[٢]

فقد أوضح عبد المطلب الزعيم القرشي للقائد الحبشي أنهم أهل الله، وذلك افتخاراً بأنهم مجاورن الحرم الشريف، وأنهم يهنئون ويستمتعون بهذا الأمن، وذلك حالهم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وأن الله تعالى كفيل ببيته، وقادر على حمايته، وقادر على أن يردّ عنه الظلم والبغي.

---

(١) أخبار مكة للفاكهي: ٥/١٥٦.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٥/١٦٦.

وحملة الغزو الحبشي هذه، التي أطلق عليها حرب الفيل، أو حملة الفيل، قد كان لها أصداء واسعة داخل بلاد الحجاز وخارجها؛ فتناولها الشعرا ءبالوصف. فعندما سمع طرفة بن العبد بنوايا أبرهة الشريرة، وتصريحه بأن حملته سوف تسير إلى نجد بعد الفراغ من تهامة، وكان هو آنذاك بنجران، كتب إلى قتادة بن مسلمة هذه الأبيات :

من مبلغٌ عمرو بن هند رسالة فليت غُرابا في السماء يناديكا

فريقان منهم كعبة الله زائرٌ وآخر لم يقطع البحر آتيكا

بنجران ماأمضى الملوك أمورهم فلا أسمعن ماأقمت بواديكا(١)

لقد استجاب الله تعالى لتضرعات أهل قريش ودعائهم، فقد حمى رب البيت بيته الحرام من شرور الفاسقين، وجعل كيدهم في تضليل، فقد رفض محمود فيل أبرهة الحبشي أن يطاوعه في فعلته الشريرة هذه، وهو الفيل الذي طالما هزم الجيوش العوارم، وأنزل بكل عدو جبار هزائم شنيعة وخسائر فادحة، فكان كلما وجهوه نحو الكعبة المشرفة يلوي بوجهه عنها ويبرك على الأرض، بينما يهرول مسرعاً عندما يوجهونه نحو بقية الجهات الأخرى، ويصف قيس بن الأسلت حال الفيل بقوله :

ومن نعم الله أموالنا وأبناؤنا ولدينا نعم

ومن صنعه يوم فيل الحبو ش إذ كلما بعثوه رزم

محاجبهم تحت أقرابه وقد كلموا أنفه بالخزم

وقد جعلوا سوطه معولاً إذا يمموه قفاه كلم(٢)

---

(١) ديوان طرفه: ٥٠.

(٢) إتحاف الورى: ٤٣.

ويصف الصرصري منظر الفيل وهو بارك على الأرض بعد أن رفض أن يطيع أسياده بقوله :

إذ أبى الفيل ماأتى صاحب الفيل ولم ينفع الحجا والذكاء(١)

وتتجلى معجزة الخالق في رفض الفيل للانصياع لأوامر سيده الحبشي، الذي كان يعتمد عليه اعتماداً كليّاً لنصرته على أعدائه وإلحاق الهزيمة بهم. وأكثر الشعراء في وصف منظر الفيل، ويقول أبو الطفيل الغنوي في ذلك:

ترعى منابت وسمى أطاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيلُ(٢)

وبقيت حملة الفيل على مر الأزمان شاهداً على قدرة الله تعالى في حماية بيته الحرام، وتجلت معجزته عز وجل في العقاب الذي أنزله على الأشرم الحبشي وجنوده، ويحدثنا أبو قيس بن الأسلت عن نوعية العقاب الذي حلّ بهم، وكيفيته بقوله:

فأرسل من فوقهم حاصباً يلفهم مثل لفّ القرم

تحثُّ على الطير أجنادهم وقد ثأجوا كثؤاج الغنم(٣)

فقد كان عقابهم صغيراً في حجمه، عظيماً في قوته، ألا وهو طير الأبابيل التي كانت تحمل كلّ واحدة في منقارها حصاة غاية في الصغر، تقضي على من تصيبه، مما جعلت الجنود يصيحون ويحدثون أصواتاً

---

(١) المجموعة النبهانية: ١ / ٨١.

(٢) ديوان طفيل الغنوي: ٥٦.

(٣) إتحاف الورى: ١٨.

كثؤاج الغنم؛ أي كصوت الغنم.

ويذكر آخر حال الفيل بعد أن رفض أن يطيع صاحبه :

جاءوا به يقصدون البيت وهو به ثاوٍ فصدّهم عن قصده العطب(١)

ويشير ابن كثير إلى وصف هذه الطيور بروايات مختلفة: قال عنها ابن عباس : إنها لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، وقال عكرمة : كانت رؤوسها كرؤوس السباع، خرجت عليهم من البحر، وكانت خضراً ، وقال عبيد بن عمير : كانت سوداً بمر به في مناقيرها وأكفها الحجارة . وعن ابن عباس أيضاً: كانت أشكالها كعنقاء مغرب، وكان أصغر حجر منها كرأس الإنسان، ومنها ماهو كالإبل(٢).

وقد سجل القرآن الكريم حادثة الفيل في قوله عز وجل ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾(٣)، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **كيدهم في تضليل** ﴾، أي هدمهم الكعبة خسارة وهلاك، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾؛ أي كورق زرع أكلته الدواب وداسته وأفنته، ومفردها عصفة، يقول علقمة الفحل(٤):

تسقي مذانبُ قد مالت عصيفتها حدورها من أتي الماء مطموم

فقد لخص المولى عزّ وجل هذه الحادثة الكبيرة في خمس آيات بينات،

---

(١) المجموعة النبهانية: ١ / ٤١٩.

(٢) البداية والنهاية: ٢ / ١٦١.

(٣) سورة الفيل : ١ – ٥.

(٤) ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري: ٥٥ .

وحكت الآيات الكريمات قصة الفيل وأصحابه، وما لحق بهم من عذاب، مبينة نوع العذاب، وكيفية العقاب الذي حل بهم.

ولأهمية هذه الحملة المخفقة التي أظهرت مقدرة الله سبحانه وتعالى في حماية بيته الحرام ومجاوريه الذين استمدوا الأمن والقوة والعزة من مجاورتهم لهذا الحرم الآمن تبارى الشعراء في تخليد هذه المحاولة أو الحملة المهزومة اعترافاً منهم بقدرة الله سبحانه وتعالى، وتعظيما لبيته الحرام، فتناولها عمرو بن الوحيد بن كلاب بقوله:

سطا الله بالحبشان والفيل سطوة	أرى كل قلب واهيا وهو خائفُ
ويوم ذباب السيف كان نديره	ويوم على جنب المغمس كاسفُ
أميرهمُ رجلٌ من الطير لم يكن	نقافا لها بين الحجارة واكفُ
كأن شآبيب السماء هوية	وقد أشعلت بالمجلبين النفانف
تدقهم من خلفهم وأمامهم	وعارضهم فوجٌ من الريح قاصف
يخالسنهم أنفاسهم ونفوسه	ولم ينجُ إلا التابعون الرّوادفُ
شفاءٌ لو ثوى في عقابها	نفيلٌ وللآجال آتٍ وصارف[١]

وقوله المغمس هو موضع بالقرب من مكة، وقد مر بنا[٢] أن أبا رغال توفي ودفن في هذا الموضع، وكاسف؛ أي كان هذا اليوم قرب المغمس يوم هول وشدة، واستهزاء وسخرية بقائدهم، وصفه بأنه من الطير، ولم يكن يستطيع الضرب والقتال بالسيف، والمجلبين؛ أي الحبشة وجيشها، والنفانف

---

(١) كتاب المنمق: ٧٨.

(٢) انظر الصفحة ١٤٤ من هذا الكتاب.

المكان الذي يقع بين أعلى الأرض وأسفلها، ويدعو في آخر أبياته على نفيل الخثعمي، الذي تبع أبرهه الأشرم؛ ليدله الطريق، وجاء رد نفيل على ابن الوحيد[1]:

ماذا يريك عُقابي لو ظفرت به ... يا ابن الوحيد من الآيات والعبر
قلنا المغمس يوماً ثم ليلته ... في عالج كثؤاج النيب والبقر
حتى رأينا شعاع الشمس تستره ... طيرٌ كرجل جراد طار منتشر
يرميننا مقبلات ثم مدبرة ... بحاصبٍ من سواد الأفق كالمطر
وأشعل الجيش لاتلوي على أحد ... وعارضتنا زحوف الريح عن بسر
كبا لأذقاننا والريح تدبرنا ... لانتقي الشر من ريح ولاحجر
فزل منا شديد لاطباخ به ... ومات أكثر ذاك الجيش بالعسر
كأنهم نجلات الضان نائمةٌ ... والمتون من الحبشان كالدبر

لقد شهد نفيل الخثعمي المعركة، فهو يصور لنا واقعاً عايشه، وحربا دارت رحاها أمامه، بين جيش يمتطي ظهور الفيلة الحبشية الضخمة. وكان الطرف الآخر جماعات من الطير، وأشعل الجيش؛ أي تفرق وولى هارباً، والرجل الشديد صاحب القوة والبأس أصبح لا طباخ له؛ أي سلبت قوته وصار ضعيفاً. أما مصير الجيش كله فقد مات بالعسر؛ أي من شدة الضيق، وأصبح ما آل إليه أصحاب الفيل بقيادة زعيمهم الحبشي أبرهة مصدراً للتندر والعظة، وتناوله الشعراء مشبّهين حالهم في أشعارهم، كقول رؤبة بن العجاج:

(١) كتاب المنمق: ٧٨.

ومسّهم ما مس أصحاب الفيل ترميهم بحجارة من سجيل

ولعبت طير بهم أبابيل(١)

وأدلى أبو الفضل التونجي بدلوه في وصف حادثة الفيل، وكيف أن الله تعالى قد أكرم أهل مكة ورد السوء :

ماذا أقول وإن أسهبت في ملأ قد جاء في مدحهم وحي وتنزيل

لولاهم هدم البيت العتيق وقد وافاه قوم عصاة فيهم الفيل

عادوا وقد عاد في التضليل كيدهم وأرسلت فوقهم طير أبابيل(٢)

أما فيما يختص بتفسير الطير الأبابيل وحجارة السجيل فقد ذكر فؤاد علي رضا : «ويرى بعض المؤرخين أن الطير الأبابيل وحجارة السجيل كناية عن وباء اجتاح الجيش الحبشي»(٣) وبعد الهزيمة الشنيعة التي مني بها الجيش الحبشي، أنشد نفيل :

الا حييت عنا يا ردينا وقري بالإياب إليك عينا

فلو أبصرت والجيش يرمي بحسبان رثيت لنا ردينا

حمدت الله إذ أبصرت طيراً وسفي حجارة تسفي علينا

وأمطرنا بلا ماء ولكن عذاب نقيمة أردفن حينا

فكل الناس يسأل عن نفيل كأن علي للحبشان دينا(٤)

---

(١) ديوان رؤبة بن العجاج: ٣٩.

(٢) المجموعة النبهانية: ٣ / ٤٦.

(٣) أم القرى: ٢٢٦.

(٤) السيرة النبوية: ١ / ٩٣.

وقد وقفت قبيلة الأزد في وجه الأشرم الحبشي، ألحقت به الهزيمة بعد حرب ضروس دارت بينهما، وقد حكى شاعرهم عبد شمس بن مسروح الأزدي هذه الهزيمة بقوله :

نحن منعنا الجيش حوزة أرضنا ... وما كان منّا خطبهم بقريب
إذا مارمونا رشق أذب أتيتهم ... بكل طوال الساعدين نجيب
ومافتية حتى أفاتت سهامه ... ومارجعوا من مالنا بنصيب(١)

وكان الغرور والاستبداد قد تمكنا من نفس القائد الحبشي، وظن أنه سينال ما يشتهي وتتمناه نفسه، فطلب من الشعراء أن يسجلوا أفعاله في أشعارهم ويمجدوه حتى تتناقل الألسن سيرته، وبذا يرتفع شأنه بين القبائل، فيجد الحظوة والقبول من مولاه النجاشي، ثم من الملوك والحكام، وتعظمه الرعية، وتهاب أمره، وطلب من قيس بن خزاعي أن يقول فيه شعراً يرضي غروره وغطرسته، فأنشده قيس قائلاً :

حيّ المدام وكأسها ... للأشرم الملك الحلاحل
أنبئت أنك قد خرجت ... فقلت ذكرٌ غير خامل
أولاد حبشة حوله ... ملتحفون على المراجل
بيض الوجوه وسوده ... أشعارهم مثل الفلافل(٢)

وأراد بالملك الحلاحل؛ أي السيد المطاع في قومه.

وخاطب كلثوم بن عميس الملك المغرور بقوله :

---

(١) كتاب المنمق : ٤ .

(٢) كتاب المنمق : ٤ .

ألا ليت أن الله أسمع دعوة	وأرسل بين الأخشبين مناديا
أتتكم جموع الأشرم الفيل فيهم	وسود رجال يركبون السعاليا
ورجال جسام لايكت عديدهم	يهزون واللات الحراب الصواديا
أتوكم أتوكم تبشع الأرض منهم	كما سال شؤبوبٌ فأبشع واديا(١)

والأخشبان هما جبل أبي قبيس وجبل قيقعان، وقد مضت الإشارة إليهما، وإنهما كائنان بمكة المكرمة. وصف جنود الأشرم بالسواد، وأنهم يمتطون السعالي؛ أي الغول وأنهم يحملون حرابا صوادياً؛ أي متعطشة لإراقة الدماء وسفكها، حتى الأرض قد تضجرت وتضايقت من كثرة عددهم، وثقل عتادهم، وضخامة أفيالهم.

ويوضح ابن أيبك كيف أن أبرهة الأشرم أراد أن يهدم البيت الحرام بفيله محمود، ولكن جعل الله تعالى بقدرته كيده في تضليل؛ أي انقلب عليه خسارة وهلاكا، وأصبح الفيل وما أتى به من الأفعال مثالا لسوء الفال والتطير به، يقول الشاعر:

بالفيل رام خراب البيت مجتهدا	فكان فالا عليه ذلك الفيل(٢)

وكما مدحه بعض الشعراء من باب التكسب بالشعر، وحاولوا تخليد أفعاله القبيحة، وإلباسها ثوباً جميلا، حتى يرتفع شانه، نجد أن بعضهم قد هجاه وعيره بانه من قوم ياكلون الخصي، وهذا يعدّ مثلبة عند العرب، كذلك هجاه قيس بن خزاعة بأنه من قوم يعبدون الصليب، ويسجدون له،

(١) المرجع السابق نفسه: ٧٠.

(٢) المجموعة النبهانية: ٣/ ١٣٨.

وعبادة الصليب لا يدين بها قومه، بل يستذكرونها معتدّين بأنفسهم، فخاطبه قيس بقوله :

إن تكن من عود كريم نصابه ... فأنت أبيت اللعن أكرم من مشى

ونحن أبيت اللعن في دين قومنا ... فلا نعبد الصلب ولا نأكل الخصى(١)

والصلب : مفردها الصليب.

وخاطب طالب بن أبي طالب قومه مذكرا لهم بما حدث في حرب داحس والغبراء، ومشيراً إلى حادثة الفيل، وكيف أن الله تعالى قد كفاهم شرّ الأحباش، وقاتل عنهم ونصرهم على الملأ ببيته الحرام، وأعدائهم :

ألم تعلموا ماكان في حرب داحس ... وجيش أبي يكسوم إذ ملئوا الشّعبا

فلولا دفاع الله لانخشي غيره ... لأضحيتم لا تمنعون لكم سربا(٢)

لقد قاتل الله تعالى عن سكان الحرم ومجاوريه، ولولا ذلك لم يكن بإمكانكم أن تدافعوا عن قطعان الماشية، ولا حماية حريمكم، فالسرب في اللغة تعني القطيع من البقر أو الظباء، وتطلق على النساء، وتحدّث الفرزدق عن العقاب الذي أصاب أبرهة وجيشه بقوله :

رمى الله في جثمانه مثل مارمى ... عن القبلة البيضاء ذات المحارم

جنود تسوق الفيل حتى أعادهم ... هباء وكانوا مطرخمي الطراخم

نصرت كنصر البيت إذ ساق فيله ... إليه عظم المشركين الأعاجم(٣)

---

(١) كتاب المنمق : ٧٠.

(٢) بلوغ الأرب : ١ / ٢٥٢.

(٣) السيرة النبوية : ١ / ٩٨.

والمطرخم لغة تعني الشخص الممتلئ بالكبرياء والغرور مع حدة الغضب.

ووصف المؤرخ المسعودي ما آل إليه حال القائد الحبشي وجيشه الجرار بقوله: «فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب، ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر، مع كل طير ثلاثة أحجار، فاهلكهم الله عز وجل»(١).

وتناول المغيرة بن عبد الله المخزومي معجزة الخالق جلّ وعلا، وكيف أن الفيل محموداً قد شُلّت حركته عندما وجّهوه جهة البيت الحرام، فقد رفض وأبى أن يشارك القائد الحبشي فعلته الشنيعة هذه. ويروي ابن هشام أن نفيلاً الخثعمي قد أخبر الفيل، وهمس إليه في أذنه أنه في بلد الله الحرام، وسأله أن يبرك أو يرجع من حيث أتى(٢).

فقال المغيرة مصوراً هذا المنظر بقوله:

أنت حبست الفيل بالمغمس	حبسته كأنه مكردس
من بعد ماهم بأمر فجلس	بمحبس تزهّقت فيه الأنفس
وقت ثياب ربنا لم تُدنّس	ياواهب الحي الجميع الأحمس
ومـاهم من طارق ومنفس	وجارة مثل الجواري الكُنّس
أنت لنا في كل أمر مضرّس	وفي هنات أخذت بالأنفس(٣)

(١) مروج الذهب: ٢/١٢٨.

(٢) السيرة النبوية: ١/٩٢.

(٣) اخبار مكة: ١/١٠٤.

والجواري الكنس هي النجوم، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾[١].

والخنس هي الكواكب السيارة أو غير الثابتة.

ويشارك ابن أذينة الثقفي في وصف هذه المحاولة المخفقة بقوله:

لعمرك ما للفتى من مفرّ	مع الموت يلحقه مع الكبر
لعمرك ما للفتى عصرة	لعمرك ما إن له من وزر
أبعد قبائل من قبائل	أتوا ذات صبح بذات الصبر
بألف ألوف وحرابه	كمثل السماء قبيل المطر
يصم صراخهم المقربات	ينفون من قاتلوا بالدفر
سعالي مثل عديد التراب	تيبس منها رطاب الشجر[٢]

وصف جيش الأشرم بكثرة العدد، وأراد بقوله من حمير؛ أي من جهة بلاد اليمن؛ لأن الغزو أو سير الحملة كان من تلك الجهات، أما الوزر (بالتحريك) فتعني الملجأ، كقول الله تعالى : ﴿ كلا لا وزر ﴾[٣].

ويمكن القول إن حادثة الفيل قد خلقت حركة أدبية نشطة، وذلك لارتباطها بالمقدسات الروحية، وإظهاراً لقدرة الله تعالى، وتأكيداً لمعجزاته، فقد تبارى الشعراء والأدباء في وصف هذه الحادثة، وخلقوا منها موضوعاً ومحوراً تدور في فلكه قصائد عصماء، سجلوا فيها هذه الحادثة، فسجلها

---

(١) سورة التكوير: ١٥ - ١٦.

(٢) اتحاف الورى: ١ /٤٥.

(٣) سورة القيامة: ١١.

التاريخ في ذاكرته. فمثلا أميه بن أبي الصلت الذي اشتهر بنزعته إلى الوحدانية، فقد أكدت له هذه الحادثة المخفقة مقدرة الخالق وعظمته، وتجلى فيها صدق إيمانه ويقينه بمعجزات الله سبحانه وتعالى كقوله:

إنّ آيات ربنا ثاقبات لايماري فيهنّ إلا الكفور

خلق الليل والنهار فكلٌ مستبين حسابه مقدور

ثم يجلو النهار رب رحيم بمهاة شعاعها منشور

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور

لازما حلقة الجران كما قطـ ـر من صخر كبكب محدور

حوله من ملوك كندة أبطالٌ ملاويث في الحروب صقور

خلّفوه ثم ابذعروا جميعا كلهم عظم ساقه مكسور

كلّ دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية بور(١)

يشير ابن الصلت إلى دلائل قدرة الله تعالى ومعجزاته البينة، التي لا ينكرها غير الجاحد الكافر.

والمرية هي الشك، ومن معجزاته، تعاقب الليل والنهار، والشمس التي تضيء بالنهار، فتنقشع ظلمة الليل، والمهاة اسم من أسماء الشمس.

كذلك من معجزاته أن الفيل محموداً تسمّر في ذلك الموضع الذي يقال له المغمس، وقد سبقت الإشارة إليه(٢)، فلم يستطع حراكاً، والجران: حلق البعير، واستعاره للفيل، وهي صفة العنق، ومنه قولهم في المثل: (فوضى

---

(١) بلوغ الارب: ١ / ٢٦٠.

(٢) انظر الصفحة ١٤٤ من هذا الكتاب.

ضاربة بجران)[١] ومنه قول الآخر:

ومن ير عـــيني جـــعـــفـــرٍ وجـــران   وجـــبـــينه يعلم أنه نمـــيـــر ثائر[٢]

وأراد الشاعر أن يقول : إن الفيل ألقى بعنقه إلى الأرض، كما تنحدر الصخرة من أعلى جبل كبكب، وجبل كبكب جبل طويل يحيط بسهل المغمس من الشرق، وعلى جهة اليمين من عرفة، ويقع في سوق ذي المجاز، ويذكر نصيب جبل كبكب بقوله :

ومالي بذكر العـــامـــرية مغرمـــا   بدا الدهر أو تنزاح أركان كبكب[٣]

والأبطال الملاويث هم الأبطال الشرفاء في قومهم، أصحاب الرأي السديد، فقد كانوا من حول هذا الفيل، ولكن عندمانزل غضب الله تعالى، وجاء عقابه، إيذعروا أي تفرقوا وتشتتوا من حوله، وكسر عظم الساق كناية عمّا أصابهم من العذاب الذي تمثّل في تقطيع أوصالهم، وتفتت أكبادهم. ويختم قوله بأن كل دين عدا دين إبراهيم الخليل عليه السلام فهو هالك ولا صلاح فيه.

وحتى لايستهين الناس بحرمات الله تعالى وبيته الحرام الذي حرمه يوم خلق السموات والأرض وضع عبد الله بن قيس الرقيات عاقبة من يريد البيت الحرام بسوء أو يهم بفعل من هذا القبيل، وذلك في قوله :

كـــاده الأشـــرمُ الذي جـــاء بالفـــيـل   فـــولّى وجـــيـــشـــــــه مـــهـــــزومُ

واســتــهـلّت عليــهـم الطيـــر بالجنـــ   دل حـــتى كـــأنـــــــه مـــرجـــــوم

---

(١) معجم الأمثال العربية: ١ / ١٢٥.

(٢) كتاب الأغاني: ١ / ٣٨٠.

(٣) ديوان نصيب بن رباح: ٣٩.

ذاك من يغـــزه من الناس يرجع وهو فلّ من الجيـــوش ذميم(١)

ولبرهان الدين القيراطي :

وصد أبرهـــة برهـــانه فغـدا للفيل عن قصد بيت الله تجفيل

وطالما قـد رأى للطيـر حين علت على عساكره بالرجم تقتيل(٢)

لقد شبه قتل جند أبرهه بالحجارة التي تلقيها عليهم الطير من فوقهم بمنزلة الرجم.

وقد كان للحملة جوانب إيجابية متعددة على القبائل العربية عامة، وعلى قبيلة قريش خاصة، فمن أهم نتائج حملة الفيل المهزومة بقيادة الأشرم الحبشي أنها قطعت الطريق الذي من خلاله كانت النصرانية تتمكن من الدخول لبلاد الحجاز، بل قضت عليها تماماً في جزيرة العرب، فلو كتب الله تعالى النجاح لهذه المحاولة المهزومة لتنصّر عرب الحجاز عن بكرة أبيهم طوعاً أو كرها، ولانصرف الحجيج وزوار بيت الله الحرام إلى كنيسة أبرهه الأشرم بصنعاء، ولكن عناية الخالق ورحمته التي وسعت كل شيء قد أنقذت أهل الحجاز وكفتهم شرّ الصليب وعابديه، وحمى الله تعالى بيته الحرام، وأكرم مجاوريه، وارتفع شأن القرشيين بين القبائل، وذاع صيتهم بأن الله تعالى قد قاتل عنهم، وردّ كيد الغزاة ودحرهم.

كذلك من النتائج الإيجابية لإخفاق هذه الحملة أن قبيلة قريش والقبائل الأخرى ازدادوا تمسكاً والتفاتاً حول الكعبة المشرفة، وبذلك شرّف الله

---

(١) السيرة النبوية: ١/١٠٣.

(٢) المجموعة النبهانية : ٣/١٠٣.

تعالى وأكرم من سبق في علمه أنهم سيكونون قوم خاتم رسله وأنبيائه، وهكذا مهّدت حملة الفيل الطريق إلى الرسالة المحمدية.

أما الأهمية التاريخية لحملة الفيل فقد صار العرب يؤرخون أحداثهم بهذه الحادثة، حتى إن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت سنة خمسمائة وسبعين من عام الفيل، يقول عمر بن فهد : «فكانوا يؤرخون في كتبهم ودواوينهم من سنة الفيل، فلم تزل قريش والعرب بمكة جميعاً تؤرخ بعام الفيل، ثم أرخت بعام الفجار، ثم أرخت ببنيان الكعبة، فلم تزل تؤرخ به حتى جاء الإسلام فأرخ المسلمون من عام الهجرة»(١). وقبل حملة الفيل كانوا يؤرخون أحداثهم بالحدث العظيم الذي يحدث خلال السنة. ويذكر ابن كثير : «حتى إن حادثة الفيل نفسها كانت أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين»(٢) ، وهذا يعني أن المؤرخ منهم كان يربط مايريد أن يؤرخه بأحداث أو أمور عظام، فقد أرخ نابغة بني جعدة بما كان في زمانه من داء أو مرض:

فمن يك سائلا عنّي فإني ... من الشبان أزمان الخُنان(٣)

والخنان بضم الخاء : داء يصيب عادة الأنف، مثل الزكام ونحوه.

وربط آخر التاريخ بالحرب التي قام بها همام على بني خثعم :

وما هي إلا في إزار وعلقة ... مغار ابن همام على حيّ خثعم(٤)

---

(١) إتحاف الورى: ١ /٤٥

(٢) البداية والنهاية: ٢ /١٦٢.

(٣) شعر النابغة الجعدي : ٧٩.

(٤) تاريخ الطبري: ٢ :٣ .

أما الربيع بن ضبع الفزازي، فقد أرجع تاريخ مولده إلى عهد حجر وزمانه، وهو والد امرئ القيس :

ها أنذا آمل الخلود وقد   أدرك عقلي ومولدي حجرا
أبا امرئ القيس هل سمعت به   هيهات هيهات طال ذا عمرا[1]

وأول من أمر بالتاريخ في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

وأثبت القرآن الكريم بالدليل القاطع في سورة الفيل هذه الحادثة التي ظلّت منذ الأزل شاهداً وبرهاناً على معجزة الخالق، فإذا لم ينطق بها القرآن الكريم كان ماورد من ذكرها في أشعار الجاهليين وماأثبتته كتب السير والأخبار دليلاً قاطعاً على مقدرة الخالق سبحانه وتعالى، وإكرامه لبيته الحرام ومجاوريه، الذين أراد الله لهم، وكتب في علم غيبه، أنه سيكون منهم رسوله المنتظر للعالم كافة.

لم تكن محاولة الأشرم الحبشي المحاولة الوحيدة، ولكنها اشتهرت أكثر من غيرها من المحاولات الأخرى؛ لأنه لم يكن يريد تحويل قبلة الناس إلى اليمن فحسب، بل أراد هدم الكعبة المشرفة؛ لذا كانت فعلته أنكر وأشد فجوراً.

وكان هناك بيت آخر يقوم بأمره رجل يدعى (رباح بن ظالم) ينتهي نسبه لبني غطفان عزم العزم على أن يغير وجهة حجيج العرب وزوار بيت الله الحرام، ويصرفهم عن الكعبة المشرفة، فبنى بيتاً شبيهاً بالكعبة المشرفة وبالمقاسات نفسها، ووضع فيه مايماثل الصفا والمروة ويشبههما، ولكن لم

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٤ .

(٢) المرجع السابق نفسه: ٤ .

يتم له مراده، فقد ثارت حفيظة العرب وحمية الجاهلية فيهم، وأنكروا هذه الفعلة النكراء، ولم يهدأ لهم بال حتى هدمه زهير بن جناب الكلبي وقتل سادنه، وهكذا انتهى أمره وشانه[١].

وكان لبني جهينة محاولة أخرى شبيهة بتلك التي ابتدعها رباح بن ظالم فقد عزم عبد الدار بن جديب[٢] أن يبني مايفوق الكعبة المشرفة في الجمال وفن المعمار وزخرفة البناء، ظنا منه أنه يستطيع بذلك أن يحيل بيته قبلة الحجيج وملفت الأنظار، فيأتيه العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية حجاجاً ومعتمرين، وبذا يرتفع شأن بيته وينال حظاً من التقديس والتعظيم كما تحظى الكعبة المشرفة بتقديس العرب وتعظيمهم . ولكن نفر أهل الحجاز عن بيته وعافته نفوسهم، ونفروا منه، واستنكروا ذلك منه، وقال شاعرهم :

ولقد أردت بأن تقام بنية ... ليست بجوب أو تطيف بمأثم
فأبى الذين إذا دعوا لعظيمة ... راغوا ولاذوا في جوانب قودم
يلحون أن لايؤمروا فإذا دعوا ... ولوا وأعرض بعضهم كالأبكم[٣]

العادات والتقاليد :

ومن عادات العرب الذميمة في جاهليتهم أنهم كانوا يمسحون الكعبة المشرفة بدماء الإبل ويضمخونها بلحومها، وبمجيء الإسلام رأى المسلمون أنهم أولى بذلك من أهل قريش، فنزل قوله تعالى: ﴿**لنْ ينالَ اللّهَ لحومُها**

---

(١) أديان العرب : ٣٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٣٧

(٣) المرجع السابق نفسه : ٣٧

ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[1].

أما ماأخذوه من دين الحنيفية، ولم يبدلوا فيه، ولم يحرفوه، فهو تحريم الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وتتجلى مظاهر تقديسهم وتعظيمهم لهذه الشهور بوضع السيوف في أغمادها، فليس هناك حرب ولا إغارة، ولايخشى أحد من الناس أحدا، وفلسفتهم في ذلك حتى يأمن حجيج بيت الله الحرام وزواره وصولهم إلى مكة المشرفة بسلام دون أن يتعرضوا لأي أذى من قطاع الطرق، وكذلك عند عودتهم إلى ديارهم، ويكونوا مطمئنين على من تركوا خلفهم من العشيرة والولد، قال تعالى: **﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام ﴾**[2] وكذلك قوله تعالى: **﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌ عن سبيل الله ﴾**[3]، ولقد استنكرت قريش الحروب التي وقعت في الأشهر الحرم وأطلقت عليها حرب الفجار، يقول خداش ابن زهير العامري :

فلا تدعيني بالفجار إنه   أحل ببطحاء الحجاز المخازيا[4]

وكان النسيء من عاداتهم، وهو تحريم شهر من الأشهر الحرم في عام ما، ثم يحلونه في عام آخر، والنساؤون كانوا يسمونهم القلامس، وهم جماعة من بني كنانة، ويقول شاعرهم عمير بن قيس مفاخراً بفعلتهم الشنيعة

---

(١) سورة الحج: ٣٧.

(٢) سورة المائدة: ٩٧.

(٣) سورة البقرة : ٢١٧.

(٤) الرحلة الحجازية: ١١٨.

هذه:

ألسنا الناسئين على معدّ   شهور الحلّ نجعلها حراما[١]

وقد تضمنت سورة التوبة آيات بينات بتحريم النسيء، قال تعالى: ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاما**﴾[٢].

وأدركوا بالفطرة مبادئ الطهارة وأبجدياتها، فما أبقوا عليه من تعاليم إبراهيم الخليل عليه السلام، كالمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والفرق، والسواك، وكذلك الاستنجاء، والختان، والغسل من الجنابة. وأمن القرآن الكريم على هذه العادات الحميدة، يقول الله تعالى موضحاً أهمية الغسل من الجنابة؛ لأن الطهارة عماد كل العبادات: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنت جُنُباً فاطّهّروا** ﴾[٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً**﴾[٤].

واهتدوا بفطرتهم إلى تفريق الفراش عند الحيض، وكذلك إذا حاضت المرأة وجب عليها أن لاتقترب أو تدنو من الكعبة المشرفة، حتى الأصنام لايسمح لها التمسح بها، قال تعالى تثبيتاً لعرفهم هذا، وهو تفريق الفراش

---

(١) السيرة النبوية: ١ / ٨٤.

(٢) سورة التوبة: ٣٧.

(٣) سورة المائدة: ٦.

(٤) سورة النساء / ٤٣.

عند الحيض : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النّساء في المحيض ولاتقربُوهُنَّ حتى يَطهُرن فإذا تطهرن فأتُوهُنَّ من حيث أمركُمُ اللّه إنَّ اللّه يُحبُّ التّوابين ويُحبُّ المتطهّرين﴾(١).

وكانوا يغسلون موتاهم، ويصف الأفوه الأودي غسلهم لموتاهم بقوله :

ألا عللاني واعلما أنني غرر — فما قلت ينجيني الشقاق ولا الحذر
وماقلت يجديني ثوابٌ إذا بدت — مفاصل أوصالي وقد شخص البصر
وجاءوا بماء بارد يغسلونني — فيالك من غسل يتبعه غير(٢)

أما صلاتهم على موتاهم فكانت تعني تعديد مناقب الميت ومحاسنه، ويصف لنا شاعر جاهلي كيفية صلاتهم على موتاهم بقوله :

أعمرو إن هلكت وكنتُ حيّا — فإني مكثر لك من صلاتي
وأجعل نصف مالي لابن سام — حياتي إن حييت وفي مماتي(٣)

ومن عاداتهم الاحتفال بيوم عاشوراء؛ إذ يمثل هذا اليوم مكانة خاصة محببة في نفوس الجاهليين، ومحببة لديهم، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، ففي هذا اليوم يظهرون كل معاني الإجلال والتقديس للكعبة المشرفة، ويتمثل هذا الاحتفال في كسوة الكعبة المشرفة، وذلك تقديساً وتعظيماً لها. وقد أصبح صوم يوم عاشوراء سنة متبعة فيهم، وذلك شكراً للخالق وحمداً له، وقد فعل بنو هاشم ذلك، وكانوا يعلقون عليها القميص والديباج يوم التروية، وإذا جاء يوم عاشوراء علقوا عليها الإزار. واستمر

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢.

(٢) بلوغ الأرب : ٢ / ٢٨٨.

(٣) المرجع السابق نفسه : ٢ / ٢٨٨.

الحال كذلك بعد الإسلام؛ إذ يتم وضع الستور الجديدة على الكعبة المشرفة في يوم عاشوراء، خطب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : (هذا يوم عاشوراء يوم تنقضي السنة وتستر الكعبة)(١).

وذكر الطبري أن اليوم الذي رست فيه سفينة نوح على الجودي كان يوم عاشوراء، وقد صامه نوح ومن معه في السفينة حتى الوحوش، وذلك شكرا لله عز وجل، وجاء في التنزيل العزيز ﴿ **يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾(٢).

وهو كذلك اليوم الذي نصر الله فيه نبيه موسى عليه السلام وأخاه هارون على فرعون وسحرته، عندما خاطبوه بقوله: ﴿ **إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى** ﴾(٣).

ومن أهم العادات والتقاليد في العصر الجاهلي ماكان يعرف بالرفادة والسقاية ؛ فقد ورث أهل الجاهلية هاتين الخصلتين من قصي بن كلاب، الذي اجتمعت لديه كلّ مقاليد الرياسة والسيادة وأسبابها كما مر بنا، فقد تزعم رئاسة دار الندوة، وكان مسؤولاً عن اللواء، وحجابة البيت الحرام، والرفادة ، والسقاية. الرفادة تعني إطعام حجيج بيت الله الحرام وزواره، فقد أمر قصي بن كلاب القرشيين بجمع جزء معلوم من أموالهم حتى يصنعوا منه طعاماً للحجيج، وذلك إكراماً لضيوف الرحمن، الذين لم يكونوا في سعة من رزقهم.

(١) الكعبة المشرفة: ٢٩٣.

(٢) سورة طه: ٥٩.

(٣) سورة طه: ٦٥.

كذلك أمر الزعيم القرشي ببناء حياض من الطين بساحة الكعبة المشرفة أو حواليها، وكانت هذه الحياض تملأ بالماء حتى يشرب منها الحجيج، وهكذا كان قصي بن كلاب أول من نادى بإطعام حجيج بيت الله الحرام، وتكفل بأمر سقايتهم. روى ابن إسحاق : «أن قصياً قال : يامعشر قريش، إنكم جيران الله وأهل مكة أهل الحرم، وأن الحجاج ضيوف الله وزوار بيته، وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، وكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى حتى ينقضي الحج»[1].

ومازال الجاهليون على هذه السنة الحميدة، فقد أورث قصي ابنه عبد مناف السقاية والرفادة، حتى انتهى الأمر إلى عبد المطلب، وماكان من أمر الإلهام الإلهي ومارآه في منامه من قصة إعادة حفر زمزم، وذلك إكراماً له، ثم آل الأمر بعده إلى ابنه العباس، واستمر على تلك الحال حتى بزوغ فجر الإسلام. وكان دخوله صلى الله عليه وسلم مكة المشرفة فاتحاً وقال :(ألا إن كلّ دم أو مال أو مأثرة كانت في الجاهلية من تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة الكعبة، فإني قد أمضيتهما لأهلهما على ماكانت عليه في الجاهلية)[2] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : «لم يرخص رسول الله لأحد أن يبيت ليالي منى بمكة إلا للعباس بن عبد المطلب من أجل

---

(١) البداية والنهاية: ٢ / ١٩٢.

(٢) تاريخ الكعبة: ٣١٧.

سقايته»[1] ، وقد استمرت الحال كذلك على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وقد أسس معاوية بن أبي سفيان في عهد خلافته دار المراجل، حيث يعدّ فيها ويجهز طعام الحجيج وزوار بيت الله الحرام في أيام الموسم وشهر رمضان.

وقد سبقت الإشارة[2] إلى أن أمر الحجابة كان معقوداً في بني عبد الدار، حتى كان يوم فتح مكة المشرفة أراد العباس بن عبد المطلب أن يجمع بينها وبين السقاية، فنزل قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ [3] عندئذ دفع الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان بن طلحة مفتاح الكعبة المشرفة، قائلاً : «خذوها يابني طلحة بأمانة الله ورسوله، واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة، لاينزعها من أيديكم إلا ظالم»[4].

وذهب المحب الطبري إلى أن : «الحجابة منصب بني شيبة ولاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها كما ولى السقاية للعباس» [5].

ويمكن القول إن معتقدات العرب الدينية في جاهليتهم قد اختلطت وامتزجت مع عاداتهم وتقاليدهم في بعض الأحيان، وذلك لأن الدين لم يكن مفروضاً عليهم، بل كان إرثاً من بقايا تعاليم دين إبراهيم عليه السلام، وهذا الإرث قد تعرض لعوامل النسيان والتحريف والتعديل في

---

(١) اخبار مكة للازرقي: ٢/٥٨ - ٥٩.

(٢) انظر الصفحة ١٤٤ من هذا الكتاب.

(٣) سورة النساء: ٥٨.

(٤) اخبار مكة للفاكهي: ٢/ ٢٨٠.

(٥) المرجع السابق نفسه: ٢/ ٢١.

بعض الأحيان، وذلك لبعد الشقة وتقادم العصور والدهور.

المبحث الثاني
الوقوف بعرفة
وبقية أعمال الحج

كانت القبائل العربية في عهد جاهليتها، وقبل فرض الحج عليهم، تجتمع في أماكن مختلفة، فكان أهل الشمال يجتمعون ببدر ومجنة، ويقعان بالقرب مس الظهران، وكان أهل الجنوب يلتقون بذي المجاز، وأهل الشرق في عكاظ، التي اشتهرت بسوقها حتى حلّ سوق مكة وعرفة محله، وكانوا في اجتماعهم هذا يقيمون الندوات الأدبية، حيث يتبارى الشعراء. وكانت هناك مجالس للتحكيم، تشهد الفصحاء والبلغاء والأدباء منهم، وكانت اجتماعاتهم بمنزلة مؤتمرات صغيرة يدعون فيها إلى مكارم الأخلاق، كذلك كانوا يعقدون في هده اللقاءات الصفقات التجارية الرابحة.

كان الجاهليون يقفون بعرفة في حجهم، وهم يقرّون أنها من المشاعر الدينية، ولا يكون كمال الحج وتمامه إلا بالوقوف عليها، وكان وقوفهم في اليوم التاسع من ذي الحجة.

وسميت عرفة بعرفة؛ لأن جبريل عندما أتى إلى إبراهيم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ليريه أعلام عرفات، التي كان إبراهيم الخليل قد عرفها من قبل ذلك ، فكان الروح الأمين يسأله عرفت، فيرد عليه خليل الرحمن عرفت، ومن هنا أطلق عليها اسم عرفات، أو كما جاء في أنوار التنزيل سميّ الموقف عرفة لأن آدم وحواء التقيا فيه. فعرفات مكان المعرفة والمناجاة والدعاء، فقد سبق أن ناجى موسى ربه على جبل الطور، وسعدَ

بعطايا ربه ونواله، فنجد التشبيه بين حال الحجيج وموسى الكليم عليه السلام. كما شرف هذه الأمة ولم يفتها شيء مما شرعه لأنبيائه، بل زاد خاتم أنبيائه وخصّه من دونهم بأشياء كثيرة، وقد أقسم كثير من الشعراء بموقف الحجيج بعرفة يقول العدوي:

وأقسم بالبيت الذي حجّت له قريشٌ وموقف ذي الحجيج(١)

الآل هو جبل عرفة. وذكره نابغة بني ذبيان بقوله:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ

بمصطحباتٍ من لصافٍ وثبرة يزرن الآل سيرهن التدافع(٢)

وعندما أراد النابغة الاعتذار للنعمان حلف له بما يقدمونه من نذور لآلهتهم، ولم يغفل أن يشير إلى جبل الآل، فقد كانوا يعتقدون فيه ويقدسونه، فهم يحجون إليه، ويقفون عنده إتماماً لنسكهم وحجهم:

فلا عمرو الذي حجت إليه قريش قاصدين الال

لما أغفلت شكرك فانتصحني وكيف ومن عطائك كل نائل(٣)

ويسجل لنا أبو طالب في لاميته وقوف الحجيج في الجاهلية بعرفة:

وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له إلال إلى مفضى الشراج القوابل(٤)

فالمشعر الأقصى هو عرفة، وإلال جبل بعرفة، والشراج جمع، ومفردها

---

(١) أديان العرب: ٦٩.

(٢) ديوان النابغة الذبياني / ٨١.

(٣) نفس المرجع السابق / ٨١.

(٤) السيرة النبوية: ١.

شرج، وهو مسيل الماء، ومفضي الشراج؛ أي مجمعها في مجرى واحد، والقوابل مايقابل بعضها بعضاً.

وعندما تقول العرب وقفنا بالجبال يعنون جبال عرفة، ولا يخصّون غيرها من الجبال، ويذكر كثير عزة الجبال؛ أي جبال عرفة بقوله:

ياخليلي الغداة إن دموعي ... سبقت لمّ طرفها بإهمال

ثم تأمل وأنت أبصر مني ... هل ترى بالغيم من أجمال

قاضيات لبانة من مناخ ... وطواف وموقف بالجبال(١)

واللبانة هي الحاجة، ومايؤكد أنه قصد بموقف الجبال جبل عرفه ذكره للطواف.

وقال شاعر آخر يذكر جبال عرفة:

أما والذي عجوا إليه ثم كبروا ... على الجبل شتى في صفوف القبائل

لهم ضجة حتى إذا الشمس أسرعت ... على الفجر طلوعا خفاف الدمائل(٢)

وقد ترك الحمس، وهم نفر من قريش، الوقوف بعرفة على الرغم من اعترافهم وإقرارهم بأنها من مناسك الحج وشعائره التي جاءت في شريعة إبراهيم عليه السلام، وكانوا قد سلكوا هذا المسلك الذي ابتدعوه؛ لأنهم أهل الحرم وساكنيه، وكانوا يعتقدون أن أهل الحرم أرفع شأناً وأعلى منزلة من غيرهم من أهل الحلّ، ولاينبغي لهم أن يعظموا من الحل أيّ مكان كما يعظمون الحرم، ولكن على الرغم من اعتقادهم هذا إلا أنهم كانوا يفرضون على سائر الناس من دونهم أن يقفوا بعرفة عند حجهم، وأن يفيضوا منها.

---

(١) ديوان كثير عزة: ٣٩٦.

(٢) اخبار مكة للفاكهي: ٥/ ١٢.

وكانت الحال كذلك بالنسبة للحلة، فهم يخرجون إلى عرفات، ويقفون عليها، وإقراراً منهم بأنها جزء من المناسك الدينية وشعيرة من الشعائر المقدسة، وكان وقت وقوفهم بالعشاء دون الأنصاب، ومن آخر الليل بجبل قزح.

واستبدل الحمس الوقوف بجبل عرفة واستعاضوا عنه بالوقوف عند نمرة، أو الوقوف بأطراف الحرم. وعندما حج الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لم يقف بالمشعر الحرام كعادة قريش في جاهليتها، ولكنه تعدّى المشعر الحرام وتجاوزه إلى عرفات.

والمشعر الحرام جبل بمزدلفة، وقيل إن المشعر الحرام كله مزدلفة، ونزل قوله تعالى مخاطباً أهل قريش ومن والاهم وتبعهم: ﴿ **ثم أفيضُوا من حيثُ أفاض الناسُ واستغفرُوا الله إن الله غفور رحيم** ﴾[١]. وبهذه الآية الكريمة أبطل الله سبحانه وتعالى ماابتدعه الحمس من بدع وتركهم الوقوف بعرفة والإفاضة منها.

ذكر الشوكاني في نيل الأوطار عن ابن عمر قال: «غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم من منى حين صلى الصبح في صبيحة يوم عرفة، حتى أتى عرفة، فنزل بنمرة، وهي منزل الإمام الذي ينزل به بعرفة، حتى إذا كان عند صلاة الظهر والعصر، ثم خطب الناس، ثم راح فوقف على الموقف من عرفة، وروى عبد الرحمن بن يعمر: أن أناساً من أهل نجد أتوا الرسول صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة فسألوه، فأمر منادياً ينادي الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك»[٢].

---

(١) سورة البقرة: ١٩٩.

(٢) رياض الصالحين: ٣٧٥.

وقد كان يوم عرفة معروفا لدى العرب قبل الإسلام، ورجحه الكثيرون من المفسرين لآيات سورة التوبة، أنه يوم الحج الأكبر، وكان إعلان براءة الله ورسوله من المشركين على الناس جميعا في يوم الحج الأكبر، فقد اتخذ العرب من هذا اليوم وسيلة لإعلان بعض الأمور وإبلاغها للناس. وكما شغلت الأماكن المقدسة وكل المشاعر الدينية حيزاً في الشعر الجاهلي فاقسموا بموقف الحجيج بالآل والمشعر الأقصى وغيره من المشاعر المقدسة نجد أن الشعراء الإسلاميين كانوا أوفر حظا من غيرهم، وأصدق عاطفة في تناول هذه الأماكن المقدسة في شعرهم، يقول ابن رشيد البغدادي:

على عرفات قد وقفنا بموقف ... به الذنبُ مغفور وفيه محوناه

وقد أقبل الباري علينا بوجهه ... وقال ابشروا فالعفو فيكم نشرناه(١)

ففي عرفات الخير، حيث يرنو الخالق على خلقه، وينظر إليهم بوجهه الكريم، وهم في حالة تضرع ودعاء وتوسل إلى الله تعالى، فيباهي الله تعالى ملائكته بخلقه، فيجزل لهم العطاء والإحسان بلا حدود. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذي الحجة، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيباهي بأهل الأرض أهل السماء، فيقول انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً ضامرين، جاءوا من كل فجٍ عميق، يرجون رحمتي، ولم يروا عذابي، فلم ير يومٌ أكثر فيه من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة)(٢)، ولابن رشيد:

---

(١) شفاء العرام: ٢/ ٤٥٧.

(٢) نفس المرجع السابق ٢/ ٤٥٧.

وعـــرفـتُ في عـــرفـــات أني ناشق   للعـفـو عـرفـا عـاطر النـسـمـات[1]

ويذكـر الغرناطي جـبل عـرفـة، وكـيف أن الدعـاء عنده يزيل كل مـالحق بالنفس من همّ وعناء، وتفوز النفس بما تصبو إليه وتتمناه:

ياراحـــلا يبـــغي زيارة طيـــبـــة   نلـت المنى بزيـارة الأخـــيـــــار

إلى أن يقول:

وإذا وقـفـت لدى المعـــرف داعـيـــا   زال العنـاءُ وظفـــرت بـالأوطار[2]

وروى الأصمعي: سمعت أعرابية بعرفات، وهي تقول: «اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان نائيا فقرّبه، وإن كان قريباً فيسره»[3].

أما الهدف الأساسي الذي من أجله شرع الشارع الوقوف بعرفة إنما هو وحدة الوجود في زمان محدد، ومكان معين، يجمع هذا المكان المقدس كتلاً بشرية، وتحتشد كل تلك الوفود في وقت واحد، يربط بينهم وحدة الهدف والغاية السامية. وجسّد الزمخشري في رائيته منظر هذه الوفود التي تجمعت من كل صوب وناحية:

فـإلى المعـرف نافـر حـيث التـقت   من كل أقطار البـلاد جـمـــاهـــر

بهم يبـــاهي الله في ملكـوتـــــه   أهل الســمـــاء العـلا ويُفـاخـرُ[4]

---

(١) شفاء الغرام: ٢/٤٥٧.

(٢) نفح الطيب: ٥٤.

(٣) محاضرة الأبرار: ٢/١٧٠.

(٤) المجموعة النبهانية: ٢/١٣٤.

وهؤلاء الحجيج وإن اختلفت أجناسهم، وتغايرت لغاتهم، لكنّ الغاية واحدة، فالكل يرفع يديه في ضراعة وخشوع للواحد الأحد، يبغي رحمة أرحم الراحمين، يقول البرعي:

وتوالي الوفود من كل فجّ — طالبي الحجّ من جميع الجهات
ثم مدّوا الأكف من جبل الرحمة — داعين باختلاف اللغات
وأفيضت عليه خلع الرضوان — عند الوقوف بالصخرات
ياله من موقف عفا الله فيه — عن جميع الذنوب والزلات
ودنا منهم وباهى بهم — صفوة أملاكه إلى القربات
حيث ظلوا يرقبون غروب — الشمس فوق الضوامر الناجيات(١)

وعندما يقف الحجيج بالمشعر الحرام، وتضمهم صحراء عرفة ضمّ الأم للفطيم، ويهش وجه ذلك الجبل لاستقبالهم، ويحنو عليهم فؤاده، فتسري هذه النفحة الطيبة بين الحجيج، ويمسون وقد اهتمّ كل منهم بشأن أخيه، فينصلح حالهم، وتستقيم أمورهم، وينعكس هذا على أممهم؛ لأن هذا الاجتماع قد تم في رحاب الله تعالى، وبين يدي رحمته، التي وسعت كل شيء. يصف الصرصري موقف الحجيج بالمشعر الحرام في قوله:

يسري مع الوفد الكرام ليشهد — الجمع الذي شرفت أقطاره
في موقفٍ جمِّ المواهب زاهرٍ — وضعتْ عن الجاني به أوزاره(٢)

وفي عرفات، حيث يتجه الإنسان بكل حواسه إلى الله تعالى في

---

(١) ديوان البرعي: ٧٩.

(٢) المجموعة النبهانية: ٢/١٠٥.

إخلاص حقيقي، لايتطرق إليه الرياء ولا الزيف، نلاحظ صدق العاطفة وحرارتها، وهذا الإحساس ينعدم عند نظيره الجاهلي، أو من يتناول ضروب الشعر الأخرى، يقول الشاعر:

وفي عرفات قد عرفتُ الهوى ... وغدا سرُّ التداني جهارا[1]

ذكر بشر بن الحارث : رأيت على جبال عرفة رجلا قد بلغ به الوله وهو يقول:

سبحان من لو سجدنا بالعيون له ... على شباك الشَّوك المحمَّى من الإبر

لم نبلغ العشر من معشار نعّمته ... ولا العشير ولاعْشرا من العُشر

هو الرفيع فلا الأبصارْ تدركُهُ ... سبحانه من مليك نافذ القدر

سبحان من هو أنسي إذا خلوت به ... في جوف ليلي وفي الظلمات والسحر

أنت الحبيب وأنت الحبُّ ياأملي ... من لي سواك ومن أرجوه يا ذخري[2]

العشر هو الجزء من عشرة أجزاء، وكذلك المعشار والعشير، وجاء في التنزيل العزيز:

﴿ وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهُمْ فكذّبوا رُسلي فكيف كان نكير ﴾[3].

وقد شبه الصرصري وقوف الحجيج بجبل عرفات، وهم بين دعاء وقنوت ورجاء وأمل، والملائكة تزاحمهم في وقوفهم هذا بين يدي الرحمن، شبه

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٢ / ٢٤١.

(٢) مثير العزم: ٢ / ٢٥٩.

(٣) سورة سبأ: ٤٥.

هذا الموقف بوقوف الخلق يوم الحشر العظيم أمام فاطر السماوات والأرض:

وفي عــرفــات العظمـــى إذا مــا ... هُــمْ وقـفُـوا وقـــوف المستـهـــام
تظنَّ منادياً في الخلــق نـــادى ... وقـد حـشـروا إلى يــوم القـيـــام
وفـاض عليـهــمُ لمّـــا أفـاضـوا ... سـحـاب رضى من الرحـمن هامي(١)

وقال آخر:

تعــرفت في عــرفـــات مـوطـنـــا ... مـــاأنـكـرتـه الروحُ في طول المدى
فـاض عليـهـا إذا أفـاضـت فـائضٌ ... من مـنعـم جـمّ النّوال والجـــدا(٢)

وقـد تكون حكمـة الشـارع في وقـوف الحجـيج أن تقف بين يديه الكريمتين، وهو المنزه عن الذات أو الصفات؛ لأن الوقوف أبلغ في التضرع والدعاء، ففي عرفات يقف الجميع في تضرع وخشوع، فقد نبذ أبو بكر بن مسدي فتاته وربوعها ومعاهد صباه من أجل هذه الوقفة، التي تسمع فيها جؤار تهليل الحجيج:

أنكـــرت أيامـــا بـــذي سلـــم ... لوقـفـة بين تعـريـــفٍ وعـرفـــان
والدار آهلــة من كـــل مـغـتـربٍ ... يغـــدو إليـهـــا بتـهـليـــل وقُـرآن
واسم الحـبيب شـعـــار العـاشـقين ... بهـاتيك المشـاعـر من شيب وشبـان
لبيك لبـيك توحـيــدا يؤكـــده ... توابع الشـوق فـــي ســرّ وإعـــلان
للإجـابة ســمــع ليـــس يشـغـلـه ... شـأن كـبيـر من القـول عن شـأن(٣)

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ٤٦ .

(٢) ملء العيبة: ٢٠٧ .

(٣) شفاء الغرام: ٢ / ٤٦١ .

وعند الوقوف بعرفة يستمد المسلم المواعظ والعبر، فهو يعيد للفرد ذاكرته التائهة وينعكس هذا التذكر على الأمة بأسرها، فعندما يقف المسلم بعرفة تتداعى الخواطر والأحداث إلى مخيلته، ويتذكر موقف الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام، ومن تبعهم ودان بدين الحنيفية، ومن جاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم. وعندما يهلل الحاج ترجع به الذاكرة للسنة العاشرة من الهجرة، حيث وقف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يخطب في الأمم الحاضرة والقادمة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فإذا كان إعلان براءة الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم من المشركين في يوم عرفة من السنة التاسعة للهجرة، حيث تمّ إقرار فريضة الحج وتطهيره من أدران الجاهلية، وماطرأ على آداب الحج من انحراف قام به المشركون، الذين يعتنقون الوثنية، ويؤمنون بأباطيلها، حيث تم إعلانُ الحجّ بصورة رسمية في هذا اليوم، وجاء في التنزيل العزيز: **﴿ براءةٌ من الله ورسُوله إلى الذين عاهدتُم من المشركين فسيحُوا في الأرض أربعة أشهرٍ واعلموا أنكُم غيرُ مُعجزي الله وأنّ الله مُخزي الكافرين وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر أنّ الله بريء من المشركين ورسوله فإن تُبتُم فهو خيرٌ لكُم وإن تولّيتم فاعلموا أنّكُم غيرُ معجزي الله وبشّر الذين كَفروا بعذابٍ أليم إلا الذين عاهدتُّم من المشركين ثم لم ينقصُوكُم شيئاً ولم يُظاهروا عليكم أحداً فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إن الله يحب المتقين ﴾**[1].

فقد تم إعلان دستور حقوق الإنسان الذي كرمه الله تعالى في يوم عرفة

---

(١) سورة التوبة: ١ – ٤.

من السنة العاشرة للهجرة، ففي هذا اليوم خطب الرسول صلى الله عليه وسلم مودعاً، وأشهد الحاضر على الغائب ، وذلك في قوله : (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا).

كذلك من الحقوق التي أعلنها عليه الصلاة والسلام يوم الحج الأكبر المساواة التامة بين الرجل والمرأة : (استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لايملكن لأنفسهن شيئاً، وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، لكم عليهن حق، ولهن عليكم حق) . كذلك وصى صلى الله عليه وسلم بالجار والضعفاء والأرقاء، فإذا كان العرب في جاهليتهم يتخذون من يوم عرفة، أو كما كانوا يسمونه يوم الحج الأكبر، وسيلة لإعلان مايجدّ في حايتهم حتى يدركها الجميع؛ لأن هذا اليوم يشهد لقاء كلّ من أتى للحج من كل فج عميق، وتضمهم صحراء عرفات؛ لذلك أعلنها الله تعالى يوم الحج الأكبر، كما كانوا يعلنون أمورهم وحوادثهم التي يريدون أن يعلمها القاصي والداني والإعلان يعني إظهار الشيء، فقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا اليوم العظيم منبراً لإعلان براءة المسلمين، التي تعني تمام السيادة للدين الإسلامي وللمسلمين، كذلك فقد أعلن في يوم عرفة أول دستور وميثاق لحقوق الإنسان، فقد كان أول ميثاق يعلن على وجه هذه البسيطة كاملاً وخالياً من النقائص من الأزل وإلى الأبد بإذن الله.

المبيت بالمزدلفة :

وكان العرب في جاهليتهم قد سارت فيهم سنة المبيت بمزدلفة بعد الإفاضة من عرفة، وذلك قبل غروب الشمس، يقول الشاعر :

وينفـــرون إلى الزلفى بمـــزدلف   جمعـا بجمع ووجدانا بوجدان[١]

وجاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾[٢]. معنى الإفاضة؛ أي إذا رجعتم من حيث بدأتم، قال الشاعر:

فـــقلت لهـــا ردي إليـــه جنانه   فـــردت كـــمـــا ردُ المنيخ مـــفـــيضُ

فذكر الله تعالى من أهم أهداف الحج وغايته، وكان العرب عند مبيتهم بمزدلفة يوقدون النار على جبل قزح، حتى تكون هذه النار هاديا ومرشدا لحجيج بيت الله الحرام، وهم في طريقهم من عرفة مرورا بمزدلفة؛ ليفيضوا منها إلى منى.

وكان أول من أوقد هذه النار قصى بن كلاب[٣]، ومازالت نار قصي على جبل قزح توقد إلى اليوم. وسميت مزدلفة بجمع؛ وذلك لأن صلاة المغرب والعشاء تجمع بها، ويجمع الحجيج كذلك بين صلاة الظهر والعصر على أرض عرفات أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام، يقول أبو طالب في ذلك:

وليلة جـــــمع والمنازل من منى   وهل فوقها من حرمة ومنازل[٤]

كذلك سميت مزدلفة بذلك؛ لأن الحجيج بعد وقوفهم بعرفات ازدلفوا إليها؛ أي تقربوا، يقول الهمداني في الإفاضة:

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٤٦١.

(٢) سورة البقرة: ١٩٨.

(٣) جامع البيان: ٢ / ٣٨٩.

(٤) أديان العرب: ٦١.

متى ضوء النهار أدبرا ... وغابت الشمسُ استطاروا حسرا
يدعون ذا العز الذي تجبرا ... ثم مضى أمامهم وكبرا
إفاضة لم تكن فيهم منكرا ... قد لزموا التؤدة والتوقرا
حتى أتوا جمعا وجاءوا المشعرا ... ثم أناخوا ساهمات ضمرا
بها يخافون العذاب الأكبرا ... حتى إذا ضوء النهار أسفرا[1]

أما الصرصري فيرى أن الحجيج بوصولهم منى قد تمكنوا من كل أسباب الفضل والكرم:

جمعوا الفضل حين حلّوا بجمع ... وأعدوا الحصى بمزدلفات[2]

وكانت إجازة الناس أو الإفاضة بهم من عرفة إلى مزدلفة يقوم على أمرها ويتولاها بنو صوفة، وهم فرع من قبيلة جرهم، يقول شاعرهم أوس بن مغراء:

ولايريمون في التعريف موقفهم ... حتى يقال أجيزوا آل صفوانا[3]

وبمرور الأيام انتقلت الإجازة من قبيلة جرهم إلى قبيلة خزاعة، ثم آلت الإجازة بعد ذلك إلى بني عدوان، وتولى أمرها رجل منهم، يدعى أبو سيارة، وهو أحد بني سعد، ويقول فيه الشاعر:

خلوا السبيل عن أبي سيارة ... وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالما حماره ... مستقبل القبلة يدعو جاره[4]

---

(١) جزيرة العرب: ٣٩٣.

(٢) المجموعة النبهانية: ١/٤٩٨.

(٣) أديان العرب: ٦٢.

(٤) المرجع السابق نفسه: ٦٢

وكان أبو سيارة يتقدم وفد الحجيج، وهو يمتطي حماره، ويخطب فيهم قائلاً: « اللهم أصلح بين نسائنا، وعاد بين رعايانا، واجعل المال في سماحنا وسمائحنا، أوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم، واقروا ضيفكم، ثم يقول: أشرف ثبير كيما نغير، ثم ينفر، ويتبعه الناس »[١].

ففي خطبته دعوة صريحة للتمسك بمكارم الأخلاق والخصال الحميدة، التي تتمثل في الوفاء بالعهد، وإقراء الضيف، وإكرام الجار. وقوله سمائحنا تعني الجود والكرم. وكان أبو سيارة قد تولى الإجازة بالناس من عرفة؛ أي مزدلفة مايقرب من الأربعين سنة على حمار واحد، حتى أصبح يضرب به المثل، في قوة البدن، فقيل: « أصح من عير أبي سيارة »[٢] وقد تجيء إجازته للحجيج أحياناً نظماً[٣]:

لاهمّ إني تابع تباعه ... إن كان إثم فعلى قضاعة

لاهمَّ مالي في الحمار الأسود ... أصبحت بين العالمين أحسد

هلا يكاد ذو البعير الجلعد ... فق أبا سيّارة المحسد

من شرّ كل حاسد إذا حسد ... ومن أذاة النفاثات في العقد

وجعل التبعات من ذنوب وآثام على بني قضاعة؛ لأنهم من ساكني الحل، ووصف راحلته بالقوة في قوله: جلعد؛ أي ولها مقدرة على التحمل، وفق أبا سيارة: أي احفظه.

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٦٢.

(٢) مجمع الأمثال العربية: ٢٢٤.

(٣) أديان العرب: ٦٢.

وكانوا ينفرون من مزدلفة مع شروق الشمس؛ أي عندما تشرق على رؤوس الجبال. وجاء ذكر ثبير وهو جبل شاهق، فأول ماتشرق الشمس عليه، ويقع بالقرب من مكة، ولم يقرهم الإسلام على هذه الإفاضة، فقد أفاض الرسول صلى الله عليه وسلم قبل شروق الشمس إلى منى، حيث الجمار والنحر والحلق والتقصير، وكان يتولى أمر إجازة الحجيج من مزدلفة إلى منى بنو عدوان، ويقول فيهم ذو الأصبع العدواني:

عُذيرُ الحيِّ من عدوان ... كانوا حيّة الأرض
بغى بعضهم ظلما ... فلم يرع على بعض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرض
ومنهم من يجيز النا ... س بالسنة والفرض(١)

ونزول وفد الحجيج بمزدلفة، ومبيتهم بها، يحرك في الشاعر كل المشاعر الدفينة، فيسجل أحد الشعراء كيفية سير الحجيج بالمشاعر الدينية المقدسة:

فلما دنا الليل من يومهم ... وولى النهار وأجدوا البكاء
وسار الحجيج إليهم دجى ... فحلوا بجمع بعيد العشا
فباتوا جميعا فلما بدا ... عمود الصباح وولى الدجا
دعوا ساعة ثم شدوا الشسوع ... على قلص ثم أمّوا منا(٢)

النزول بمنى:

بعد الإفاضة من عرفات ينزل الحجيج بمنى، وتنحصر حدودها بين العقبة ووادي محسر، أما الشعائر الدينية التي كانوا يؤدونها في جاهليتهم بمنى

---

(١) سيرة ابن هشام ١ /١٦٨.

(٢) محاضرة الأبرار: ٨٩.

فتتلخص في رمي الجمار، ونحر الهدي، وحلق الشعر، أو تقصيره، يقول الشاعر في ذلك:

وآتي منى أقضي بها التفث الذي يتم به حجي وهديي ورشادي(١)

والتفث مايصيب المحرم بالحج من ترك الأدهان والغسل والحلق، قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ ليقضوا تفثهُم وليُوفُوا نُذُورهُم وليطَّوَّفُوا بالبيت العتيق**﴾(٢)، فإزالة التفث من مناسك الحج المبرور، ويجمل الزمخشري أعمال الحجيج بمنى بقوله:

حتى إذا دلكت براح فطارق جمعا فمنه إلى المحصب باكر
فمجمر فمقصر أو حالق نحر النهار وللنسيكة ناحر(٣)

دلكت: أي غربت، وبراح: الشمس، فعند غروب الشمس ينفر الحجيج إلى منى مروراً بمزدلفة، وهناك يتم رمي الجمار، ويكون الحلق أو التقصير، وفي نحر النهار؛ أي أوله، بذبح نحره أو هديه.

ويشارك الصرصري الزمخشري في المعنى نفسه بقوله:

جمعوا فيه بين رمي وتحليق النواصي والنحر للبدنات(٤)

أما سبب تسميتها منى فلأن جبريل عندما أراد أن يفارق آدم على نبينا وعليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم بعد أن أعلمه قواعد البيت الحرام،

---

(١) مثير العزم الساكن: ١١٣.

(٢) سورة الحج: ٢٩.

(٣) المجموعة النبهانية: ٢/ ١٣٤.

(٤) المجموعة النبهانية: ١/ ٤٩٨.

وأراه مناسكه، سأله جبريل أن يتمنى مايريد، وكانا عندئذ يقفان على أرض منى، فتمنى آدم الجنة، فسميت منى، لما تمنى فيها آدم من الدعاء[1].

وعن سعيد بن جبير : عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلاً سأله لماذا سميت منى؟ فقال : لما يقع فيها من دماء الذبائح، وشعور الناس، تقرباً إلى الله عز وجل، وتمنياً للأمان من عذابه[2]. يقول ابن عساكر :

ياليالي منى لعمري لفيكنّ منالُ المنى ونيلُ المتاب[3]

وعندما تطأ أقدام الحجيج أرض منى، ويحل بها، يحس أنه قد نال كل ماكان يصبو إليه من أماني، وهذا ماأحس به ابن معصوم:

وجئت منى والقلبُ قد فاز بالمنى وماراعني بالخيف خوف من النفر[4]

ويشاركه ابن مسدي في الإحساس نفسه بقوله :

وفي منى للمنى ذاك المنال فلا تبعد بك الدار عن قرب وقربان[5]

وللبرعي :

أسرعوا في محسر ثم نالوا بمنى غاية المنى والهبات[6]

وبدأ الحضراوي رائيته بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم دلف إلى ماجناه من ثمار الأماني بسبب جاهه الكريم:

---

(١) أخبار مكة للفاكهي: ٢ / ٢٩١.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢ / ٣٠١.

(٣) ملء العيبة: ١٩٥.

(٤) ديوان ا بن معصوم: ١٧٢.

(٥) شفاء الغرام: ٢ / ٤٦١.

(٦) ديوان البرعي: ٥٩.

ياحـــاديا يحـدو لخـيــر الـــورى هـيــجت في قلبي من الشـــوق نار

إلى أن يقول :

أنتـــم كرامٌ ياعريــــب الحمــــى وجـــاركم من كل جـــور يُجـــار

نلتُ بكم كلّ المنى في منـــــى وليس لي ماعشتُ عنكم قرار[١]

وسئل ابن العباس عن منى، وقيل : عجباً لضيقها في غير زمن الحج، فقال : لأن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم بالولد[٢].

وهناك من يدعو بلهفة ويتمنى أن تضمه هذه البقعة الطاهرة :

فـمـتى أرى الأيام تجـمعُ شـملنا وتقـر عـيني في منى وهي المُنى

(١) المجموعة النبهانية : ٢ / ٢٤١ .

(٢) أخبار مكة للفاكهي : ٢ / ٢٩٠ .

المبحث الثالث

الطواف والتلبية

إنشاد الشعر في أثناء الطواف

الطواف :

حوّر الجاهليون وبدلوا في شريعة إبراهيم عليه السلام، فقد كانوا يحجّون إلى البيت الحرام يقيناً منهم أن هذا هو حرم الله في أرضه، وبيته الحرام الذي اختاره في البقعة التي فضلها على الأرضين، فكانوا يأتون إلى البيت الحرام حيث يتم نسكهم، وتُقضى حوائجهم، فكان يأتي إليه المستجير والمستغيث والمستعيذ والخائف والراجي رحمة ربه، وكان أول من استعاذ بالبيت الحرام حوت صغير[1] خوفاً من حوت كبير، وكان ذلك زمن الطوفان.

وكانوا يطوفون بالبيت الحرام عند الحج والعمرة، ومنذ طاف آدم عليه السلام كانت سنة الطواف.

والطواف لغة يعني قطع المسافة التي تحيط بالكعبة المشرفة سبعة أشواط، أو سبع مرات، وتسمى أسبوعاً. عن ابن عمر، رضي الله عنه: أنه كان يطوف بالبيت سبعة أسابيع بالليل وخمسة بالنهار. قال : «إن آدم عليه السلام كان يطوف كذلك»، وعنه أيضاً: قال صلى الله عليه وسلم : (من طاف بالبيت خمسين اسبوعاً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[2].

---

(١) اخبار مكة للازرقي: ١ / ٣٩.

(٢) اخبار مكة للفاكهي: ٢ / ٢٩٦.

وذكر الصرصري كيفية الطواف، وعدد أسواطه:

ويطوف مصطبعا طواف قدومه سبعا بيت عُظّمت أستاره[1]

أما مذهب الصابئة، وهو عبادة الشمس، وكانت السيارات السبع آلهة عندهم، وكانوا يسمونها المدبرات، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**فالمدبرات أمرا**﴾[2]. وكانوا يعتقدون أنها هياكل يعبدونها فيها، ولا يبعد أنهم كانوا يطوفون حول هذه الهياكل، وربما أخذوا ذلك من دوران هذه الكواكب حول الشمس، بما يعبد بعبة الدائر للشيء الذي يدور حوله، وقد يكون طوافهم بهذه الهياكل كلها أسابيع؛ لعلاقة ذلك بالكواكب السبعة؛ أي إنهم كانوا يطوفون حول كل هيكل من هياكلهم سبعة أسواط، فلكل كوكب من هذه الكواكب سوط، فأقرها إبراهيم عليه السلام في شريعته دين الحنيفية، وجعلها كلها لله تعالى

وقد يكون تفسير هذا أن كل شريعة جديدة قد تستمد مما سبقها من الشرائع، فتذهب بعض التعاليم، وتتشذب بعضها، وقد تسقط بعضها، وهذا مافعله خليل الرحمن عليه السلام، فأقرّ الطواف، وجعله خالصا لله تعالى وحده، حول بيته المحرم والطواف من إحدى شعائر الحج التي كان يمارسها العرب في جاهليتهم على الرغم من بعدهم من دين إبراهيم عليه السلام؛ لذا فقد بدلوا فيه، وأدخلوا بعض التغييرات. يقول مضاض الجرهمي، واصفا الكيفية التي كانوا يمارسون بها هذه الشعيرة المقدسة:

---

(١) المجموعة النبهانية ٢/١٠٥

(٢) سورة النازعات ٥

ونحن ولينا البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير حاضر[1]

ويصف حسان بن ثابت طوافهم، وعدد المرات، وكيف كان سجودهم عند مقام إبراهيم عليه السلام:

ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا وسجدنا عند المقام سجودا[2]

وقد مضت الإشارة[3] إلى أن الفرس كانوا يحجون البيت الحرام، ويطوفون حوله منذ قديم الزمان. والكعبة المشرفة هي البقعة الوحيدة على وجه الإطلاق الذي شرع الله تعالى الطواف حولها، فليس هناك أي مكان على وجه هذه البسيطة يطاف حوله، كما يطاف بالبيت الحرام.

يقول الحسن البصري: «وما على وجه الأرض بقعة يوجد فيها الطواف والسعي والحج والعمرة إلا بمكة»[4] يقول ابن رشيد :

على ربعهم لله بيت مبارك إليه قلوب الناس تهوي وتهواه
يطوف به الجاني فيُغفر ذنبه ويسقطُ عنه جرمه وخطاهُ
وكم لذة أو فرحة لطوافه فلله ما أحلى الطواف وأهناهُ[5]

وكان بدء الطواف بالبيت الحرام عندما خاطب رب العزة والجلالة ملائكته بقوله :

---

(١) أديان العرب : ٤٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٤٧ .

(٣) انظر الصفحة ١١٠ من هذا الكتاب.

(٤) رسالة الحسن البصري : ١٧ .

(٥) نفح الطيب : ١ / ٥١ .

﴿ وإذ قال ربُك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾(١) ، واستنكرت الملائكة أن لا يكون الخليفة من بينهم. قال الله تعالى على لسانهم: **﴿ قالو أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء ونحن نسبّحُ بحمدك ونقدّسُ لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمُون ﴾**(٢)، ولكن عندما أحست الملائكة أنها أغضبت ربّ العزة والجلال علام الغيوم بمقالها هذا، ماكان منهم إلا أن لاذوا بالعرش العظيم، يبكون ويتضرعون، ويسألونه، وهو الرحمن الرحيم، أن يتوب عليهم، وينظر إليهم بعين رحمته. وكانوا في أثناء تضرعهم ودعائهم يطوفون حول عرش الرحمن. ورحمة ولطفاً بهم أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يبنوا بيتاً تحت عرشه؛ ليطوفوا به، وذلك هو البيت المعمور، وصار طوافهم حول البيت المعمور أهون وأيسر عليهم من الطواف حول العرش العظيم، وكان هذا مبدأ الطواف.

ويروي الزبير بن بكار : أنه ما من ملك بعثه الله تعالى في مهمة إلى الأرض إلا نزل محرماً ملبياً من تحت العرش، ويطوف بالبيت أسبوعاً، ويصلي ركعتين بداخل البيت الحرام، ثم يصعد ، وكان أول عمل عمله آدم عليه السلام حين أهبط من السماء الطواف بالبيت الحرام، فلقيته الملائكة، فقالوا ياآدم طفنا بهذا البيت قبلك بألفي عام(٣).

وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال : «حج آدم عليه السلام وطاف بالبيت الحرام سبعاً، فلقيته الملائكة في الطواف، فقالوا : برّ حجك ياآدم، أما نحن فقد حججنا قبلك هذا البيت بألفي عام، فقال : فما كنتم

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) شفاء الغرام: ١ / ٢٩٤.

تقولون في الطواف؛ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، قال : فزيدوا فيها: ولا حول ولاقوة إلا بالله فزادوا»[١].

وأخرج الأزرقي في تاريخه : «أن آدم عليه السلام طاف بالبيت سبعاً حين نزل، ثم صلى تجاه الكعبة ركعتين، ثم أتى الملتزم، فقال : اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي، فاقبل معذرتي، وتعلم ما في نفسي وماعندي، فاغفر لي ذنوبي، وتعلم حاجتي، فأعطني سؤلي، اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً صادقا، حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ماكتبت لي، والرضا بما قضيت». وكذلك من دعائه عليه السلام في طوافه: «اللهم اجعل لهذا البيت عُمّاراً يعمرونه من ذريتي»[٢].

ومن هذه الروايات المختلفة نلاحظ أن الجاهليين قد أبقوا على عدد أشواط الطواف، وإن اختلف الدعاء.

ومن البدع التي ابتدعها العرب في جاهليتهم انقسامهم إلى قسمين كبيرين، قسم يقال له الحُمس، والقسم الثاني أهل الحلة، وإن كان قسم آخر يسمى الطلس، وهم أقل عدداً من القسمين الأولين، وكانوا يأتون من أقاصي اليمن، وكانوا يطوفون بالبيت الحرام في ثياب طلس؛ أي مغبرة، وأخذوا اسمهم من ذلك، واستعمل أبو النجم الطلس استعمالاً مجازياً، وذلك في قوله :

كم من لجيمٍ من أغرّ كأنه ... صبحٌ يشقّ طيالس الظلماء[٣]

(١) عمارة المسجد الحرام: ٢٥.

(٢) أخبار مكة: ١/٥٩.

(٣) أساس البلاغة: ٢٧٨.

والأحمس في اللغة هو الشجاع أو المتحمس في دينه، وقد كان يطلق على الكعبة المشرفة اسم الحمساء، وهو اللون الأبيض الضارب إلى السواد، وربما يكونون استمدوا اسمهم منها؛ لأنهم لاذوا واحتموا بها، وشبهوا أنفسهم بلون حجر الكعبة المشرفة.

وأنتهج القرشيون هذا المنهج ظنًا منهم أنهم ورثة إبراهيم عليه السلام؛ لأنهم أحفاده، لذا فهم أحقّ بولاية البيت الحرام، وإدارة شؤونه من بقية القبائل العربية الأخرى، وحتى يؤكدوا هذا القول حقّ عليهم أن يعظموا الحرم، ويقدسوه، وبهذا تقوى شوكتهم بين القبائل الأخرى، وقد يعود هذا التعالي والتكبر، وقولهم إنهم أهل الله، كل هذا يعود إلى ماحدث لجيش أبرهة الأشرم، والهزيمة الشنيعة، التي منيت بها حملته المخفقة لهدم بيت الله الحرام، وكيف أن الله تعالى قاتل عنهم، وكفاهم شر الأشرم الحبشي وأذاه، ونصرهم على القوم الطاغيين. روى ابن جريج قال: «سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير أو ابن مليكة يقول: كان أهل مكة فيما مضى يلقون، فيقال لهم: ياأهل الله، أو نحو ذلك»(١).

وقال عبد المطلب في أهل الله:

نحنُ آلُ الله في بلدةٍ لم ... يزلْ ذاك على عهْد إبراهم(٢)

وهذا الاعتقاد الذي ولد فيهم الغرور والتكبر جعلهم يبتدعون ويبتكرون أشياء لم تكن من صميم تعاليم شريعة الخليل عليه السلام، ومن بدعهم أنه إذا صاهرهم الرجل، فتزوج بامرأة منهم، فإن أولاده منها تكون

---

(١) فضائل مكة وحرمة البيت الحرام: ٣٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٣٣.

تبعيتهم لملة أمهم؛ أي لابد أن يصيروا حمساً، وتبرز هنا نزعة الدستور اليهودي، وهذا ماحدث عندما زوج الأدرم الكناني ابنته مجد إلى تيم بن ربيعة، وهو غير قرشي الأصل، فألزموه أن يكون ولده من هذه القرشية أحمس على سنتهم، ويقول لبيد بن ربيعة:

سقى قومي بني مجد وسقى نميرا والقبائل من هلال[(١)]

وفيما يختص بشعيرة الحج ابتدعوا وأحدثوا أشياء كثيرة لم تكن من أصوله؛ أي زادوا على ماكان في شريعة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

فمن ضمن الأشياء التي استحدثوا أنهم قرروا أو فرضوا ألا يطوف بالكعبة المشرفة من أهل الحلة من لم يسبق له الطواف أو الحج من قبل، وأطلقوا عليه اسم الصرورة، وهي تعني في الجاهلية من كانت مكانته الدينية رفيعة. أما الحمس فقد استعملوا كلمة الصرورة بمعنى الذي قعد عن تأدية فريضة الحج، سواء كان لعجز مادي أو بسبب مرض عضوي، أو إهمالاً أو تقصيراً، أو ربما يكون مستنكراً لهذه الشعيرة؛ أي لم يكن يؤمن بها، يقول ابن مقروم الضبي[(٢)]:

لو أنها عرضت لأشمط راهبٍ عبد الإله صرورة متبتلِ
لدنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من تامورة يتنزل

فقد فرضوا على الصرورة ألا يطوف بالكعبة المشرفة إلا في ثياب أحمسي، وكان على أهل الصرورة أن يحصلوا على ثياب الحُمس بأي من

---

(١) أخبار مكة للأزرقي: ١/١٣٣.

(٢) كتاب الحيوان: ١/٣٤٧.

الطرق الثلاث تلك، عندئذ وجب عليه الطواف عريانا، فيلقي ثيابه خارج المسجد، ويبدأ طوافه بإساف ويختمه بنائلة جاعلاً الكعبة المشرفة على يمينه، يقول الشهاب محمود في ذلك.

به طهر البيت المحرم من أذى — طواف العرايا والنساء العوارك(١)

وإذا حدث أن طاف في ثيابه التي أتى بها من الحل، فإن ثيابه تنزع منه، ويكون عقابه الجلد، وتلك الثياب لا يجوز له أن يستعملها بعد ذلك، ولا ينتفع بها هو ولا أحد غيره، وتسمى اللقى، يقول شاعرهم في ذلك :

كفى حزناً كري عليهم كأنها — لُقى بين أيدي الطائفين حريم(٢)

وورد في اللغة أن كل ماطرح فهو لقى، يقول ابن عساكر:

بملتقى الركنين قلبي لُقى — كم لي ومن أهوى ملتقى(٣)

فهذا الطائف بالكعبة المشرفة يلقي ماعليه من ثياب على الرغم من تعلقه بها وحاجته إليها، ولكنه يلقيها جرياً وراء عادة قد خلت.

وقد نهى الإسلام عن ذلك، وجاء في التنزيل العزيز :﴿**يابني آدم خُذُوا زينتَكُم عند كلِّ مسجدٍ وكُلُوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين* قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرِّزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة كذلك نفصِّلُ الآيات لقوم يعلمون**﴾(٤).

(١) المجموعة النبهانية: ٢/٣٨٣.

(٢) أخبار مكة، الأزرقي ١/١١٨.

(٣) ملء العيبة بما جمع في بطون الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة: ١٦٧.

(٤) سورة الأعراف: ٣١ - ٣٢.

ويحكى أن فاخته بنت حكيم قد جاءها المخاض وهي بالكعبة المشرفة، فاستبدلوا مابها من ثياب بأخرى، وتركت ثيابها تلك لُقى[1]. وكانت هذه الثياب اللقى تترك أمام الكعبة المشرفة حتى تبلى بمرور الزمن وعوامل المناخ من رياح وأمطار وغيرها.

وظلت هذه العادة الجاهلية القبيحة من طواف المشركين العرايا حتى سنة تسع للهجرة، عندما كلف الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يقيم الحج للناس، وكان أول حج إسلامي. وفي هذه السنة المباركة نزلت الآيات الكريمات من سورة التوبة بتنظيم آداب الحج، ففيها حرم الله تعالى على المشركين الاقتراب من المسجد الحرام، قال الله تعالى: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربُوا المسْجد الحرام بعد عامهمْ هذا** ﴾[2].

روى أبو هريرة: (أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحجة التي أمره الرسول صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع، يوم النحر، في رهط يؤذن في الناس ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)[3].

وكان من عادة الحمس إذا كانوا حرما أن لاياتقطوا الأقط، وهو المخيض من اللبن المطبوخ، كذلك لا يذيبون الزبدة من السمن بعد تسخينه، وهو مايعرف بسلا السمن، ويتناول ابن هرمه ذلك في قوله:

إن لنا صـرمة مـخـيـسـة نشـرب ألبـانهـا ونسلؤها[4]

---

(١) بلوغ الأرب: ٢٩١.

(٢) سورة التوبة: ٢٨.

(٣) البداية والنهاية ٥ / ٣٧.

(٤) بلوغ الأرب: ٢ / ٢٩٠.

والصرمة الجماعة من الإبل، والمخيسة المؤدبة، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي في رثاء علي بن أبي طالب:

قتلتم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا[١]

ومن عاداتهم أيضا، وهم حرم، أن لايستظلوا إلا في بيوت صنعت من الحجارة أو الطين؛ أي الأدم، ويحرمون ماصنع منها الصوف أو الشعر، وسرت فيهم هذه العادة أو هذا التقليد كالقانون العرفي بينهم، كذلك إذا كانوا حُرُماً حرموا على أنفسهم أكل أي طعام صنع في الحل، أو جيء به من الحل.

وأشار الأزرقي إلى عادة أخرى هي أن يميز الحاج نفسه، حتى يُعرف بين الناس : وكان الرجل يربط لحا من لحا شجر الحرم قلادة في عنقه، ويقول : أنا صرورة، فيقال : دعوا الصرورة بجهله، وإن رمى بحفرة في رجله فلا يعرض له أحد، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لاصرورة في الإسلام وإن من أحدث حدثاً أخذ بحدثه)[٢].

وكان أهل الحمس في أول حج لهم لايطوفون إلا في ثياب جديدة، وفلسفتهم في ذلك أن ثيابهم القديمة قد اقترفوا فيها المعاصي، وارتكبوا فيها الذنوب؛ لذا قد تدنست بخطاياهم، فهي لاتليق بالحج، ولا تصلح لطواف بالبيت الحرام. وهذا يدل على مدى تقديسهم للبيت الحرام وتعظيمهم له، وإذا لم تجد المرأة من يعيرها ثوبه، أو يُؤاجرها، أو يبيع لها، عندئذ وجب عليها أن لاتطوف عريانة إلا ليلاً، وذلك لأن الرجال يطوفون

---

(١) الأغاني: ٣ / ٢٦٣ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي: ١ / ١٣٣ .

بالنهار، وبخاصة العراة منهم. وقد استنكر القرآن الكريم عليهم هذه العادة الرذيلة وحرمها في قوله تعالى: ﴿**يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون**﴾(١).

وقد تناول البيحاني في منظومته كيفية الحج والطواف عند الجاهليين، وكيف أن الحج لايجد القبول والرضا عند الله تعالى حسب زعمهم إلا إذا كان على الكيفية نفسها التي صورها لهم إبليس اللعين، وهي الطواف عرايا بالنسبة للرجال وكذلك الحال بالنسبة للنساء إذا لم تجد من يعيرها أو يُؤاجرها، يقول(٢):

والحجُّ عندهُم بلا ثواب	**إلا إذا كان بلا ثياب**
لافرق بين طائفٍ وطائفة	**وقد تقول وهي تمشي كاشفة**
اليوم يبدو بعضه أو كله	**وما بدا منه فلا أحله**

وكان الطواف في الماضي مختلطاً بين الرجال والنساء، ولكن حدث ماجعل والي مكة يفرق بينهم في أثناء الطواف، وأورد الأزرقي: «أن النساء والرجال كانوا يطوفون معاً مختلطين، حتى ولي مكة خالد بن عبد الله القسري لعبد الملك بن مروان، ففرق بين الرجال والنساء، وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط، يفرقون بين الرجال والنساء، فاستمر ذلك إلى

---

(١) سورة الأعراف: ٣١-٣٢.

(٢) أشعة الأنوار: ١/ ٢٥.

اليوم»[١].

ويروي المسعودي أنه نما إلى علم والي مكة قول الشاعر:

ياحبذا الموسم من موقف   وحبذا الكعبة من مشهد
حبذا اللاتي يُزاحمننا   عند استلام الحجر الأسود[٢]

ووافق عطاء ماذهب إليه الأزرقي في التفريق بين النساء والرجال في أثناء الطواف في الإسلام من ناحية الكيفية، قال عطاء: «إذا منع هشام النساء الطواف مع الرجال، قلت كيف منعهن وقد طاف نساء الرسول صلى الله عليه وسلم مع الرجال؟ قلت : أبعد الحجاب أم قبل؟ قال : أي لعمري لقد أدركته بعد الحجاب، قلت : كيف كن يخالطن الرجال؟ قال : لم يكن يخالطنهم ، كانت عائشة رضي الله عنها تطوف حجرة من الرجال لا تخالطهم، فقالت امرأة : انطلقن نستلم ياأم المؤمنين، قالت : عنك، وأبت، ولكن يخرجن متنكرات بالليل، فيطفن مع الرجال، ولكنهم كن إذا دخلن البيت قمن حتى يدخلن، وأخرج الرجال»[٣].

كان منظر النساء وهن طائفات بدون ثياب سبباً لإثارة ذوي النفوس الضعيفة من فتيان مكة، مما يدفعهم إلى الفجور، وارتكاب الفاحشة والرذيلة، وصادف أن رجلاً رأى امرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فصادفت هوى من نفسه وأعجبته، ودخل الطواف معها بغية التمكن منها، وما إن اقترب منها وأسند ذراعه إلى ذراعها حتى التصقا والتحما، ولم يستطع

---

(١) أخبار مكة للازرقي: ١ / ٣٦٥.

(٢) المرجع السابق نفسه: ١ / ٣٦٥.

(٣) صحيح البخاري: ٣٢.

الفكاك منها؛ أي أن يخلص ذراعه منها ويفصله، وظلا على هذه الحالة حتى أتيا إلى شيخ كبير يطلبان منه النصيحة، فنصحهما أن يذهبا إلى المكان نفسه؛ أي حيث التصقا، فرجعا إلى حرم الله تعالى عسى أن ينظر إليهم بعين رحمته، وأخلصا الدعاء لله تعالى، فلطف الله تعالى بهما، وخلّصهما من غضبه، سبحانه من مليك مقتدر(١).

وهناك من يطوف بالكعبة المشرفة عريان كاشفاً عن سوأته في غير زمن الحج أو الموسم، وذلك لشيء يضمره في نفسه، كأن يريد مثلاً أن يأخذ بثأر أو يقتصّ من أحد، وعندما يراه الناس على هذه الهيئة يدركون قصده ويعرفون مرماه وهدفه من ذلك، وقد يتقون شرّه ويتحاشونه. وعندما أراد أبو جندب أن يثأر لزوجته وجاره كشف عن سوءته وطاف بالبيت الحرام، وكان يردد في أثناء ثورته وغضبه:

إني أمرؤ أبكى على جاريه ... أبكي على الكعبي والكعبيّة
ولو هلكت بكيا عليه ... كانا مكان الثوب من حقويّه(٢)

وكان من تقاليدهم في جاهليتهم أنه إذا بلغت المرأة مبلغ النساء سواء حرة كريمة أو أمة مملوكة، ألبسوها أحسن الثياب وأجملها، وزينت بأغلى أنواع الزينة والحلي مما يملكون، ثم يأتون بها إلى البيت الحرام، وتدخل في الطواف وهي كاشفة وجهها، وينادون باسمها واسم أبيها إذا كانت من الحرائر، أو باسمها واسم مولاها إذا كانت من الجواري. وكانت هذه طريقة من الطرائق التي تعرض بها المرأة للزواج بالنسبة للحرائر والبيع بالنسبة

(١) أخبار مكة للأزرقي: ١/٥٣.

(٢) أديان العرب في الجاهلية: ٥٩.

للجواري، وأصبحت فيهم سنة. وكان عرضهن بهذه الطريقة السافرة يسبق خدرهن، فبعد أن تفرغ المرأة من هذا الطواف الاستعراضي، وهي في كامل زينتها مسفرة عن وجهها، تحبس في بيتها، ولا يكاد يراها أحد، ولا يجوز لها، بل لايسمح لها بمغادرة خدرها أو محبسها هذا إلا إلى بيت زوجها بعد عرسها، أو إلى بيت مولاها بعد بيعها.

ومن أهم الأسباب التي دفعت الجاهليين وجعلتهم يختارون الكعبة المشرفة لعرض بناتهم وجارياتهم خوفهم عليهن من أن تمتد إليهن أيدي العابثين الفاسقين من فتيان مكة خاصة، الذين كان همهم الأكبر اللعب والعبث، ولا يراعون حرمات الله، وإن كان أذى بعض الفاسقين قد لحق بعض الطائفات كما سبق أن مر بنا(١) ، ولكنه نادر وقليل بعض الشيء.

وقد سئل عطاء بن رباح : عن النظر إلى الجواري اللائي يطاف بهن حول الكعبة المشرفة للبيع، فكره ذلك، إلا لمن أراد أن يشتري(٢).

وقد حج جميع الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين البيت الحرام، وطافوا به إيمانا واحتساباً، حتى إن سفينة نوح عليه السلام عندما جاء وعد الله ووعده الحق بالطوفان، طافت السفينة بالبيت الحرام. وروى ابن عباس رضى الله عنهما قال : «إن الله عز وجلّ وجّه السفينة إلى مكة المكرمة، فدارت بالبيت الحرام أربعين يوماً، ثم وجهها إلى الجودي، فاستقرت به»(٣).

---

(١) انظر الصفحة ١٧٣ من هذا الكتاب.

(٢) اخبار مكة: ١/ ٣١٧.

(٣) مثير العزم الساكن: ٢/ ٣٢.

وروى عروة بن الزبير : «بلغني أن البيت وضع لآدم يطوف به، وأن نوحا قد حجّه وجاءه وعظّمه قبل الغرق»[١].

وقد تقدم في قصة بناء إبراهيم الخليل البيت الحرام بمعاونة ابنه إسماعيل، على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام، أنه بعد أن فرغ من البنيان، أتاه جبريل عليه السلام؛ ليعلمه كيفية أداء فريضة الحج ومناسكه، فحج إبراهيم وإسماعيل برفقة الروح الأمين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكان خليل الرحمن أول من لبّى النداء للوفادة لبيت الله الحرام، بل كانت هذه البداية لفريضة الحج. وكان عليه السلام يحجّه كلّ سنة على البراق، وحجّه كذلك إسحاق وسارة. وقد سبقت الإشارة[٢] إلى أن الحواريين كانوا يحجون البيت ، ويخلعون نعالهم عنده إكراما وتقديساً.

ذكر ابن إسحاق : «لم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا وقد حج»[٣].

وذهب باسلامه إلى أن هوداً وصالحا ماتا ولم يحجا[٤]؛ لانشغالهما بأمر قومهما[٥] واتفق معه السيوطي في هذا الرأي أن جميع الأنبياء حجوا البيت إلا هوداً وصالحاً فقد تشاغلا بأمر قومهما، فماتا ولم يحجا.

ولم يقتصر الطواف على حجيج بيت الله الحرام وزواره من الإنس فقط، بل شمل الجن أيضاً، قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ **تبارك الذي نزّل**

---

(١) المرجع السابق نفسه : ١٢٦/١.

(٢) انظر الصفحة : ١٢١ من هذا الكتاب.

(٣) اخبار مكة للأزرقي: ٦٨/١.

(٤) تاريخ الكعبة: ٢٦.

(٥) الجامع اللطيف: ٧٦.

الفُرقانَ على عبده ليكونَ للعالمين نذيرا ﴾[1] ومعنى قوله تعالى ﴿ للعالمين ﴾؛ أي الإنس والجن. فقد كان المسلمون من الجان يحجون إلى البيت الحرام، وأسوق دليلاً على ذلك ماورواه الأزرقي: «أن رجلاً من الجن كان سيِّدا في قومه وعزيزاً بينهم، أراد أن يطوف بالكعبة المشرفة سبعة أشواط، وكان ذلك في اليوم السابع لزواجه، ومنعته أمه خوفاً عليه من غدر بني آدم، فقد كانت تحرص هذه الام على وحيدها، وتخشى أن يصيبه مكروه، ولما رأت إصراره وعزمه على أداء هذه الشعيرة المقدسة أذنت له، وذهب العروس تتبعه تعاويذ أمه: أعيذه بالكعبة المستورة ودعوات ابن أبي محذورة، وماتلا محمد من سورة، إني إلى حياته فقيرة، وإنني بعيشه مسرورة، وقضى الرجل الجان طوافه كما أراد سبعة أشواط، وصلى خلف المقام ركعتين، ولكن صدقت حاسة الأم، ولحق به أذى بني آدم، بل كان حتفه على أيديهم[2].

ودعوات ابن أبي محذورة لم أقف على معناها، وقد يكون أحد شيوخ الجن أو رجال الدين فيهم.

وكما طاف الإنس والجن بالكعبة المشرفة طافت الحيوانات أيضاً إكراماً وتعظيماً لحرم الله تعالى في أرضه، فقد طافت الحيوانات على فصائلها المتنوعة من طيور وظباء وحيات وكلاب، كما طاف البعير والثور.

وقد جاء في ذكر الحيّة التي طافت بالبيت الحرام ماورواه عطاء، وهو في مجلس ابن عباس، قال: «كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما؛ إذ جاءت

(١) سورة الفرقان: ١.

(٢) أخبار مكة للازرقي: ١ / ٣١٢.

حيّة ذات طفتين، فطافت بالبيت سبعاً، ثم صلّت خلف المقام ركعتين، قال: فبعث إليها ابن عباس رضي الله عنهما إن لنا أعبدا فلا نأمنهم عليك، وإن الله تبارك وتعالى قد قضى حجك، قال فجمعت كثيباً ثم طفت في السماء، حتى مارئيت»[1].

كذلك فقد طاف الأيم وهو الحية الذكر حول البيت سبعة أشواط، وصلى خلف المقام ركعتين. «وطافت ظباء الحرم بالكعبة المشرفة، فقد دخل ظبي وطاف بالبيت مرتين أو ثلاثاً، ووضع رأسه على الحجر الأسود كذلك مرتين أو ثلاثاً»، ودخلت الغزلان بالليل أو النهار من الحول إلى الحول.

وعندما وقعت فتنة ابن الزبير، وانشغل الناس بأمر هذه الفتنة وماجرته من حرب وقتال، شوهد بعير يدخل المسجد الحرام، ويطوف بالبيت سبعة أشواط، وربما دخلت الجمال وهي تحمل في أخفافها الحصباء. «ويحكى أن جمل الفاروقي، وهو أحد الجمالة بمكة، يحمّله فوق طاقته، فهرب منه إلى المسجد، ولم يزل يطوف بالبيت إلى أن أكمل ثلاثة أسابيع، والناس يريدون إمساكه وإخراجه، فلم يقدروا عليه، وكلما قرب منه أحد ودقه بفيه، فتركوه، فجاء إلى الحجر الأسود فقبله ساعة، ثم ذهب إلى مقام الحنيفية، برك تجاه الميزاب، ثم بكى ساعة ، وألقى نفسه على الأرض، فمات، وحمل إلى مابين الصفا والمروة ودفن هناك[2].

وروى ابن جريج قال : «قلت لعطاء : أرأيت الكلب يمر في مسجدي مروراً قط أرش مسجدي؟ قال : لاترش من أثره، إنها تدخل مسجد مكة ثم

---

(١) أخبار مكة للفاكهي: ٣٢٣.

(٢) الدرر الفرائد: ٢/ ١٤٩٤.

مايرش»[١].

وتشير الروايات[٢] إلى الثور الذي دخل المسجد الحرام بحضور القاسم بن أبي بزة وعن أبي عثمان الأصبحي قال : أقبل طيران في الجاهلية، كأنهما نعامتان، يسيران كل يوم ميلين أو نحو ذلك، حتى أتيا الكعبة المشرفة، فوقعا على الكعبة، فكانت قريش تطعمهما وتسقيهما، فإذا خف الطواف منْ الناس نزلا فطافا حول الكعبة، فمكثا كذلك شهراً ونحوه، ثم ذهبا.

وكان القرشيون في جاهليتهم، إذا فرغوا من طوافهم، وذلك بعد ختام حجهم، يذهبون إلى العُزى ويطوفون حولها، ويحلّون عندها، وقد يقضون يوماً هناك أو نحوه. وقد تبع القرشيين في هذا التقليد قبائل شتى كبني كنانة وخزاعة ومضر، ومنهم من يحل عند مناة كالأزد وبني غسان. ومن أهلّ لمناة لم يطف بين الصفا والمروة، ويعزى ذلك إلى أن أساف ونائلة كانا أقل درجة من ناحية الألوهية.

ويصف لنا ابن عمر، رضي الله عنهما، وكيفية طوافه صلى الله عليه وسلم ، قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طاف الطواف الأول خبّ ثلاثاً، ومشى أربعاً، وكان يسعى بطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة، فقلت لنافع أكان عبد الله يمشي إذا بلغ الركن اليماني؟ قال : لا إلا أن يزاحم على الركن ، فإنه كان لايدعه حتى يستلمه»[٣].

---

(١) اخبار مكة للفاكهي : ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق نفسه : ٣٢٣.

(٣) صحيح البخاري : ٢ /٣٠٨.

والخبّ : الركض الخفيف .

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه التزام جانب الأدب في الطواف . روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(الطواف حول البيت مثل الصلاة، إلا أنكم تتكلمون فيه، فمن تكلّم فيه فلا يتكلم إلا الخير)[1].

وللطواف حلاوة ولذ ة لايحسّها إلا من أخلص النية لله تعالى، وتوجّه إليه بقلب سليم، ويحسّ الطائف بنشوة روحية عميقة لأنه في رحاب الله وأمانه، يقول البغدادي في قصيدته الذهبية، واصفا تلك اللذة الروحية عند الطائف ببيت الله الحرام:

فشدوا مطايا إلى أربع ثانيا ... فإن الهوى عند ربعهم ماثنيناه

ففي ربعهم لله بيتٌ مباركٌ ... إليه قلوب الناس تهوي وتهواه

يطوف به الجاني فيغفر ذنبه ... ويسقط عنه إثمه وخطاياه

وكم لذة كم فرحة لطوافه ... فلله ماأحلى الطواف وأهناه

نطوف كأنا بالجنان نطوفها ... ولاهمّ لا غمّ جميعا نفيناه

فيا شوقنا نحو الطواف وطيبه ... فذلك طيب لايعبر معناه

فمن لم يذقه لم يذق قط لذة ... فذقه تذقْ ياصاح مانحن ذقناه[2]

التلبية :

كان العرب في جاهليتهم يهللون ويلبون في الحج إلى بيت الله الحرام،

(١) اخبار مكة: ١ / ١٩١ .

(٢) شفاء الغرام: ٢ / ٤٥٥ .

وشاهد ذلك قول نبيه بن الحجاج:

إنـي والـذي يحـجّ لـه شـمـط إيـاد وهـلـلـوا تـهـلـيـلا[١]

والتلبية هي الإجابة. والحكمة في مشروعية التلبية التنبيه على إكرام الله لعباده بان وفادتهم إلى بيته الحرام إنما كان باستدعاء منه.

وكانت تلبية الجاهليين الأولى هي تلبية إبراهيم عليه السلام: وهي لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة والملك لك، لاشريك لك[٢]، وقد مضت الإشارة إلى أن آدم عليه السلام عندما حج، ولقيته الملائكة، وسألهم عن كيفية تلبيتهم وزاد فيها[٣].

وكان أول من حور تلبية الجاهليين وبدل فيها عمرو بن لحي بن حارثة الخزاعي، وذلك عندما تمثل له إبليس لعنه الله في صورة شيخ نجدي مسن في أثناء طوافه على بعير أصهب، فسايره ساعة، ثم لبى إبليس، فقال لبيك اللهم لبيك، فقال عمرو بن لحي مثله، فقال إبليس: لا شريك لك، فقال عمرو مثله، فقال إبليس: إلا شريك هو لك تملكه وماملك، فقال عمرو ماأرى بهذا بأساً، فما زالت كذلك، أي استمر أهل الجاهلية والكفر على هذه التلبية المحوّرة حتى ردّها الإسلام إلى ماكانت عليه شريعة إبراهيم عليه السلام[٤].

ويقول ابن المنذر في تلبية الجاهليين: «وكانت نزار تقول، إذا ماأهلت:

---

(١) أديان العرب في الجاهلية: ٤٧.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٥٩.

(٣) انظر الصفحة ١٩٣ من هذا الكتاب.

(٤) مرآة الحرمين: ١ / ٣١٤.

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وماملك، فيوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده»[١]. وهذه هي الوثنية التي تجعل لله شريكاً، تابعاً مملوكاً كاملاً، له الخالق الرزاق،كما حكى القرآن الكريم قولهم: ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٢]. وعندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع الكفار والمشركين يلبون، ويجعلون مع الله شركاء، كان ينهاهم عن ذلك، فيما رواه مسلم عن ابن عباس قال : (كان المشركون يقولون : لبيك لا شريك لك، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلكم قد قد؛ أي يكفي يكفي، فيقولون إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك).

يقول الشاعر :

قد ني من نصر الخبيبين قدي ليس الإمام بالشحيح الملحد[٣]

والإشارة إلى عبد الله بن الزبير. وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿ ومايؤمنُ أكثرهم بالله إلا وهُم مشركُون ﴾[٤].

وكان لكل قبيلة من القبائل العربية تلبيتها الخاصة بها، فمثلاً قبيلة عكّ كانت تجعل في مقدمة قافلة الحجيج عبدين أسودين من عبيدها، وتوكل إليهما مهمة التلبية والتهليل، فيبدآن التلبية بقولهما : نحن غرابا عكّ، وهنا يردد وفد الحجيج من خلفهم :

---

(١) أديان العرب في الجاهلية: ٤٧ .

(٢) سورة الزمر :٣ .

(٣) الاغاني: ١ / ٣٦٠.

(٢) سورة يوسف: ١٠٦ .

عك إليك عانية　　عبادك اليمانية

كيما نحج ثانية[1]

وقد ذكر عمرو بن معد يكرب أن تلبيتهم كانت على النحو الآتي :

لبيك تعظيماً إليك عمرا　　نغدو بها مضمرات شزرا

قد تركوا الأوطان خلواً صفرا [2]

والمضمرات هي الناقة النحيفة. وقوله شزرا تعني التلفت جهة اليمين وجهة الشمال.

أما قبيلة بكر بن وائل فقد أظهروا وأبدوا حسن النية، وإنهم قصدوا بيت الله الحرام لأداء نسكهم من أجل التقرب إلى الله تعالى؛ لنيل رضاه ومغفرته، ولم يكن همهم التجارة والأموال التي تدرّها عليهم وبخاصة أن أيام الموسم قد اشتهرت بالتجارة، وكان من العرب من يأتي إلى مكة المكرمة أيام الموسم بغرض التجارة، ومنهم من يأتي بغرض إحياء هذه الشعيرة التي توارثوها من زمن جدهم الخليل عليه السلام، لذلك حاول بنو بكر أن ينفوا الأغراض الدنيوية، فكانوا يلبّون في طوافهم بقولهم :

لبيك حقاً حقاً　　تعبداً ورقا

جئناك للنّصاحة　　لم نأت للرقاحة[3]

النصاحة يريد بها الإخلاص ومنها التوبة النصوح؛ أي الخالصة لله تعالى، والرقاحة تعني التجارة، والرقاح هو التاجر.

---

(١) أديان العرب في الجاهلية : ٤٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٤٧ .

(٣) أديان العرب : ٤٧ .

وتلبية بني تميم جاءت على النحو الآتي :

لبيك لولا بكر دونك يشكرك الناس ويكفرونك

ومازال منا عثج يأتونك(١)

فقد خصّ في تلبيتهم هذه قبيلة بكر بالكفر دون غيرهم من الناس، والعثج بمعنى الجماعات من الناس التي تقصد بيت الله الحرام بقصد الحج والزيارة، ووردت تلبية بني همدان على النحو الآتي :

لبيك من كل لبّوك همدان أبناء الملوك

قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاء في جميع الأملوك(٢)

لبوك : أي التزموا أوامرك واجتنبوا نواهيك، فتركوا آلهتهم من الأصنام وانتابوك، أي اتّجهوا إليك وقصدوك للنصاحة، ويرجون أن يستجيب الله تعالى لدعائهم .

وقد قسّم أبو العلاء المعري تلبيات العرب في جاهليتهم إلى ثلاثة أقسام، مسجوع ومنهوك ومشطور(٣)، علما بأن التلبية بالقصيد لم ينقلها لنا الرواة، وربما كانت موجودة، ولكنها قد تكون ضاعت ولم تصل إلينا، وماجاء من التلبية على وزن المسجوع مثل :

لبيك ربّنا لبيك والخير كله بيديك(٤)

---

(١) المرجع السابق نفسه : ٤٧ .

(٢) رسالة الغفران : ٤٩٤ .

(٣) رسالة الغفران : ٤٩٥ .

(٤) المرجع السابق نفسه : ٤٩٥ .

وجاء المنهوك على نوعين، النوع الأول الرجز مثل:

لبيك إن الحمد لك والملك لاشريك لكْ
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك[1]

فقد اعترفوا لله تعالى بالوحدانية والملك، ولكنهم أدخلوا معه جل وعلا شريكاً له، (أبو بنات) أرادوا بها الأصنام، هي بنات الله، فقد صوّر لهم كفرهم ذلك، وسبحانه الذي لم يلد ولم يولد.

وكان ماجاء بصيغة المنهوك كقولهم:

لبيك يامعطي الأمر لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر نأمل غيثا ينهمر
يطرق بالسيل الخمر[2]

والخمر: الشجر الملتف الكثيف.

والنوع الثاني من المنهوك، وهو المنسرح، وقد جاء أيضاً على نوعين؛ النوع الأول ماجتمع فيه ساكنان في آخره، كقولهم:

لبيك رب همدان من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان
نطوي إليك القيطان نأمل فضل الغفران[3]

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٤٩٥.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٤٩٥.

(٣) المرجع السابق نفسه: ٤٩٥.

وهمدان قوم من العرب، يرجع نسبهم إلى حمير، والشاحط: من شحط، أي بعد، والدان هو القريب، فقد جئنا إلى بيتك المحرم نطلب الرحمة والعفو، نطوي السباسب والفيافي بناقة قوية، شبهها بحرف السيف في القوة والدقة، وأسبغ عليها صفة أخرى هي مذعان؛ أي سهلة الانقياد لصاحبها وغير نافرة.

والنوع الثاني من المنسرح مالم يجتمع فيه ساكنان مثال:

لبيك عن بجيلة الفخمة الرجيلة

ونعمت القبيلة جاءتك بالوسيلة

تؤمل الفضيلة[1]

بجيلة رهط من القبائل العربية، وصفها بالفخامة والعظمة. والرجيلة: تعني القوة والشدة، وجاءت تؤمل في فضل الغفران والثواب.

ولقد اشتهر زيد بن عمرو بن نفيل بنزعته إلى شريعة إبراهيم عليه السلام بعد أن فارق دين قومه وعشيرته، ويروي ابن إسحاق: حدثت عن بعض أهل زيد بن عمرو بن نفيل : أن زيداً كان، إذا استقبل الكعبة داخل المسجد الحرام، قال:

لبيك حقّاً حقّاً تعبداً ورقاً عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم وقال :

إني لك اللهم عان راغم مهما تجشمني فإني جاشم[2]

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لقد مر بهذا الفج

(١) رسالة الغفران: ٤٩٥.

(٢) بلوغ الأرب: ٢ / ٢٥١.

سبعون نبياً لبوسهم العباء، وتلبيتهم شتى، منهم يونس يقول : لبيك فرّاج الكرب، لبيك، وكان موسى يقول: لبيك، أنا عبدك لديك، وتلبية عيسى: أنا عبدك بن أمتك بنت عبدك)[١].

أما عن تلبيته صلى الله عليه وسلم فقد وصفها عبد الله بن عمر بقوله: «إن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبيك اللهم لبيك ، لاشريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية) .

وقد صاغ أبو نواس التلبية شعرا في قوله[٣]:

إلهنا ما أعدلك	مليك كل من ملك
لبيك قد لبيتُ لك	لبيك إن الحمد لك
والملك لاشريك لك	ماخاب عبد سألك
أنت له حيث سلك	لولاك يارب هلك
لبيك إن الحمد لك	والملك لاشريك لك
والليل لما أن حلك	والسابحات في الفلك
على مجاري المنسلك	كل نبي وملك
وكل من أهلّ لك	سبح أو لبّى فلك
يامخطئا ما أغفلك	عجل وبادر أجلك

(١) أخبار مكه الأزرقي ١/ ٣٤.

(٢) البداية والنهاية ٥/ ١٤٣.

(٣) نفس المصدر السابق ٥/ ١٤٥.

اخـــتم بخـــيـــر عـــمـــــلك لبـــيـك إنَ الحـــمــــد لـــك
والمــلـك لاشـــــريـك لــــك والحـــمـــد والنـعـمـــة لك[1]

وجاء الإسلام ونسخ تلبيات الجاهليين، التي تحمل في ثناياها كل معاني الوثنية، ومايتبعها من ذلّ وعبودية، وخلصها من الشوائب ، وكل ماورث من الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿ وقُل الحمدُ لله الذي لم يتخذْ ولدا ولم يكُن له شريكٌ في الملك ولم يكُن له وليٌ من الذُلّ وكبِّره تكْبيرا ﴾[2].

إنشاد الشعر في أثناء الطواف :

اشتهر العرب بالفصاحة والبلاغة وقول الشعر، وكان الشعر رئتهم التي يتنفسون بها، ولسانهم الذي يعبر عن حالهم، فكانوا يقولون الشعر في أي مقام، فقد أنشد كعب بن زهير رضي الله عنه بردته في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو بالمسجد حتى في أثناء طوافهم بالبيت الحرام، كانوا يتناشدون الشعر في أطهر بقعة، حيث تغسل الذنوب وتطهر النفوس مما لحق بها من صدأ، ففي هذا الحرم الآمن قد يجيء إليه العابث اللاهي الذي جلّ همه الغزل والتعرض للطائفات من النساء، ونجد المفاخر بما حباه الله تعالى من النعم، كحال تلك المرأة التي تطوف بالبيت الحرام وهي تفتخر بأولادها قائلة :

أنـت وهبت الفـــتـيـــة الســـلاهب وهجـــمـــة يحـــار فـيـهـــا الحــــالب
وثـلـة مــــثـل الجـــــراد الـســــارب مـــتــــــاع أيام وكلٌ ذاهــــب[3]

---

(١) ديوان أبي نواس: ٤٨١ .

(٢) سورة الإسراء: ١١١ .

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ١ / ٣٢٠ .

وقد استمد الشعراء من منظر النساء، وهن طائفات بالبيت الحرام، مادة خصبة لإلهامهم، وكان هذا المنظر مصدر إلهام للشعراء من ذوي النفوس الضعيفة، الذين كان شغلهم الشاغل وهمهم الأكبر، ليس احتساب الأجر عند الله تعالى، ولكن التغزل بالنساء، مبرزين لمفاتنهن، معددين لمحاسنهن، وفي مزاحمة الطواف التي تحدث بين النساء والرجال يقول ابن العربي :

وزاحمتني عند استلامي أوانس ... أتين إلى التطوف مؤتجرات
حسرن عن أنوار الشموس وقلن لي ... تورع فموت النفوس في اللحظات
وكم قتلنا بالمحصب من منى ... نفوسا أبيات لدى الجمرات
وفي سرحة الوادي وأعلام رامة ... وجمع وعند النفر من عرفات
ألم تدر أن الحسن يسلب من له ... عفاف فيدعى سالب الحسنات
فموعدنا بعد الطواف بزمزم ... لدى القبة الوسطى لدى الصخرات
هناك من شفه الوجد يشتفي ... بما ساءه من نسوة عطرات
إذا خفن أسدلن الشعور فهن من ... غدائرها في أحف الظلمات(١)

وقد استغل العابثون اللاهون من فتيان مكة أيام الموسم للهو والعبث ومقابلة الفتيات أو التعرض لهن، وذلك بدلاً من إقامة شعائر الله وذكره في هذ الأيام المعدودات، فقد تعرض العرجي لإحدى النساء في أثناء طوافها، ووصفها بقوله :

أماطت كساء الخز عن حرّ وجهها ... وأدنت على الخدين برداً مهلهلا
من اللائي لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا(٢)

---

(١) ترجمان الأشواق : ٣٢ .

(٢) ديوان العرجي : ٥١ .

ودخلت زينب أخت الحجاج بن يوسف الثقفي الطواف مع إحدى صويحباتها، وفاح عبيرها، وتعطر الجو بعطرها الجميل، فاستفز هذا المشهد كيان الشاعر العرجي، فأنشد متغزلاً فيها :

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة عطرات

فأصبح مابين الهماء فمروة ... إلى الماء ماء الجزع ذي العشرات

له أرج من مجمر الهند ساطع ... تطلع رياه من الكفرات

تهادين مابين المحصب من منى ... وأقبلن لا شعثا ولا غبرات

أعان الذي فوق السموات عرشه ... مواشي بالبطحاء مؤتجرات

يخبين أطراف البنان من التقى ... ويقتلن بالألحاظ مقتدرات(١)

فقد أقبلت هؤلاء النسوة، وهن يمشين الهوينا، يبغين الأجر والثواب عند الله تعالى، ولكن لا تبدو عليهن آثار السفر ومعاناة قطع القفار والفيافي، فهن عطرات، عكس بقية الحجيج الذين كانوا شعثاً غبراً، وعلى الرغم من عفافهن وتسترهن من أعين الغرباء إلا أنهن يملكن لحاظاً فتاكة حباها الله تعالى بسهام قاتلة، تقضي على من تقع عليه.

واشتهر عمر بن أبي ربيعة بلهوه ومجونه، وبخاصة أيام الموسم، فقد اختلف دعاؤه وتضرعه لله تعالى عن تضرع بقية الحجيج ودعائهم الذي كانوا يدعون الله تعالى به مخلصين أن يتقبل دعاءه في أثناء طوافه كما يأتي :

أطوف بالبيت فيمن يطو ... ف وأرفع من مئزري المسبل

---

(١) المرجع السابق نفسه : ٥١ .

وأسجد بالليل حتى الصبا ... ح وأتلو من المحكم المنزل

عسى فارج الكرب عن يوسف ... يسخر لنا ربة المحمل[1]

وأحياناً قد تبث الفتاة همومها وتشتكي لقرينتها هجر الحبيب وحرقة اللوعة، وذلك في أثناء طوافهن، وتدور المحاورة التالية بينهن قالت الأولى :

لايقبل الله من معشوقة عملا ... يوماً وعاشقها غضبان مهجور[2]

فأجابتها صديقتها :

وليس يأجرها في قتل عاشقها ... لكن عاشقها في ذاك مأجور[3]

وكثيراً مايتصيد الفتى الفتاة في أثناء الطواف، ويتعلق قلبه بها، كقول الشاعر :

وبالبلد الميمون مما يلي الصفا ... فتاة كقرن الشمس أحسن من مشى

تعلقها قلبي وهي في طوافها ... تريد استلام الركن في نسوة عشا

جلت نهارا لاح في ضوء وجهها ... وأيقنت أن الله يخلق مايشا[4]

ولكن تبدل هذا الحال مع عمر بن أبي ربيعة، ففي الطواف ببيت الله الحرام يغسل الطائف ذنوبه، ويطهر نفسه من الخطايا، ويجلو عنها أي صدأ لحق بها، فقد تكاثرت ذنوبه بعد الطواف؛ لأنه لم يكن يبغي الأجر والثواب، بل كان همه تصيد الفتيات وهن طائفات :

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٨٩.

(٢) تاريخ الخميس: ١٠٧.

(٣) المرجع السابق نفسه: ١٠٧

(٤) أخبار مكة/الفاكهي: ١ / ٣٢.

يقصد الناس للطواف احتسابا وذنوبي مجموعة في الطواف[1]

أو كقوله :

وخرجت أبغي الأجر محتسبا فرجعت موفورا من الوزر[2]

وقد يكون خروجه للحج بنية التوبة ونيل المغفرة والثواب من عند الله تعالى، ولكن يتبدل فكره وحاله عندما يرى منظر الفتيات الطائفات، ويتحول الأجر والثواب إلى وزر، ثم عقاب. وأحيانا لا ينوي الحج ولا يطلبه؛ إلاّ بعد أن يتأكد أن محبوبته قد شدّت الرحال نحو الديار الحجازية المقدسة؛ لتقضي نسكها :

أومت بعينيها من الهودج ولولاها هذا العام لم أحجج

أنت إلى مكة أخرجتني ولو تركت الحج لم أخرج[3]

وبلغ بابن ربيعة اللهو والفسوق إلى درجة أنه تمنى أن تكون فريضة الحج بدلا من الحول إلى أن تكون كل يومين، وهمّه من ذلك لقاء محبوبته، وحتى تتوافر له كل أسباب العبث واللهو :

أيها الرايح ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطارا

من يكن قلبه صحيحا سليما ففؤادي بالخيف أمسى معارا

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجة واعتمارا[4]

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٣٢ .

(٢) حياة ابن أبي ربيعه : ٢ / ١٣٤ .

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٧٦ .

(٤) ديوان ابن أبي ربيعة : ١٧٦ .

وقد حدث أن عبيد الله بن قيس الرقيات صادف رقية العامرية، وهي تقبل الحجر الأسود إكمالاً لنسكها؛ فأخذته بحسنها، واستوقفه هذا المشهد ، فأنشد قائلاً:

من عذيري ممن يضن بمبذول لغيري علي عند الطواف(١)

فأوحى له من هذا المنظر وهي تقبل الحجر الأسود ما يعانيه من حرمان وكرمها على الآخرين ، بينما كان حظه منها الضن، وهو مرحلة من مراحل البخل.

ومن باب التغزل في الطائفات قول من خاطب فتاته:

قلت لها في الطواف معترضا لاتستحلي بالله سفك دمي
فكان من قولها وقد جعلت تستر ذلك الشقيق بالعنم
نحن ظباء ولا يحل لكم في الدين صيد الظباء في الحرم(٢)

وقيس الذي شغله حب ليلى حتى أفقده صوابه، ولقب بمجنونها، فعندما يئس أهله من شفائه من حب ليلى، أخذوه إلى البيت الحرام؛ ليطوف به، لعله ينسى ليلى ويتوب من حبها، فلم يرفع صوته مهللاً، ولم يجرؤ بالتلبية، بل أنشد .

ذكرتك والحجيج له عجيج بمكة والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن في بلد حرام به لله أخلصت القلوب
أتوب إليك ياربّاه مما جنيت فقد تظاهرت الذنوب

---

(١) المرجع السابق نفسه: ١٠٩.

(٢) محاضرة الأبرار: ٢/٢١٢.

فأما من هوى ليلى وحبي زيارتها فإني لا أتوب[١]

وكان أبوه يدعو في أثناء الطواف به أن يخلصه الله تعالى من حب ليلى، فهو في حرم الله وأمانه، حيث تستجاب الدعوات، وحجيج بيت الله الحرام وزواره كانوا يدعون الله تعالى في إخلاص وضراعة أن تغفر ذنوبهم، وتمحى سيئاتهم، أما هو فقد كان يسأل الله ويدعوه مخلصاً أن يحظى بلقاء ليلاه:

دع المحرمون الله يستغفرونه بمكة وهنا أن تمحى ذنوبها
وناديت أي يارب سؤلتي لنفس ليلى ثم أنت حبيبها
فإن أعط ليلى في حياتي لم يتب إلى الله خلق توبة لا أتوبها[٢]

ومن دعائه وتضرعه لله تعالى في أثناء طوافه قوله:

يارب لاتسلبني حبها أبدا يرحم الله عبدا قال آمينا[٣]

وقد سبقت الإشارة[٤] إلى أن الفتيان كانوا يعترضون طريق النساء الطائفات، وقد يكون دون سابق معرفة، أو من غير عهد قديم بهن، ولكن اختلف الحال بالنسبة لعمر بن أبي ربيعة فأصبحت الفتيات يعترضن طريقه، فهو المرغوب لا الراغب، فقد ساق شعراً على لسان جاريتين موضحاً مدى ولههن به، وشغفهن به، ومحاولتهن للتقرب منه في أثناء طوافه:

---

(١) ديوان المجنون: ٤ .

(٢) محاضرة الابرار: ٢٠٩ .

(٣) مجالس ثعلب: ١ /١٠٣ .

(٤) انظر ٢١٦-٢١٧ من هذا الكتاب.

فيم أمسى لايكلمنا … وإذا ناطقته بسرا
أية عتبي فأعتبه … أم به صبر فقد صبرا
أم حديث جاءه كذب … أم به هجر فقد هجرا
أم لقول قاله كاشح كاذب … ياليته قبرا
شاق قلبي منزل دثرا … حالف الأرواح والمطرا
شمألا تذري إذا لعبت … عاصفا أذيالها الشجرا
للتي قالت لجارتها … ويح قلبي ما دهى عمرا
لو علمنا مايسر به … ماطعمنا البارد الخصرا
وأرى شوقي سيقتلني … وحبيب النفس إن هجرا
إن نومي ما يلائمني … أجله ياأخت إن ذكرا
فأجابت في ملاطفة … أسرعت فيه لها الحورا
إنني إن لم أمت عجلا … أرتجي إن راح أو بكرا
فإذا ماراح فاستلمي إن … دنا في طوافه الحجرا
واكشفي البردين له … كي تشوقيه إذا نظرا
فأرتني مسفرا حسناً … خلته إذا أسفرت قمرا[1]

وقوله على لسان الفتاة البارد الخصرا، فالخصر: شدة البرد. قال الفرزدق:

إن آنسوا نارا يقولون ليتها … وقد خصرت أيديهم نار غالب[2]

---

(١) ديوان ابن أبي ربيعة: ١١٢.

(٢) ديوان الفرزدق: ٣٥.

وأحياناً قد تذهب المرأة إلى الكعبة المشرفة، وهي شاكية باكية من هول ماأصابها، وتطوف بالبيت الحرام وهي تأمل في الخلاص من قيود الذنوب التي كبلت نفسها، وترجو أن يطهر الله تعالى روحها مما لحق بها من دنس وخطايا، يقول محمد بن الحسين على لسان هذه الشاكية المستغيثة، التي تطوف بالبيت الحرام، ترجو رحمة رب البيت:

وطائفة بالبيت والليل مظلم ... تقول ومنها دمعها ينسجم
أيارب كم من شهوة قد رزيتها ... ولذة عيش حبلها ينصرم
أما لك يارب العباد عقوبة ... ولا أدب إلا الجحيم المضرم
فما زال ذاك القول منها تضرعا ... إلى أن بدا فجر الصباح المقدم
فشبكت بين الكف والكف صارخا ... على الرأس أبدي بعض ماكنت أكتم
وقلت لنفسي إذ تطاول مابها ... فأعيا عليها وردها المتعتم
ألا ثكلتك أمك اليوم مالكا ... جويرية ألهاك منها المكلم(١)

وكذلك قوله معبرا عن حال المرأة التي جاءت إلى الكعبة المشرفة في جنح الظلام والخلق نيام، وتناجي رب الخلق، لايغفل عن الأنام، سبحانه الذي لاتأخذه سنة ولانوم:

وعائذة بالبيت تمسك ستره ... تناجي إله العرش والناس نوم
أيا رب إني أوثقتني خطيئتي ... وأنت بما أسلفت مني أعلم
أيا لذة أبقت غموما وحسرة ... ونيران جمر حرها يتضرم
وياشهوة قد أورثتني حرارة ... تظل لها عيناي بالدمع تسجم
فما زال هجير الصغيرة ليلها ... تنادي أيا ذا العزة المتكرم

(١) أخبار مكة للفاكهي: ١ / ٣٢٠.

أما من عذاب غيـر نـار مبيـدة ... **وسـجنك من بعـد النشـور جـهنم**
وتزفـر من خـوف المقـام وهولـه ... **إلى أن بدا ضـوء من الصـبح مـعلـم**
ألا ثكلتني أم مـالـك إنني ... **شـغلت بصـوت سـد سـمعي يفـهم**
فـضيعت حـظي باسـتماعي حزينـة ... **وإظهـار مـاقـد كـان يُخبى ويكتم**(١)

وهناك من اعـيـاها الحب، فـلاذت بحـرم الله تعـالى تطوف وتشـكو ماتقاسيه من لواعج الشوق وأسباب الصبابة:

أبى أن يخفى وإن قد كتمته ... **فأصبح عندي قد أناخ وطنبا**
إذا اشتد شوقي هاج قلبي بذكره ... **وإن رمت قربا من حبيبي تقربا**
ويبدو فأفق ثم أحيا بذكره ... **ويسعدني حتى ألذ وأطربا**(٢)

طنبا: أي دق أوتاده واستقر.

وفي رحاب الله حيث الأمان والطمأنينة، والكل ينعم بالسكينة، ويهنأ برحمة مولاه، لكن هنالك من تشكو قسوة من ملك قلبها:

يطوفون بالأحجار يبغون قربة ... **إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر**
وتاهوا ولم يدروا من البتة من هم ... **وحلوا محل القلب في باطن الفكر**
فلو صدقوا في الود غابت صفاتهم ... **وقامت صفات الود للحق في الذكر**(٣)

وأخرى تناجي الرحمن الرحيم، وقد تملك حبّ الذات العليا من روحها وعقلها، تناجيه في أثناء طوافها ، وتتوق روحها إلى جنات الخلد والنعيم،

---

(١) اخبار مكة للفاكهي: ١ / ٣٢٠ - ٣٢١.

(٢) محاضرة الأبرار: ١ / ٢٥٦.

(٣) محاضرة الأبرار: ١ / ٢٥٦.

لاحبا فيها، بل وسيلة تبلغ بها هدفها ومناها، وهو التمتع برؤية الذات العليا، والنظر إلى نور وجهه الكريم، وهو المنزه عن الصفات :

يا حبيب القلوب مالي سواكا ... فارحم اليوم زائراً قد أتاكا
عيل صبري وزاد فيك اشتياقي ... وأبى القلب أن يحب سواكا
أنت سؤلي وبغيتي ومرادي ... ليت شعري متى يكون لقاكا
ليس قصدي من الجنان نعيما ... غير أني أريدها لأراكا[1]

وهنا يحس المرء بطعم الغزل الصوفي وعبيره، ونتذوق لذة العشق الإلهي، فحقاً سبقت محبته سبحانه وتعالى لخلقه محبتهم له، وتلت بعد ذلك قوله تعالى : ﴿فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يُحبُّهُم ويُحبُّونه﴾[2].

وعن صهيب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب من النظر إلى ربهم)[3].

ومثله قول القائلة وهي متعلقة بأستار الكعبة المشرفة :

أنت تدري ياحبيبي ... ياحبيبي أنت تدري
ونحول الجسم والدمع ... يبوحان بسري
ياحبيبي قد كتمت ... الحب حتى ضاق صدري[4]

---

(١) روض الرياحين: ٨٣.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) رياض الصالحين، باب بيان ما أعد الله للمؤمنين في الجنة رقم ١٧ / ١٨٩٨.

(٤) محاضرة الأبرار: ٢ / ٩٢.

وتناول أبو العلاء المعري في لزومياته النساء اللواتي يعمدن إلى تصيّد الحجيج من الرجال، وذلك في أثناء تأدية مناسكهن، فينشغل الحجيج بهن، وقد يقعوا في حبالهن:

أتت خنساء مكة كالثريا ... وخلق بالعواصم فرقديها
ولو صلت بمنزلها وصامت ... لكان البر أجمعه لديها
ولكن جاءت الجمرات ترمي ... وأبصار الغواة إلى يديها[1]

وقد حكى ميمون الحضرمي قال : (أردت الحج فقالت لي امرأة كنت أتحدث إليها : أقم فطف ببيتي سبعة أشواط، كما يطوفون بالبيت، واركض بعيرك به كما يركضون إبلهم، واحلق رأسك كما يحلقون رؤوسهم، وارم جارتنا التي تسعى بيننا كما يرمون الجمار، وقبلني كما يقبلون الركن، قال ففعلت . وقلت في ذلك:

قد كنت أجمعت حج البيت أطلبه ... والقلب عن حج ذاك البيت مشتجر
أرى خلافا ذهاب البيت أطلبه ... وها هنا بيت جمل ما له ستر
لله سبعة أطواف أطوف به ... كما يطوفون شدا لست أقتصر
ورمي جارتها جهدي كرميهم ... رؤوس الجمار التي ترمى وتبتدر
فسوف أحلق رأسي مثل حلقهم ... حتى يكروا ورأسي ماله شعر
وسوف أركض نضوي مثل ركضهم ... حتى يكروا وهو مستنقص دبر
كانت مناسكهم تقبيلهم حجراً ... ومن يقبلك لايعرض له حجر[2]

---

(١) اللزوميات: ٨٩.

(٢) الأخبار الموفقيات: ٤٩.

والنضو هو البعير الضامر، وجمعه أنضاء.

ولأبي عبد الله ، أحمد بن محمد الشيرازي، مايماثل هذا المعنى :

إليك قصدي لا للبيت والأثر ... ولا طوافي بأركان ولاحجر
صفا دمعي الصفا حين عبره ... وزمزمي دمعة تجري على أثري
وفيك سعيي وتعميري ومزدلفي ... والهدي جسمي الذي يغني عن الجزر
عرفانه عرفاني إذ منى منن ... ووقفتي وقفة في الخوف والحذر
وحجر قلبي جمار تبدها شرري ... والحرم تحريمي الدنيا عن الفكر
ومسجد الخيف خوفي من تباعدكم ... ومشعري ومقامي دونكم خطري
زادي رجائي له والشوق راحلتي ... والماء من عبراتي والهوى سفري(١)

ومن العشاق من يهدي قلبه لمحبوبه؛ ليتخذه أضحية؛ ليذبحها بدلاً من الكبش الذي افتدى به الله سبحانه وتعالى إسماعيل ابن خليله إبراهيم، على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام، كقول فتح بن شرف الموصلي :

ضحى الحبيب بقلبي يوم عيدهم ... والناس ضحوا بمثل الشاة والغنم
إن الحبيب الذي يرضيه سفك دمي ... دمي حلال له في الحل والحرم
للناس حج ولي حج إلى سكني ... تهدى الأضاحي وأهدي بمهجتي ودمي
يطوف بالبيت قوم لا بجارحه ... بالحب طافوا فأغناهم عن الحرم
يالائمي لاتلمني في هواه فلو ... عانيت منه الذي عانيت لم تلم(٢)

ويورد الأصمعي دعاء الأعرابية التي كانت تدعو به في أثناء طوافها :

---

(١) محاضرة الأبرار: ٢/٢٥٧.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢/٢١٥.

«دخلت أعرابية الطواف فقالت : ياحسن الصحبة أقبلت من بعيد أسألك سترك الذي لاتخرقه الرماح ولا تزيله الرياح»[1].

والشق الآخر لإنشاد الشعر الغزلي في أثناء الطواف هو الغناء والترنم ببعض الألحان في أثناء الطواف، وجاء الإسلام ونهى عن الكلام الفاحش في أثناء الطواف، بدليل حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : «إذا طفت بالبيت فأقلل من الكلام، فإنك في صلاة»، وعنه أيضاً : «الطواف بالبيت صلاة، فمن تكلّم فيه فلا يتكلم إلا بخير»[2].

كذلك نهى الإسلام عن اللغو والنميمية في أثناء الطواف بالبيت الحرام، قال الحسن البصري : «الطواف بالبيت خوض في رحمة الله تعالى»[3].

ذكر وهيب بن الورد : «كنت ذات ليلة عند الكعبة في الحجر أصلي، فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار يقول : إلى الله أشكو ثم إليك ياجبري لما ألقى من الطائفين حولي من تفكههم في الحديث ولغوهم، لئن لم ينتهوا عن ذلك لانتفضن انتفاضة ترجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قلع منه»[4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت الحرام على ظهر راحلته، وابن أم مكتوم رضي الله عنه آخذ بزمام ناقته، وهو ينشد شيئاً مما قد حفظه من الشعر ، والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لا ينكر عليه

---

(١) أخبار مكة للفاكهي: ١ / ٣٢١.

(٢) مخطوطة زبدة الأعمال: ٥٤.

(٣) رسالة الحسن البصري: ١٧.

(٤) الدرر الفرائد: ١ / ١٤٧٧.

ذلك، ولم يمنعه، وكان يردد :

يا حبذا مكة من وادي ... أرض بها أهلي وأولادي
أرض بها ترسخ أوتادي ... أرض بها أمشي بلا هادي[1]

وبينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستلم الركن في طوافه في عمرة القضاء كان عبدالله بن رواحه ينشد ويسمع الرسول صلى الله عليه وسلم إنشاده، فقال له عمر : يا ابن رواحه بين يدي رسول الله تقول شعراً؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : خل عنه ياعمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... أنا الشهيد بأنه رسوله
حقا وكل الخير في سبيله ... نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله[2]

وذكر الدارمي في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : (إنما جعل الطواف بالبيت ورمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله)[3].

وروى عبد الله بن أبي أوفى قال : إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يقول :

يا حبذا مكة من وادي ... أرض بها أهلي وعوادي[4]

فمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضع يده على منكبه، فقال :

---

(١) بلوغ الأرب : ٢٤١.

(٢) اخبار مكة للفاكهي : ٣٠٣.

(٣) شفاء الغرام : ٢٩٥.

(٤) اخبار مكة للفاكهي : ٣٠٣.

الله أكبر الله أكبر، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: الله أكبر الله أكبر.

ويمكن القول إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كان لم ينه باللفظ الصريح عن إنشاد الشعر في أثناء الطواف، وبخاصة الشعر الرصين، ولكنه كان يحبذ ويفضل إقامة ذكر الله تعالى في أثناء الطواف، وذلك حتى يتمّ الغرض من الطواف، والفلسفة التي شرع من أجلها، وهي إقامة ذكر الله تعالى.

وصادف أنّ عمر بن الخطاب رأى رجلاً وهو يطوف بالكعبة المشرفة، ويحمل على عنقه إمرأة عرف فيما بعد أنها زوجته، وكان ينشد في أثناء طوافه بها :

عدت لها جملا ذلولا موطأ أتبع السهولا

أعدلها بالكف أن تزولا أحذر أن تسقط أو تميلا

أرجو بذاك نائلا جزيلا(١)

وهناك من كان يحمل أمه التي حملته وهناً على وهن، ويطوف بها، وهو يبتغي من ذلك رضاها؛ لأنه وسيلة من الوسائل لمرضاة الله تعالى:

أحمل أمي وهي الحمالة ترضعني الدرة والعُلالة

هل يجزين والد فعاله(٢)

والدرة هي أول اللبن أو الكثير منه، والعلالة في الأصل هي بقية كل

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٣٠٣

(٢) المرجع السابق نفسه: ٣٠٣.

شيء، ومعناها هنا الرضعة التي تكون في منتصف النهار، وقد يطلق على كل رضعاته.

ويردد آخر في أثناء طوافه :

إني لهـا بعـيـرها المذلـل ... إن ذعـرت ركـابهـا لم أذعـر

أحملها وماحملتني أكثر[1]

ويحكي الأوزاعي أنه رأى رجلا متعلقا بأستار الكعبة المشرفة، وكان يشكو من ضيق ذات اليد، وكان يرجو الغنى من الغني المغني، حتى يذهب عنه ما ألم به من فقر وفاقه:

يارب إني فـقـيـر كـمـا تـرى ... وصـبـيـتي قـد عـروا كـمـا تـرى

وناقـتي قـد عـجـفت كـمـا ترى ... وبـردتي قـد بـليت كـمـا تـرى

فـمـا تـرى فـيـمـا تـرى ... يـامـن تـرى ولا يُـرى[2]

وحدث أن رأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يطوف بالبيت الحرام يدعى حنينا، وقد شبه طوافه بالجمل الذي يتخبط، لأنه لا يستلم الركن، ولا يكبر، ولا يذكر الله، فكان كلما رأى من يفعل فعله هذا يتساءل أحنيني هو، فقال فيه شعراً:

يطـوف بالبـيـت من يـدين بـه ... لكنـه خـارج عن البـشـر

كـأنه في طوافـه جـمـل ... يخـبط لايلوي على الحـجـر

مـثل حنين وقـد رأى فـتـى ... من أعلم الناس من بني عـمـر

---

(١) أخبار مكة للفاكهي: ٣٠٣.

(٢) الجامع اللطيف: ٦٥.

فـقـال هذا الذي أقـول بـه في حق هذا الأنيس فـازدجـر[١]

ويصف سليمان بن خليل حال حنين آخر بقوله :

يامن يطوف ببيت الله بالجسد والجسم في بلد والروح في بلد
ماذا فعلت وماذا أنت فاعله مهرج في اللقا للواحد الأحد
إن الطواف بلا قلب ولا بصر على الحقيقة لايشفي من الكمد[٢]

وكان من عادة الحمس في الحج الصوم عن الكلام، وقد تكون الفلسفة التي يرمون إليها من وراء هذه العادة الجاهلية الابتعاد عن إتيان المعاصي واللغو، ولكن جاء التشريع الإسلامي ونهى عن هذه العادة الجاهلية، ونسخها، وأبدلهم الله تعالى خيراً منها من حج ولم يفسق ولم يرفث رجع كيوم ولدته أمه.

وروى البخاري: أن أبا بكر الصديق قد رأى امرأة من الحمس لا تتكلم، وعرف أنها حجت صامتة، فنهاها عن ذلك، مشيراً إلى أن هذا من أفعال الجاهلية[٣].

وهكذا كان العرب يطوفون ببيت الله الحرام في جاهليتهم يقيناً منهم أن هذا هو حرم الله في أرضه، حيث تستجاب الدعوات، فلم يغيروا أو يبدلوا في عدد الأشواط بزيادة أو نقصان، بل أبقوا عليها كما كانت في شريعة إبراهيم عليه السلام، وهي سبعة الأشواط أو الأسابيع، لكنهم حرفوا وبدلوا في صيغة التلبية، فكانوا يرفعون عقيرتهم مهللين ملبين، يقرُّون

---

(١) محاضرة الأبرار : ٢ / ٣٥٩.

(٢) الجامع اللطيف، ابن ظهيره / ١٢٢.

(٣) أخبار مكة للفاكهي: ٢ / ٩٢.

ويعترفون لله سبحانه وتعالى بالوحدانية، ولكنهم يشركون معه جلّ وعلا آلهتهم وأصنامهم، ويجعلون ملكها بيده سبحانه وتعالى، حتى جاء الإسلام بمبادئه السمحة، ورد التلبية كما كانت عليه في شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام، كما نهى الإسلام عن القول الفاحش.

الباب الثالث

مثيرات الشوق والحنين

إلى الديار الحجازية المقدسة

شعر الحنين

نلاحظ أن شعر الحنين والشوق أكثر صدقاً، والعاطفة فيه أكثر انفعالاً. فالشوق والحنين إلى الديار الحجازية المقدّسة يلهبُ مشاعر الشاعر، وذلك لأن الشاعر يخوض التجربة بنفسه، ويكون لصيقاً بها، ويكون بمنزلة منبع يستمد منه كل أسباب النجاح والتميز، وبذا يتمكن الشاعر من أن ينقل للمتلقي أو السامع صورة حية وصادقة، ومعبرة في الوقت نفسه. وتجد هذه الصورة تجاوباً عندهم، ودليل ذلك قبولها بالرضا والاستحسان.

وعندما يرى الشاعر الأماكن الحجازية المقدسة، أو يقف عليها، تتحرك بداخله كل المشاعر الدفينة، وتجول بذاكرته ذكرى من وقف قبله من الرسل والأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين، بهذه الأماكن المقدسة والشعائر الدينية، وكيفية أدائهم لها، وهم شعث غبر، قد توجهوا إلى الله سبحانه وتعالى بكلياتهم، فتارة يتخيل منظرهم وهم يطوفون بالبيت العتيق مهللين ملبين، وتارة أخرى يراهم سعاة بين الصفا والمروة، وأحياناً يسمع أصواتهم وهم يكبرون عند رميهم للشيطان، إحياء لهذا الركن من الشعيرة المقدسة، وأسوة بخاتم الأنبياء ووالده إمام الحنفاء عليهم الصلاة والسلام أجمعين، كل هذه المشاهد تستفز مشاعر الشاعر أكثر من أي استفزاز آخر، فتثور عواطفه، وتهتاج أشواقه، ويلجأ إلى التعبير عن نفسه، وعن هذه الحالة التي اعترته بشتى الطرق والوسائل، وتأتي كلها ترجمة حقيقية لما يدور بداخله، وذلك لأن هذا الضرب من الشعر قد امتزجت به نفحات العقيدة العطرة، ومابها من نقاء وصفاء، إضافة إلى المبادئ والقيم القيمة، التي تحملها بين طياتها. وهذا خلاف ما نجده في أغراض الشعر الأخرى، التي تتمثل في

المديح والهجاء والغزل والوصف وغيرها من ضروب الشعر المختلفة، فالشاعر هنا أبعد مايكون عن الصنعة والتكلف، ولا يلجأ إلى استخدام المحسنات والزخارف اللغوية، بل تأتي الألفاظ عفو الخاطر وبصورة تلقائية، وذلك لأن كل المثيرات التي استفزت الشاعر ودفعته إلي ترجمة أحاسيسه إنما هي مثيرات تغلفها الجلالة والرهبة، وتحيط بها هالة من الإشعاعات القدسية السامية، وهنا لايجد النفاق أيّ مساحة أو مجالٍ لظهور. لذا يمكن القول إن تعبيرات الشاعر مباشرة، ولا يستطيع مقاومة الشوق إذا حنَت روحه، وتاقت إلى رؤية الأماكن المقدسة، فلا يهنأ له بال حتى يمتع ناظريه برؤية هذه الديار المقدسة، وإذا تعذر عليه الذهاب، أو لم يتمكن من الوصول ، فنجد الحسرة والألم تغلف نفسه، وتلون شعره، وقد يتمكن منه الغمّ والهمّ، ويصبح عرضة للمثيرات الخارجية ، فإذا سمع ترجيع الإبل حنَ واشتاق، وإذا سمع سجع الحمام بكى، وإذا هبّت الرياح من جهة الحجاز تلوّى من الألم، ومن شدة وجده يسهر يرعى النجوم. وإذا فقد الأمل في الذهاب بعث باشواقه الدفينة مع وفد الحجيج، علّه يجذ بعض السلوى والعزاء في ذلك، أو قد تكون محاولة منه لتحطيم الحواجز الزمانية والمكانية.

ولطالما حنّ الشاعر الجاهلي واشتاق إلى معاهد الأحبة، ووقف عندها، وأوقف رفاقه، وبكى واستبكى، فهل ياترى كان صادق العاطفة فيما ذهب إليه؟.

ويمكن القول إن الشوق مختلف بينهما، فكان الشاعر الجاهلي يحذو حذو من سبقه من الشعراء، أما الشاعر الإسلامي الذي عمر قلبه الإيمان

بالله وحبه للرسول الكريم، فكان هذا حاديه في شوقه وحنينه إلى الديار الحجازية المقدسة، فالحنين إليها يعني الحنين إلى الدار الباقية، والاستظلال تحت دوحة الأنبياء والمرسلين، التي هي وسيلة المؤمن إلى الجنة والسعادة الأبدية.

فالشاعر الإسلامي لديه من الوسائل والأدوات الفنية مايفوق نظيره الجاهلي، وطالما قدّم روحه وكيانه فدى وقرباناً. ونلاحظ أن القصيدة ماهي إلا لوحة فنية متناسقة الألوان، وهذا يدل على الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، وصدق التجربة يولد حرارة العاطفة. ونلاحظ أن الشعراء الإسلاميين قد تناولوا ذكر الديار الحجارية المقدسة، والمرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، كلٌ حسب التجربة التي عايشها، أو المثيرات الخارجية التي استفزت مشاعره، فجاءت النماذج متشابهة في بعض الأحيان ومختلفة في أحيان أخرى، مع صدق العاطفة في كل تجربة ونموذج. وجاء في مخطوطة زبدة الأعمال: «إن النفوس تتعاون في هذا الشوق فيقوى شوق بعضٍ ويضعف شوق بعض؛ أي زاد شوق القوي الإيمان على من ضعف إيمانه»(١).

وإذا دار بخاطر الشاعر المشاعر المقدسة مثل المقام، ومن قام عليه؛ ليؤذن في الناس بالحج، ويدعوهم للوفادة إلى بيت الله الحرام، فنجد أن الشوق والحنين يستبد بالشاعر. وإذا شرب من ماء زمزم تذكر ظمأ الطفل الرضيع، وتداعت إلى مخيلته صورة تلك الأم الصابرة المحتسبة لله تعالى، وقد

---

(١) مخطوطة زبدة الأعمال: ٣٩.

ضاقت صبراً ببكاء وليدها، الذي لايقوى على شدة العطش، فيحس الشاعر بهذه المعاناة؛ أي معاناة الأم ووليدها، فينقل لنا أحاسيسه، يترجم مشاعره بصدق، ولحظة وقوفه على جبل الرحمة تتزاحم الصور المباركة أمام عينيه، فترجع به الذاكرة إلى يوم الحج الأكبر، فأول مايرى صورة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وهو واقف في الموقف نفسه، وفي ذات اللحظة، وهو يخطب في الناس خطبة الوداع، ويرسي أعظم دستور وقانون للبشرية صالح لكل زمان ومكان. ومن المثيرات التي تهيج الشاعر، وتستفز مشاعره المثيرات الطبيعية، وسجع الحمام، وترجيع الناقة.

المبحث الأول

المثيرات والمهيجات الطبيعية

ذكر الديار والأطلال

تمثل الديار والأطلال مظهراً من مظاهر الطبيعة الساكنة، وهي من أهم مثيرات الشوق ومهيجات الحنين، التي لعبت دوراً كبيراً في استفزاز عواطف الشاعر وإثارة مشاعره.

ومنذ الأزل ارتبط الإنسان ارتباطاً وثيقاً بالأرض التي ولد فيها وشبّ، وينمو هذا الارتباط مع الإنسان ويكبر، وقد أذكى البعد والغربة حنين الشاعر وأشجاه، وألهب أشواقه، وكان الشاعر العربي في ديار غربته يذوب حنيناً وشوقاً إلى دياره وعشيرته، ولاينسى الأسباب والدواعي التي أدّت إلى خروجه من دياره، يقول العسكري في الحنين إلى الأوطان:

إذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتي ... فليس مكان في النُهى بمكين
من العقل أن أشتاق أول منزل ... نميت بخفض في ذراه ولين
وروض رعاه بالأصائل ناظري ... وغصن ثناه بالغداة يميني
وإني لا أنسى العهود إذا أتت ... بنات النوى دون الخليط ودوني
إذا أنا لم أرع العهود على النوى ... فلست بمأمون ولا بأمين(١)

نلاحظ حب الشاعر وحنينه إلى موطنه؛ لأن كل نفس تحنّ إلى مكان مولدها ومسقط رأسها، حيث طعمت غذاءها وشربت ماءها.

وذكر بقراط: «يداوى العليل بعقاقير أرضه، فإنّ الطبيعة تتطلّع إلى

---

(١) ديوان العسكري: ٢٣٨.

هوائها، وتنزع إلى غذائها»[1]. وذهب أفلاطون إلى: «أن غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها»[2].

ومن مظاهر حب الإنسان وطنه حرصه على أن يدفن بالأرض التي ولد فيها، من ذلك وصية يوسف على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فقد أوصى أن يرحّل تابوته، أو ينقل جثمانه، من أرض مصر إلى مقابر آبائه بفلسطين، ولكن منع أهل مصر أولياءه من تنفيذ هذه الوصية، وتوالت الأيام وتقادمت العصور، وبعث الله تعالى موسى عليه السلام، الذي قام بتنفيذ هذه الوصية، ونقل التابوت إلى الأراضي المقدسة. ويوجد قبره الآن بمدينة الخليل في فلسطين[3]. وكان ابن دارة يقيم بأرض الشام، فأوصى ربعه إن حانت منيته أو أتاه اليقين أن ينقل جثمانه ويدفن بأرض الحجاز:

خليليَّ إن حانت بحمص منيتي ... فلا تدفناني وارفعاني إلى نجد

ومرّا على أهل الجناب بأعظمي ... وإن لم يكن أهل الجناب على القصد

وإن أنتما لم ترفعاني فسلما ... على صبابة فالقور فالأبرق الفرد[4]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحن ويشتاق إلى وطنه مكة، التي هاجر منها في سبيل الله قاصداً المدينة المنورة، تنفيذاً للأمر السماوي، وحدث أن أتاه أحد الصحابة، وكان قادماً من مكة، فسأله عليه الصلاة والسلام عن مكة فرد عليه الصحابي بقوله: «تركتهم وقد حيدوا، وتركت

---

(١) مروج الذهب: ٣٩ - ٤٠.

(٢) الحنين إلى الأوطان: ٧.

(٣) ربيع الأبرار: ١ / ٣٦٤.

(٤) الوطن في الأدب العربي: ٤١.

الأذخر وقد أغدق، وتركت الثمام وقد خاض»[1]، فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن انهمرت الدموع من عينيه الكريمتين. وحيدوا؛ أي تركوا طريق الحق والصواب، والأذخر والثمام: نوع من النباتات معروفة لأهل مكة.

وكان عندما همّ بالخروج من مكة كان ينظر إلى البيت الحرام واللوعة بادية عليه من فراقه، ويكاد الألم يعتصره، فقال عليه الصلاة والسلام: (والله إنك لخير أرض الله إلى الله وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ماخرجت)[2].

وأشار القرآن الكريم إلى حب الديار والتعلق بها في قوله تعالى: ﴿**ولوْ أنَا كتبْنا عليهمْ أن اقْتلُوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركُم مافعلُوهُ إلا قليلٌ منهم**﴾[3]، فقد ساوى الله تعالى بين قتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وبين الخروج من الديار.

وبلال الحبشي صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة المنورة، كان الحنين يشده نحو مكة، وطالما تمنّى أن يعود به الزمان إلى الوراء، ويبيت ولو لليلة واحدة بوطنه مكة، ويرى نباتاتها التي أحبها، ويشرب ولو جرعة من مائها، وامتد به الحنين والشوق حتى شمل جبال مكة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفجّ وحولي أذخر وجليل؟

(١) اخبار مكة للفاكهي: ٢/٢٢٥.

(٢) اخبار مكة للأزرقي:٢/١٥٥.

(٣) سورة النساء: ٦٦.

وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل؟[١]

وابن مكتوم كان حادي ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الهجرة، فغلبه الشوق وشده نحو مكة، فأخذ يترنم ببعض الترانيم الشعرية؛ لينفس عما يجيش بصدره، وكان على يقين من أن ناقته تعاني مما يقاسيه؛ لذا حاول أن يخفف عن ناقته بعض ماتكتمه من حنين إلى وطنها، ويحثها على السير:

ياحبذا مكة من وادي ... أرض بها أهلي وعوادي
أرض بها ترسخ أوتادي ... أرض بها أمشي بلا هادي[٢]

ويحكى أن أحد خلفاء بني العباس تزوج من بدوية، وأتى بها إلى المدن، حيث النعيم والثراء والحياة الرغدة، ولكن هذه الأعرابية لم يوافق مزاجها هذا النعيم، وحنّت إلى البادية، فبنى لها قصراً فسيحاً على شاطئ دجلة، وأمر بالرعاء والأغنام أن تسرح أمامها، ولم يزدها هذا إلا شوقاً وحنيناً، وكانت تئن آناء الليل وآناء النهار، وسمعها يوماً تردد وقد اعتصرها الحنين إلى البادية:

وماذنب أعرابية قذفت بها ... صروفُ النوى من حيث لم تك ظنّت
تمنت أحاليب الرعاة وخيمةً ... لنجد فلم يقض لها ماتمنت
إذا ذكرت ماء العذيب وطيبة ... وبرد حصاه آخر الليل أنّت
لها أنّةٌ عند العشاء وأنّةٌ ... سُحيرا ولولا أنتاها لجُنّت[٣]

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٩٩.

(٢) اخبار مكة للفاكهي: ٢ / ٢٢٥.

(٣) قصص العرب: ٢/ ١٨٧

ومن مثيرات الحنين ومهيجات الشوق، التي لعبت دوراً كبيراً في استفزاز مشاعر الشاعر وعواطفه، مابقي من آثار الديار ورسوم الأطلال، وماأورده الشمشاطي من أنه: «ذكر منْ هيّجته الرسوم، فبكى بدمعه السجوم، حين عاين آثار أحبابه بعد الفراق، فتذكر أيامهم، وحنّ واشتاق، وخاطب الدار، وبكى على ماعفى من الآثار»(١)، فهذه الخيام أو المنازل التي درست، وعفا عليها الزمن، طالما اجتمعت فيها القبيلة، وحيث التقى العشّاق وتبادلوا اللحظات الجميلة. وهذه الديار نفسها قد شهدت شتات القوم وتفرقهم عند الترحال، وظعنهم الذي فرضته عليهم ظروف الحياة، فاصبحت هذه الديار بعد ظعنهم خاوية، بل مستودعاً للذكريات، يقفون عليها ليجتروا ذكرى أيام جميلة، وليالٍ خلون، ويبكي الشاعر على محبوبته وأهلها بالدمع السخين؛ لأنهم قد فارقوا ربعهم. وقد يكون بكاؤه على الدار التي صارت خراباً بعد أن كانت تعج بالحيوية والحياة. فالشاعر عندما يعمد إلى الأطلال للوقوف بها، ليس لكونها أطلالاً فقط، بل كان يقف بغرض التذكر، وعندها يكون وقوفه عليها بجسمه فقط، أما خيالهٌ فيشرد منه بعيداً إلى زمان تربّع في أحضان الماضي البعيد، وقد يكون على سبيل الوفاء لهذا المكان ومايحمله في نفسه من ذكريات حلوة لن تعود إليه أبداً.

والمعروف أن الطلل ركنٌ مهم في هيكل بناء القصيدة الجاهلية، فنجد أن الشاعر عند وقوفه على الأطلال قد تنقسم نفسه ومشاعره إلى قسمين؛ قسم يمثل الماضي الذي لايعود، ولذا يبكيه الشاعر بتوجع وحسرة، والقسم

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٨٦.

الثاني يعني حاضره الذي يعيشه ويتألم منه، لذا يعمد إلى اجترار الذكريات، فهي تمر أمام عينيه كشريط خيالي، يقول ابن قتيبة في الوقوف على الأطلال: «إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سبباً إلى ذكر أهلها الظاعنين عنها؛ إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ماعليه نازلة المدر؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أمن يكون متعلقا منه بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسُرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا أعلن أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل ، وفرز ماناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة وهزه للسماع، وفضّله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب الشعر، ولم يطل فيُملّ السامعين، ولم يقطع بالنفوس ظمأ إلى المزيد»[1]. فعندما يقف الشاعر الجاهلي على هذه الآثار الدارسة يستنطقها، ويتوهم محاورتها، ويتوقع

---

(١) الشعر والشعراء: ١ / ٢٠ – ٢١

الإجابة منها، أو الرد على كل المبهمات التي تدور بخاطره، مع يقينه التام، وتأكده سلفاً، أن هذه الأطلال لا تدري شيئاً عن أي شيء.

فقد وقف امرؤ القيس على ديار هند فتاته، حيث كان يلتقي بها وبصويحباتها، ويستمتع بلقائهن، ويشبع غروره بإعجابهن به، فقد انطبعت هذه اللحظات في ذاكرته، وعندما ساقته خطاه إلى ديارها وقف ليجتر ماضي أيام خلون إلى غير رجعة:

لمن طللٌ أبصرته فشجاني ... كخطِّ زبورٍ في عسيب يمان

ديار لهند والرباب وفرتني ... ليالينا بالنعف من بدلان

ليالي يدعوني الهوى فأجيبه ... وأعين من أهوى إليَّ روان(١)

وله أيضا عندما رأى دار محبوبته سعاد، فتفجرت مدامعه:

متى دار من سعاد تقف بها ... وتستجر عيناك الدموع فتدمعا(٢)

وبكى الأعشى، وأرسل الوابل من عينيه، عندما تعرّف آثار محبوبته في تيا:

عرفت اليوم في تيا مقاما ... بجو أو عرفت بها مقاما

فهاجت شوق محزون طروب ... فأسبل دمعه فيها سجاما(٣)

أما الأحوص فقد عاد بذاكرته إلى أيام الصبا والشباب، حيث كانت أيام اللقاء الجميلة، و احتسيا فيها كأس الودّ الصافي في تلك الديار، التي

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٨٥.

(٢) المرجع السابق: ١٠٠.

(٣) ديوان الأعشى: ٢٤٥.

أصبحت رسوما وأطلالا :

أمنزلي سلمى على القوم اسلما ... فقد هيجتما للشوق قلباً متيما

وذكرتما عصر الشباب الذي مضى ... وجده وصل صلة قد تجذما (١)

وله أيضاً :

آلا قف برسم الدار واستنطق الرسما ... فقد هاج أحزاني وذكرني نعما

فبت كأني شارب من مدامة ... إذا أذهبت همّاً أتاحت له همّا(٢)

ويعتقد المستشرق الألماني فالتر بروان : « أن الشعراء بدأوا غزلهم بمشاعر صادقة حقيقية وكامنة في نفوسهم، وتمثّل القلق النفسي لاعتقادهم أن الفرح واللهو العبث قد ذهب إلى غير رجعة »(٣).

ولم يتعرف عنترة العبسي ديار عبلة إلا بعد شك، تيقّن بعده أن هذه الآثار هي آثار ديارها، فما كان منه إلا أن استنطقها، وطلب منها أن تجيبه، ثم حيّاها على طول البعد الزماني :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

يادار عبلة بالجواء تكلّمي ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

إلى أن يقول :

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم(٤)

---

(١) شعر الأحوص الأنصاري: ١٩٥ – ١٩٦.

(٢) المرجع نفسه: ١٩٤ – ١٩٥.

(٣) مجلة المعرفة السورية العدد الرابع، ١٩٦٣.

(٤) ديوان عنترة: ٤٥.

فقد أتى الشاعر بعدد من المترادفات، كالإقواء والإقفار؛ لتأكيد الحالة التي صارت إليها هذه الديار، وحال كونها خراباً وخلاء.

ومنهم من حرص على ذكر عدد السنين التي بعد فيها عن ديار فتاته، أو عن هذه الأطلال الحبيبة إلى نفسه، كقول زهير:

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأياً عرفت الدار بعد توهم[١]

فالشاعر الجاهلي عندما يبدأ قصيدته بالبكاء على الأطلال نجده يهيئ نفسه أولاً، ثم المتلقي أو المستمع، الذي قد يكمن بداخله الإحساس نفسه، فيخلق حالة شعورية مليئة بالعواطف، وقد يكون التزامهم بالمقدمة الطللية على سبيل الالتزام بالناحية الهيكلية لبناء القصيدة الجاهلية.

وفي الجانب الآخر نجد أن الشعراء الإسلاميين قد أحدثوا بعض التغييرات على الإطار و الشكل العام في أشعارهم، فقد استبدلوا بالطلل والآثار الدراسة أسماء أماكن حجازية مقدسة، فالصرصري يعدد لنا الأماكن الحجازية المقدسة، التي تهفو نفسه وتحن إليها كالعقيق ورامة وسلع:

ذكر العقيق فهاجه تذكاره صبٌ عن الأحباب شطَّ مزاره

وهفت إلى سلع نوازع قلبه فتضرّمت بين الجوانح ناره

كلفٌ برامة ما تألق بارقٌ من نحوها إلا بدا إضماره[٢]

وذكر الديار الحجازية التي يمر بها الحاج، وهو يقوم بتأدية مناسك الحج، رددها الشعراء، وأكثروا من ذكرها، ووقفوا عندها، وخاطبوا الرفيق، على

---

(١) شرح ديوان زهير: ٧.

(١) المجموعة النبهانية: ٢ / ١٠٠.

عادة قد خلت في الشعر الجاهلي، يقول محمد بن عبد المنعم الملقب بالخيمي:

بالله إن جزت كثبانا بذي سلمٍ   قف بي عليها وقل لي هذه الكثبُ
ليقضي الخدّ من أجرامها وطرا   في ترابها ويؤدي بعض مايجبُ
وملْ إلى البان من شرقيّ كاظمة   فلي إلى البان من شرقيها أربُ
وخذ يمينا لمغنى تهتدي بشذا   نسيمه الرطب إن ضلّت بك النّجب(١)

وحمل القاضي بدر الدين ابن جماعه حادي العيس أشواقه وسلامه إلى الربوع الحجازية، والمشاعر المقدسة في ميميته:

ياسائق العيس تطوي البيد في الظلم   سلّم سلمت على سكان ذي السّلم
واقر السلام على أهل كاظمة   ورامة وأُهيل السفح من إضم
بالله أم القرى عند الحلول بها   سلم على البيت والأركان والحرم
وزمزم والصفا والمعلمين معا   ومولد المصطفى في الشعب والعلم
وانشد هنالك قلبي فهو عندهم   عسى يزول بذكري عندهم ألمي(٢)

وطالما أحبّ الشريف الرضي المشاعر المقدسة، وتعلق قلبه بها، وعندما أقعدته الظروف عن الزيارة والتمتع برؤيتها أوقف وفود الحجيج المتجهة إلى الربوع الحجازية، وسألهم أن يأخذوا عينيه معهم، حتى يلاقوا بها الديار المقدسة، وترتوي روحه من صدى دائم بعد اكتحال عينيه بها:

أقول لركب رائحين لعلكم   تحلون من بعد العقيق اليمانيا

---

(١) المجموعة النبهانية: ٣/٢١٨.

(٢) المرجع السابق: ٣/٢٥٠.

خـذوا نظري مني ولاقـوا به الحمـــ ... يونجدا وكثبـــان اللـوى والمطاليا
ومروا علـــى أبيــات حي برامــة ... وقـولوا لديغ يبتغي اليــوم راقيـــا
عدمت دوائي بالعـــراق فربمـــا ... وجدتم بنجد لـي طبيبـاً مداويـــا
وقـولا على جيـران بـالخيف من منى ... تراكـم مـــن استبدلتــم بجواريــا
ومن ورد الماء الذي كنـــــت واردا ... به ورعى العشب الذي كنت راعيـا
فـوا حزنا كم لي على الخيف شهقة ... تذوب عليها قطعـــة مـن فؤاديـــا
ترحلت عنكم إلى أمامـــي نظـــرة ... وعشر وعشـــر بعدكـــم من ورائيا(١)

فقد عدد الشاعر أسماء الأماكن المقدسة، والمشاعر الدينية؛ لما لهذه الأماكن من ارتباط وثيق بهذه الشعيرة المقدسة، وترديد الأماكن الحجازية المقدسة وذكرها يولد العاطفة الصادقة ويلهب المشاعر، فبرود العاطفة لا يجد مدخلاً ولا منفذا، وشوق الشعراء الإسلاميين أو الصوفية للأراضي الحجازية المقدسة شوق لا ينقطع ولا تحده حدود، بل يزداد مع الأيام، فنجد عبد الغفار القوصي يقول :

دعني أعـفـّـرُ جـبـهـتي بتـرابهـا ... وأقـبّلُ العـتـبـات من أبوابهـا(٢)

وذكر الأماكن المقدسة والديار الحجازية قد امتزج واختلط بالمعاني السامية الرفيعة، التي اقتبست من العقيدة قيمها ومعانيها، يقول ابن الصباغ :

ألا هل إلى وادي العقيق طـريق
فقد هاج شوقاً للديار مشـــوق
يقول وفي الأكباد منه خفـــوق

---

(١) ديوان الشريف الرضي: ٨٥.

(٢) ديوان الشريف الرضي: ٩٠.

دموعي على وادي العقيق عقيق ولي زفرة تحدو بها وتسوق

إذا ما حدا في ظلمه الليل دالج

تحركني نحو العقيق لواعج[١]

وابن معصوم يحنّ إلى الديار الحجازية، وهو بعيد عنها بالهند، ويتحسر ويتوجع من بعد المسافة بين الديار التي هو كائن فيها من غير رغبة وديار قلبه معلق بها، في قوله :

تذكر بالحمى رشأ أغنّا وهاج له الهوى طربا وغنّى

وحنّ فؤاده شوقاً لنجد وأين الهند من نجد وأينا[٢]

وله أيضاً:

لله أيامي بمنعرج اللوى حيث طوعي ومن أهوى

لم أنسه والبين يفتق بيننا فتصاعد الزفرات وهو دموعي[٣]

وعندما تذكر الصرصري الديار الحجازية اعتراه شوق جارف، أشعل النيران بين جوانحه، فأصبح يردد أسماء أماكن حبيبة إلى قلبه، طالما حنت نفسه إليها:

ذكر العقيق فهاجه تذكارهُ صبّ عن الأحباب شطّ مزارُه

وهفتْ إلى سلع نوازعُ قلبه فتضرّمت بين الجوانح نارُه

كلفٌ برامة ما تألق بارقٌ من نحوها إلا بدا إضماره[٤]

---

(١) الرياض في أخبار عياض: ٢ / ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٢) ديوان ابن معصوم: ١٤ .

(٣) ديوان ابن معصوم: ٧٠ .

(٤) المجموعة النبهانية: ٢ / ١٠٠ .

نجد الديار عند الجاهلين أطلالا قد درست بوساطة عوامل المناخ، من رياح وأمطار وغيرها، أما الديار عند الشاعر الإسلامي فهي ديار مباركة مقدسة باقية بقدرة من رفع السماء بغير عمد منذ الأزل وإلى الأبد بإذن الله تعالى، وهي من أول بيت وضع للناس؛ لممارسة العبادة فيه بصورة مشروعة، وأسماه الله تعالى البيت العتيق، في قوله تعالى: ﴿ **وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾[1] وذلك بسبب عتقه وقدمه.

وطالما ارتبط الشوق والحنين إلى الأماكن المقدسة واختلطا بالمرابع النبوية الشريفة؛ أي ارتبط ذكر مكة المكرمة بالمدينة المنورة، وذلك لارتباط هذه الأماكن المقدسة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي انجذاب القلوب وميل النفوس إلى هذا المكان المقدس أربعة معانٍ، كما ورد في مخطوطة زبدة الأعمال[2]. فالمعنى الأول: «أنه ورد أن الله تعالى أخذ الميثاق من بني آدم ببطن نعمان وبني عرفه، فاستخرجهم هنالك من صلب أبيهم، ونثرهم بين يديه، كهيئة الطير الذرّ». قوله من ظهورهم؛ أي ظهر بني آدم على حسب التوالد قرناً بعد قرن، كأمثال الذر، وركب فيهم مافهموا عن الله عز وجل ولكن يذكر ظهر آدم للعلم به.

أما المعنى الثاني فهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث قال: فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم لحجه، وقال ابن عباس في تفسيره: معناه تحن إليهم، ولو قال فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لحجّه اليهود والنصارى.

---

(١) سورة الحج: ٢٩.

(٢) مخطوطة زبدة الأعمال: ٤٠.

والمعنى الثالث : وهو أهذب منهما مذهبا، وأرقّ وأصفى مشربا، أنه جاء في الحديث : (أن الله تعالى ينظر إلى الكعبة ليلة النصف من شعبان، فتحنّ إليه القلوب من أجل ذلك)، أي تحنُّ القلوب إلى البيت الحرام بسبب نظر الله تعالى إليها.

والمعنى الرابع : أنه ورد أن الله تعالى قال للكعبة عند بنائها : إني منزل نوراً وخالق بشراً يحنون إليك حنين الحمام إلى بيضه، ويدفون إليك دفيف النسور.

وذكر الشعراء الديار الحجازية وعدّدوها وأكثروا من ترديد أسماء الأماكن والمشاعر المقدسة، وذلك لما يحسّه الشاعر من لذة في أثناء التغني والترنم بذكر هذه الأماكن، ولم ينس الشعراء أن يتناولوا كلّ مايمتّ بصلة لهذه الديار المقدسة، فذكروا ترابها ورملها وحصاها، كعادة الشعراء الذين سبقوهم، مثل أبي النصر الأسدي :

أحب الأرض تسكنها سليمى ... وإن كانت بواديها الجدوب
وما عهدي بحبّ تراب أرض ... ولكن من يحلّ بها حبيب (١)

وابن معتوق يجد رائحة لهذا التراب المبارك، تفوق أطيب الطيب، أما حصاه فيضاهي الدر النفيس :

هذا العقيق وتلك شمُ رعانه ... فامزج الدمع من عقْيانه
وانزل فثمّ معرّس أبداً ترى ... فيه قلوب العشق من ركبانه
واشمم عبير تُرابه والثم حصى ... في سفحه انتثرت عقود جمانه (٢)

---

(١) الوطن في الأدب العربي : ٢٦ .

(٢) ديوان ابن معتوق : ٥٩ .

ومنهم من وصف ثرى أرض المحبوب، وشبّه عبيرها بعبير المسك. أما ترابه فيفوق الدر النفيس نفاسة:

ياحادي اظعن إن جزت المواقيتا   فحيّ من بمنى والخيف حُيّيتا

إلى أن يقول:

والثم ثرى ذلك الوادي وحطّ به   عن الرحال تنلْ ياسعدُ ماشيتا
عهدي به وثراه بالشذا عبقٌ   كالمسك فتته الداريُّ تفتيتا
والدر من حصبائه خجلاً   كأنّ حصباءه كانت يواقيتا(١)

لمعان البرق:

أحبّ أهل الصحراء البرق؛ لأنه من بشائر الخير، فهو رسول المطر. وكعادة العرب فقد أحبوا بعض الأشياء وأصبحوا يتفاءلون بها، كما تطيروا من بعضها، وكان البرق من مصدر الفأل الحسن، فالبرق يعني السقيا (وكانوا يشيمون البرق، فإذا لمع سبعين مرة انتقلوا ولم يبعثوا رائداً؛ لثقتهم بالمطر، وإذا كان البرق عندهم وليفاً وثقوا بالمطر أيضاً)(٢). قال صخر الغي:

لشماء بعد شتات النوى   وقد بتّ أخيل برقاً وليفا
أجش ربحلاً له هيدب   يكشف للخال ريطاً كشيفاً
أرق له مثل لمع البشير   يقلب بالكف فرضاً خفيفا(٣)

وقد عدد الشاعر هنا أنواع البرق، فالوليف هو الذي يلمع لمعتين لمعتين،

(١) ديوان ابن معصوم: ٨٣.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي: ٢٤٧.

(٣) شرح أشعار الهذليين: ١/٢٩٤– ٢٩٥.

والربحل هو البرق الثقيل؛ أي المحمل بذرات الماء، وغالبا ما يبشر بالخير الوفير، أما البرق الكشيف فهو المكشوف. ومن أنواعه كذلك المستطير؛ أي المتفرق، والوميض : يعني البرق الضعيف، والخافق هو المضطرب، والخالب الذي يغش من يراه ويوهمه بقدوم المطر، ولكنه لايحمل بداخله أي مطر. وكانوا يتتبعون مواقعه وعند مساقطه يتم لقاؤهم بأحبتهم؛ لذا ربطوا بينه وبين الشوق والحنين إلى أحبابهم. كذلك ربطوا بين لمعانه وبين أيام الصبا، ومايصاحب ذلك من شوق وحنين إليها. وللبرق أسماء عديدة، ومن أشهر هذه البروق برقة ثهمد، وقد أكثر الشعراء من ذكرها كطرفة في معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(١)

وشاركه عنترة العبسي في وصف هذه البرقة نفسها بقوله :

بين العقيق وبين برقة ثهمد طلل لعبلة مستهل المعهد(٢)

فالعقيق اسم موضع، وبرقة ثهمد أيضاً اسم موضع، سمي باسم هذا البرق. ومن أسماء البروق رحرحان وثمثم الروحان وخزير.

وكان للمعان البرق أثر قوي في إثارة عواطف العشاق، وذلك لأنه لمع من ناحية سماء أرض المحبوب، فنجد عنترة العبسي قد اعترته حالة من الأرق والسهاد :(٣)

إذا خفق البرق من حيِّهم أرقتُ وبتُّ حليف السهاد

(١) ديوان طرفة : ٧٨ .

(٢) ديوان عنترة : ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر : ١٣٦ .

وحقا «في لمعان البروق أنس للمستوحش المشوق.

والهب لمعان البرق أشواق الشاعر الإسلامي، وجدد حنينه إلى البيت الحرام، عندما يلمع من جهته، فقد أصاب حسان بن ثابت بحالة من الأرق، جعلته يتحرّى عن الجهة التي ومض منها:

أرقت لتوماض البروق اللّوامع ونحنُ نشاوى بين سلع وفارع
أرقتُ له حتى علمت مكانه بأكناف نخلٍ فالتلاع الدوافع(١)

وكما كان البرق مصدراً للسهاد والأرق، نجده قد يكون سبباً للفرح، أو يخلق حالة من الطرب والنشوى، فقد رقص قلب ابن دقيق العيد فرحاً عندما ومض البرق من جهة الحجاز:

يهيمْ قلبي طربا عندما استلمح البرق الحجازيا
لا ويستميل قلبي وقد أصبح لي ثوب الحجى زيّا(٢)

وأدى لمعان البرق إلى هروب الكرى من جفن عبد الرحيم البرعي، فجفاه الطيف:

وبرق الأبرقين أطار نومي وأحرمني طروق الطيف وهنا(٣)

وشارك الشهاب محمود البرعي في المعنى، وزاد عليه بالبكاء الموجع، الذي صاحب لمعان البرق من شدة شوقه وحنينه، فذرف الدمع السخين:

إذا البرق من تلقاء كاظمةٍ عنّا أذاب الحشا وزاد الكرى عنا

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) الإفادات والإنشادات: ١٤٥.

(٣) المجموعة النبهانية: ٤ / ١٦٦.

وإذا لاح من أرجاء سلع فلا تسلْ | لمهاد الحيا سقياً ولكن سل الجفنا
فما أومض البرق اللموع برامة | فأنشأ إلا من مدامعنا المزنا
حسبناه إيماض السفور على النقا | وليس به لكنه قارب المعنى
وخلناه نار الحي أو نور أهله | وما ذلك الأعلى مساو لذا الأدنى
ولكن كتشبيه السماء وزهرها | لناظرها بالزهر والروضة الغنا
وأين الحمى منا ولكن شوقنا | جلاه لنا وهما ونحن على الدهنا
فهمنا وخلنا كل لمع سنا الحمى | وليس كذا ماكلٌ باسمة لبنى[1]

أمّا يزيد بن مفرغ فقد بكى من شدة شوقه وفرط صبابته، عندما لمع البرق هيج كوامنه:

سما برقُ الجمانة فاستطارا | لعلّ البرق ذاك يحورُ نارا
قصدت له العشاء فهاج شوقي | وذكرني المنازل والديارا
ديارٌ للجمانة مقفراتٌ | بكين وهجن للقلب ادّكارا
فلم أملك دموع العين مني | ولا النفس التي جاشت مرارا[2]

ويذكر عبد الرحيم البرعي برق الغوير، وهو اسم موضع:

أرى برق الغُوير إذا تراءى | بأقصى الشام زودني بكاء[3]

وربط الشعراء بين صوت الرعد ولمعانه:

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٤/١٨٨ - ١٨٩.

(٢) الأغاني: ١٨/٢٩١.

(٣) روض الرياحين: ٣٥٢ - ٣٥٣.

إذا لعلع البـرقَ الحـجـازي بلعلعٍ　　　تأجج نيـران الهـوى بين أضلعي[١]

والرعد مقدمة الغيث، وقد يكون علامة من علاماته، فهو البشير لما سيأتي بعده من خير وفير

يقول الأعشى:

والشـهـر يستنزل الكريم كـمـا　　　استنزل رعد السحابة السبلا[٢]

وجاء وصف لمعان البرق في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **يكادُ سنا برقه يذهبُ بالأبصار** ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ **يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت** ﴾[٤].

ومن الشعراء من اتخذ من البرق رسولا ليبلغ أشواقه وسلامه إلى محبوبته وديارها، ومعاهد صباه التي يحن إليها، فقد كلّف عنترة العبسي البرق لينوب عنه في القيام بهذه المهمة:

ويابـرق بلّغهـا الغـداة تحيتي　　　وحيّ دياري في الحمى ومضاجعي[٥]

والدعاء بالسقيا للديار وربع المحبوبة عادة جرت بها ألسنة الشعراء الجاهليين.

أما الشعراء الإسلاميون فإنهم استعاضوا عن الدعاء للديار التي تسكن فيها المحبوبة أو الأطلال الدارسة بالدعاء بالسقيا للديار الحجازية المقدسة،

---

(١) روض الرياحين في حكايات الصالحين: ٣٥٢.

(٢) ديوان الأعشى: ٩٧.

(٣) سورة النور: ٤٣.

(٤) سورة البقرة: ١٩.

(٥) ديوان عنترة: ٨١.

وللمرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. يقول ابن العربي في دعائه للديار الحجازية المقدسة بالسقيا:

ألا ثرى نجد تباركت من نجد ... سقتك سحابُ المزن جودا على جود
وحياك من أحياك خمسين حجة ... بعود على بدء وبدءٍ على عود
قطعت إليها كل قفرٍ ومهمه ... على الناقة الكوماء والجمل العود
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى ... وقد زادني مسراه وجداً على وجد[1]

أما الشاعر الإسلامي عبيد الله بن قيس الرقيات فإنه يدعو لطيبة بالسقيا:

يامن يرى البرق بالحجاز كما ... أقبس أيدي الولائد الضرما
لاح ثناه من نخل يثرب فالـ ... ـحرة حتى أضاء لنا إضما
أسقي به الله بطن طيبة فالـ ... روحاء فالأخشبين فالحرما
أرض بها تنبت العشيرة قد ... عشنا وكنا من أهلها علما[2]

وللبرق من ناحية البعد والقرب وقع خاص في نفوس العشاق؛ أي قوة إثارة البرق تكمن في مدى بعده وقربه، فكلما بعد كان أكثر إثارة وتشويقاً، وقد سئلت أعرابية: «مابال البرق البعيد أشوق من القريب؟ قالت: لأن القريب أرجا والبعيد أيأس»[3] ويصف الشريف الرضي البرق

---

(١) ترجمان الأشواق: ٩٠.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ١٥٢.

(٣) البصائر والذخائر: ١/٣٩٦ – ٣٩٧.

البعيد بقوله:

وباقـــــــر أشـــيـــمــــــه ... كـــــالبـــــرق أغــــضى ورنـا
ذكــــرني الأحـــبـــاب و ... الذكـــرى تهـــيـج الحـــزنا
من بطن مـــــرو الســـرى ... تـــؤمُ عـــســـفـــان بنـــا
وبـــالعــــراق وطــــري ... يابعــــد مــــالاح لنـــا(١)

وقد أرّق البرق البعيد الذي لمع من جهة أرض اليمن العرجي، حيث ديار ليلى فتاته، فاعتراه شوق عارم، حرّك كل مشاعره، فبكى بحرقة وألم:

هاج قلبي بـــعـــد مـــا سكـــن ... لبـــريق لاح من نحـــو اليـــمن
فاعـتـراني الشـوقُ لمـا خلتـه ... مـوهنا قـد لجَّ وهنـا والحـزن
فـالحـمى منه حـمى العـرج إلـى ... أظرب الأحـســا إلى القـصـر قـمن
تلك أوطـــانٌ لليلـــى ولنـــا ... مـا يهـيج ذا الهـوى إلا الوطـن
بات يلحـانـي رفـيـقـي أن رأى ... سنن الدمع وللدمـــع ســـنن(٢)

يعدد الشاعر بلاده وبلاد فتاته فيذكر اسم الوادي أو الموضع الذي ينسب إليه، وهو العرج، ويشير إلى الأحساء، وهي اسم موضع، وكذلك القصر. أما الأظرب فهي الروابي الصغيرة، وسنن الدمع؛ أي مجاريه.

وله أيضاً:

أرقت بسلع إن ذا الشـوق يـأرق ... لبرقٍ تبدّى آخر الليـل يخفـق
أشيم سناهُ مـن بعيـدٍ وربمـا ... تشأم البـروق من بعيد فتصـدق

---

(١) ديوان الشريف الرضي: ٦٠.

(٢) ديوان العرجي: ٣٨ – ٣٩.

فما ذقت من نوم ومازال عاملا إلى الصبح ذاك البارق المتألق
له تعتري المرء الغريب صبابةٌ وشوقٌ إلى أوطانه حين يبرق
فتنبهت لما شفني الوجد والبكا أخا للذي غالني وهو مطرق
عزوفا عن الأهواء لم يحي ليلة لشوق ولم يُرفع إلى الجنب مرفق[1]

لقد لمع هذا البرق البعيد في الثلث الأخير من الليل، فأرق هذا الصب المشتاق إلى دياره وعشيرته وأحبابه، فانتابته حالة شرود ذهني، لم يفق منها إلا على أصوات ربعه، الذين أحسوا بآهاته الحزينة، وتنهداته التي تتخللها الدموع والعبرات.

ولمهيار الديلمي في البرق:

من ناظر لي بسلع وقبا كيف أضاء البرق أم كيف خبا
نبهني وميضه ولم تنم عيني ولكن ردَّ عقلا عزبا
قرت له بنات قلبي خافقا واستردته أضلعي ملتهبا
بالبعيد لي دنا به يوهمني الصدق بريق كذبا[2]

ومنهم من ربط بين البرق والسحاب والمطر، فدعا لأرض المحبوب بها كلها كابن العربي:

عج بالركائب نحو برقة ثهمد حيث القضيب الرطب والروض الندى
حيث البروق بما تريك وميضها حيث السحاب بها يروح ويغتدي[3]

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٣٠ - ٣١.

(٢) مثير العزم الساكن: ١/٩٧.

(٣) ترجمان الأشواق: ١١٥.

واهتم أهل الصحراء بالأمطار، وذلك لظروف معيشتهم في البيئة الصحراوية الجافة؛ لذا حاولوا دراسة كل مايتعلق بالأمطار من دراسة الأنواء، ولقد أثبت العرب قدرة فائقة في مجال علم الأنواء، وتعرّفها، ومحاولة تتبع مساقط الأمطار.

الأشجار :

تعلق الشعراء بنباتات بعينها؛ لأنها ارتبطت بديارهم، لذا انطبعت صورتها في ذاكرتهم ومخيلتهم، فقد كرهت تلك المرأة البدوية التي رحلت من ديار عشيرتها إلى ديار روجها نبات السدر، وشجر النخيل، وهما من نباتات هذا الإقليم، وحنّت إلى نباتات ديارها من ضغث آلاء:

ألا لا أحب السدر إلا تنكفا ... ولا لا أحب النخيل لما بدا ليا

ولكنّني أهدي أراضي مطعم ... سقاهن ربُّ العرش مزنا عواليا

فيا صاعد النخل العشية لو أتى ... بضغث آلاء كان أشفى مابيا(١)

وطلب مجنون ليلى من رفيقيه أن يقفا معه؛ ليستمتع برائحة النرجس البري الذي عرف بطيب الرائحة :

أقول لصاحبي والعيس تهوي ... بنا بين المنيفة فالضّمار

تمتّع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرارِ(٢)

ويذكر ابن البياضي شجر الديار الحجازية معدداً أصنافه :

ياليت بذات الشّيح والضّال ... ومنبت البان من نعمان عودا لي

---

(١) معجم البلدان: ٥/ ١٤٩.

(٢) ديوان المجنون: ٦٣.

ويامراتــــع أطلالـــــي بـــذي ســـلمٍ   لهفي على مامضى من عصـرك الخالي
مالي أعللُ قلبي بالوقـــــوف علـى   منازل أقفرت منهــــم وأطــلال(١)

وهناك نوع آخر من نباتات الحجاز يسمى الفقع، وكانوا يطلقون عليه شجر الأرض، ويضرب به المثل في الذلة والضعف وقلة الشأن، فقد هجا طرفة بن العبد عبدَ عمرو بن بشر، شبهه بنبات الفقع:

فـأصـبـحـت فـقـعـاً نابتـاً بقـرارة   تصـــــوح عنه والـذليـلُ ذليـلُ(٢)

ومن شجر الحجاز أيضاً الشيح، فقد وصف الشاعر المنازل التي نبت بها الشيح والأرج، ووقف عندها وحياها تحية شوق:

حي المنـازل ذات الـشـــيح والأرج   وانشد فؤاد مشوقٍ للديار شجي(٣)

وأحب رجل الصحراء شجر السمر وظلاله الوريفة، وقد كانت أول بيعه للرسول صلى الله عليه وسلم تحت شجرة من شجر السدر، ووصفه الصرصري بقوله:

ليستفيـــق مـــن الغـــرام وكلمــــا   حجبوك عنـــه تهتكـــت أستـــاره
ماعتـراضا عن سمـر الحمى ظلاً ولا   طابت بغير حديثكـم أسمــاره(٤)

وذكر طرفه في رائيته نوعاً آخر من شجر الحجاز، وهو الطلح:

حيثمـا قـاظوا بنجـــد وشتـوا   عند ذات الطلح من ثني وقــر(٥)

---

(١) مثير العزم الساكن: ٢/١٠٢.

(٢) ديوان طرفة: ١٢٠.

(٣) المجموعة النبهانية: ٣/٥٧.

(٤) المرجع السابق: ٣٩.

(٥) ديوان طرفه: ٩٨.

وذات الطلح اسم موضع، سمي بذلك لكثرة وجود الطلح فيه.

ولقد استمد الشعراء من الشجر صوراً متعددة، فابن معصوم يسأل شجر البان عن أحبته ويستنطقه:

سل البـان عنهم أين بانوا ويممـوا ... أللجزع ساروا أم برامة خيّموا[1]

ومنهم من كان يتسلّم التحايا والسلام من شجر الحجاز، كالشيح، مع هبوب الرياح التي تؤجج نيران الهوى في صدره؛ لأنه يشم عبير معاهد صباه، حيث تكمن ذكريات الطفولة، فكلما بعد عن دياره تثير هذه الرياح بما تحمله من عبق أشواقه وصبابته:

هل كنت تعلم في هبـوب الريح ... نفسـاً يؤجج لاعـج التبريـح

أهدتك من شيح الحجـاز تحيـة ... فـاحت لها عرض الفجاج الفيح

بالله قل لي كيف نيران الهوى ... مـابين ريح في الفـلاة وشيـح[2]

ووقف الشاعر الإسلامي تحت شجر الضّال والسلم، واستظل بظلهما ليخفف عنه عناء السفر:

ياخليلـي ألما بالحمـى ... واطلبـا مجداً وذاك العلمـا

وردا مـاء بخيمـات اللـوا ... واستظلا ظلهـا والسلمـا[3]

إذاً ذكر النبات وثيق الصلة بحب الديار؛ لذا أصبحت الأشجار، وهي

---

(١) الشعر الحجازي: ٢٣١.

(٢) المجموعة النبهانية: ١/٥٩٧.

(٣) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: ٢/٢٠٩.

مظهر من مظاهر الطبيعة، من المهيجات للشوق والحنين للمعاهد والربع.

وكانت النخلة من أكثر الأشجار قربا إلى رجل الصحراء البدوي، فقد تجاوب معها، وشخّصها، وحاورها كما حاور فرسه، واشتكى إليها كما اشتكى لناقته، وقد تكون هنالك علاقة خفية تربط بين رجل الصحراء وهذه الشجرة، التي تنتمي إلى فصيلة النباتات الصحراوية، فالبيئة القاسية الجافة جمعت بينهما، ووحدت بين مصيريهما، وهو حتمية التكيف والتلاؤم مع هذه البيئة القاسية.

ذكر امرؤ القيس النخيل في قوله:

أو ماترى إظعانهن بواكرا — كالنخل من شوكان حين صرام[1]

والنخل منافعه متعددة لرجل الصحراء، فهو الظل الظليل وقت القيلولة، كما يشكل النخل الغذاء بما يحتويه من مادة غذائية قد تكون شبه متكاملة.

ومن جريده وسعفه اتخذ البدوي سكنه، وذكر محمد عبد الغني حسن أن: «النخلة مُذكرة بأرض الوطن»[2].

وحدث يوم معركة القادسية أن فقد المسلمون عدداً كبيراً من جنودهم، وجرح الكثير منهم، وكانت هناك نخلة كائنة بين موقع المعركة وبين موضع آخر، يقال له العذيب، فكأن الله سبحانه تعالى أنبت هذه النخلة في هذا الموضوع حتى يضمد تحت ظلّها هؤلاء الجنود الجرحى جراحهم، وعندما تفيا هؤلاء المقاتلون تحت ظلها اثارت عواطفهم، وشدتهم إلى أوطانهم،

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٢٣١.

(٢) دراسات في الأدب العربي والتاريخ: ٢٤٩.

وبخاصة أنهم كانوا في شدة وضيق، فصار كلّ منهم يرى هذه النخلة من زاوية معينة، فقال أحد الجنود ويدعى بجيراً:

ألا ياسلمي يانخلة بين قادس وبين العذيب لايجاورك النخل(١)

وشارك مقاتل آخر يدعى غيلان رفيقه بجيراً في الدعاء للنخلة بالسلامة:

ألا ياسلمي يانخلة بين جرعة العدى يجاورك الجمان دونك والرغل(٢)

ومن الجنود من دعا للنخلة بالسقيا كعادة العرب في الدعاء لأرض المحبوب بالسقيا:

أيا نخلة الجرعاء ياجرعة العدى سقتك الغوادي والغيوث الهواطل(٣)

وشاركه جريح آخر في المعنى نفسه بقوله:

أيا نخلة دون العذيب بتلعة سقيت الغوادي المدجنات من النخل(٤)

وهكذا نجد أن الأشجار استفزت مشاعر الشاعر، وحركت دواخله، وربط بينها وبين دياره؛ لذا عندما بعد عن دياره كان كلما شمّ رائحة نبات دياره اهتزت مشاعره، وكان للنخلة وقع خاص في حياة البدوي؛ لأنها تشاركه الحياة في البيئة الصحراوية القاسية، لذا أحبها واتخذ منها صديقاً.

الرياح والنسيم:

لعبت الرياح دوراً كبيراً في حياة العربي، الذي كان يعتمد على الأمطار، وتتبع مساقطها، لهذا درس العرب أنواع الرياح، وتعرفوا الأماكن التي تهب منها. ومن أشهر الرياح عند العرب رياح الجنوب، وهي التي

(١،٢،٣،٤) انظر الشعر كله في تاريخ الرسل / الطبرى ٣ / ٥٥٠-٥٥١.

تهب من جهة البيت الحرام، ويطلق عليها اسم اليمانية ووصفها جرير في قوله:

وحبذا نفحات من يمانية ... تأتيك من الريّان أحياناً(١)

والرياح الجنوبية رمز للخير والبشر؛ لأنها تحمل المطر بين نسماتها، ومن ثم يعم الخصب والرخاء، كقول عبيد بن الأبرص:

هبت جنوب بأولاده ومال به ... أعجاز مزن يسبح الماء دلاح
فمن بنجوته كمن بملحفة ... والمستكن كمن يمشي بقرواح
فأصبح الروض والقيعان ممرعة ... من بين مرتفق فيه ومن طاحي(٢)

أما الرياح الشمالية، فهي التي تهب من شماله؛ أي من شمال البيت، وكانوا يتشاءمون منها، وقد تكون نذيراً للشر، كقول زهير بن أبي سلمى:

فلما أن تحمّل أهل ليلى ... جرت بيني وبينهم الظباء
جرت سنحاً فقلت لها ... أجيزي نوى مشمولة فمتى اللقاء(٣)

وأطلقوا على الرياح التي تهب من أمامه اسم الصبا، كقول عبيد بن الأبرص:

كأن صبا جاءت بريح لطيمة ... من المسك لاتستطاع بالثمن الغالي(٤)

ولقد أكثر الشعراء من ذكر ريح الصبا، وقد يكون السبب في ذلك

---

(١) ديوان جرير: ١٦٥.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص: ٣٦ – ٣٧.

(٣) ديوان زهير: ٥٩.

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص: ١٤٤.

نسيمها العليل، وليونتها ورقتها، كما أنها تهب في الليالي المقمرة، قال امرؤ القيس :

إذا التفتت نحوي تضوّع ريحها ... نسيم الصبا جادت بريا القرنفل(١)

ولابن الدمينة في ريح الصبا قوله :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدا على وجد(٢)

ورياح الدبورالتي تهب من خلف البيت الحرام، فهي رياح عقيمة، لاخير من ورائها؛ لأنها عديمة المطر، أو قليلته. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نُصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدّبور)(٣).

والنكباء هي مااستدار بين هذه الجهات المختلفة، ولم يكثر الشعراء من ذكرها.

ولخص الأحوص المثيرات والمهيجات التي تستفزه وتجعله يحن حنيناً موجعاً لدياره وأهله، منها الريح ، ولمعان البرق في قوله :

أقول بنعمان وهل طربي به ... إلى أهل سلع إن تشوقت نافع
أصاح ألم يحزنك ريح مريضة ... وبرق تلألأ بالعقيقين لامع
وإنّ غريب الدار مما يشوقه ... نسيم الرياح والبروق اللوامع
وكيف اشتياق المرء يبكي صبابة ... إلى من نأى عن داره وهو طامع
أريدُ لأنسى ذكرها فيشوقني ... رفاق إلى أرض الحجاز رواجع(٤)

---

(١) ديوان امرئ القيس: ١٥ .

(٢) مثير العزم الساكن: ٩٥ .

(٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني: ٦ / ١٦٢ .

(٤) ديوان الأحوص: ١٤٥ – ١٤٦ .

وأجرى ابن العربي الحوار التالي على لسان الرياح الشمالية والجنوبية وريح الصبا:

أي ريح نسمت ناديتها ... يا شمالي ياجنوبي ياصبا
هل لديكم خبر مما بنا ... قد لقينا من هواهم نصبا
استوت ريح الصبا أخبارهم ... عن نبات الشيح عن زهر الربا
إن من أمراضه داء الهوى ... فليعلل بأحاديث الصبا
ثم قالت ياشمال خبري ... مثل ما خبرته أو أعجبا
ثم أنت ياجنوب حدثي ... مثل ما حدثته أو أعذبا
قالت الشمال عندي فرج ... شاركت فيه الشمال الأزيبا
فإلام وعلام ولما ... تشتكي الليث وتشكو الوصبا(١)

أما عنترة العبسي، فإنه يحبذ نسيم دياره ويفضله على المال والجاه والملك، فالنسيم الذي يهب عند السحر وينعش روحه بما يحمل بين نسماته من رائحة طيبة يفوق عنده كل الماديات:

برد نسيم الحجاز في السحر ... إذ أتاني بريحه العطر
ألذ عندي مما حوته يدي ... من اللآلئ والمال والبدر
وملك كسرى لا أشتهيه إذا ... ماغاب وجه الحبيب عن نظري(٢)

لقد اتخذ العشاق من الريح رسولاً بينهم وبين محبيهم، وقد يهتز الشاعر طرباً أو يذوب شوقا إذا هبت ريح من جهة أرض المحبوب، فالقطامي

---

(١) محاضرة الأبرار: ١/٣٤٥.

(٢) ديوان عنترة: ٨٩.

يستحلف ريح الحجاز بحق الذي أنشأها:

ريح الحجاز بحق من أنشاك ... ردي السلام وحيٍّ من حياك

هبي عسى وجدي يخف وتنطفي ... نيران أشواقي ببرد هواك

ياريح لولا أن فيك بقية ... من طيب عبلة مت قبل لقاك(١)

ويقول الشريف الرضي:

خذي نفسي ياريح من جانب الحمى ... فلاقى بها ليلا نسيم ربا نجد

فإن بذاك الحي حيا عهدته ... وبالرغم مني أن يطول به عهدي(٢)

وأحياناً تأتي الرياح، وهي محملة بعبق المحبوبة وتحيتها، كما حدث لشرف الدين عمر بن الفارض:

ماشممت البشام إلا وأهدى ... لفؤادي تحية من سعاد(٣)

وهناك من شخّص الرياح واستنطقها، كقول عبد الرحيم البرعي:

قفا بي بذات الأثل من أيمن الحمى ... لأنشد قلبا لا يرد بناشد

واستخبر النجدان هب لي عائدا ... بربع اللوى عن طلبتي ومقاصدي

لعل عليل الريح يهدي روائحا ... لراحة صب للصدود مكابد(٤)

وقد حملت ريح الحجاز إلى لسان الدين ابن الخطيب عبق نبات الشيح، وهو من النباتات الطيبة الرائحة، فأيقظت تباريح الشوق في نفسه:

---

(١) الدرر الفرائد المنظمة: ١٨٠.

(٢) ديوان الشريف الرضي: ٨٣.

(٣) الدرر الفرائد المنظمة: ١٩٢.

(٤) المجموعة النبهانية: ٢/١٢.

هل كنت تعلم في هبوب الريح نفسا يؤجج لاعج التبريح
أهدتك من شيح الحجاز تحية فاحت لها عُرض الفجاج الفيح
بالله قل كيف نيران الهوى مابين ريح في الفلاة وشيح(١)

وذهب جالينوس إلى أن الرياح التي تهب من جهة الديار أو الوطن فيها علاج شاف لكثير من الأمراض التي تصيب النفوس: «يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتقوت الحبة ببل المطر إذا أصاب الأرض»(٢)، فالراحة هي الراحة النفسية التي يحسها العليل عندما يستشفي مما لحق به من الأمراض.

وعاتب الصرصري ريح الصبا؛ لأنها كشفت عما بدواخله وأذاعت سرّاً كان يحتضنه بين جوانحه:

أذعت ياريح الصبا سر هوى مستتر
فرددي ماشئت من حديثهم و كرري
فذكري سكان الحي بعلة المستهتر
آه لعيش مر بين اللوى والأجفر
وزمن كان نبعا مان ربيع العمر(٣)

وقال آخر:

ويعجبني مرُّ النسيم لأنه يحدّث عن نجد حديثا له معنى
ويخبر عن زوار ليلى بأنهم رأوا عند بانات النقا وجهها الأسنى
بعيشك إن جئت الخيام فقف بها وقل لمليح الحي إني به مضنى

(١) المجموعة النبهانية: ١/٥٩٧.
(٢) الحنين إلى الأوطان: ٧.
(٣) المجموعة النبهانية ٢/١١٥.

وعرّض بذكـــري عنـده فلعلـــه يرق لمشتـــاق إلـــى ربعـــه حنـــا
متي بقبـــا تقضى منيـــة عاشـــق ويدفن في سلـــع ويمسي له سكـــنا
تملك قلبـــي حب من سكن الحمى فقلبي يهـــواه وعقلـــي بـــه جُنا
تكامل معنـــاه فأصبـــح فاتنـــا ألا يا له بدرا حوى الحسن والحسنى
عليه صلاة الله مالاح بـــــــارقٌ وماناح طيرٌ في الغصون وماغنّى(١)

وهكذا نجد أن الشعراء الإسلاميين قد حرك مشاعرهم هبوب الرياح، ومر النسيم بما يحمل بين نسماته من عبق المشاعرالمقدسة، وطيب ترابها، وحصاها، الذي يفوق أنفس الدرر واللآلي نفاسة، فيحنّ الشاعر إلى زيارة الأماكن المقدسة، ومهبط الوحي، وتتوق روحه لرؤية المرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الجبال :

تعدّ الجبال مظهراً من مظاهر الطبيعة التي استفزت مشاعر الشاعر، وحركت وجدانه، فعندما بعد حاتم الطائي عن موطنه وجدناه يحن إلى جبال طيّئ، وتشاركه ناقته حنينه إلى هذه الجبال :

حننت إلـــى الأجبال أجبـــال طي وحنت قلوصي أن رأت سوط أحمرا
فقلت لهـــا إن الطـــريق أمامنـــا وإنـــا لمحيـــو ربعنـــا إن تبســـرا
فيا راكـــب عُليـــا جديلـــة إنمـــا تسامت ضياءَ مستبينـــا فتنظـــرا(٢)

أراد بمحيو ربعنا: أي لابد أن نجده. وعُليا جديلة: اسم موضع.

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٣/١٩٩.

(٢) ديوان حاتم الطائي: ٤٧.

وعندما يحكم القدر على المحب بفراق دياره وأهله وعشيرته يكون آخر منظر تقع عليه عيناه هو الجبل، فكأنه يستودعه ويستأمنه على أهله ومعاهد أحبته، وعندما يعود بعد فرقة وشتات، ويلوح له منظر الجبل من على البعد، ويبدؤه بالتحية، ويبادله المشاعر؛ لذا شخّص الشعراء الجبال، وحاوروها محاورة الند للند، والصديق للصديق، كما حاوروا الناقة من قبل، وهذا ما كان من حال مجنون ليلى:

وأجهشت للتوباد حين رأيته ... وكبر للرحمن حين رآني

وأذريت دمع العين لما عرفته ... ونادى بأعلى صوته فدعاني

فقلت له قد كان حولك جيرة ... وعهدي بذاك الصرم منذ زمان(١)

أما جرير فإنه يحب جبل الريان، وحبه له نابع من حبه لمن سكنه:

ياحبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا(٢)

وخلع الشعراء على الجبل صوراً كثيرة، وتشبيهات بليغة، فمنهم من شبه الجبل ورسوخه في الأرض بثبات المرء وصبره على النوازل، كالحارث بن حلزة:

فلو أن مايأوي إلى ... أصاب من ثهلان فندا

أو رأس رهوة أو رؤو ... س شمارخ لهددن هدا(٣)

ومنهم من شبه النجوم في ثباتها وعدم تحركها بالجبل، كقول امرئ

---

(١) ديوان المجنون: ٣٧٥.

(٢) ديوان جرير: ٤٩٣.

(٣) معجم ماستعجم: ١/٣٤٧.

القيس

فـيـالك من ليل كـأن نجـومـــــه ... بكل مغـار الفـتل شـدت بيـذبل(١)

وشبه لبيد الجيش في ضخامته وعظمته بالجبل في قوله

كـأركـان سلمى إذ بدت وكـأنهـا ... ذُرى أجـا إذ لاح فـيـهـا مـواسل(٢)

ومنهم من أسبغ على الجبال هالة من القدسية، وأقسم بها، كأوس بن حجر في بائيته

حلفت برب الدامـيـات نحـورها ... وما ضم أجـياد اللبين وكـبكـب(٣)

واستمد الشعراءالإسلاميون المعاني القديمة نفسها التي تناولها الشعراء الجاهليون، فابن جبله تهفو روحه إلى أرض الحجار، فإذا اكتحلت عيناه بجبالها تعتريه حالة من الزهو

أسير ولي شـوقٌ إلـى أرض مكــة ... وله في الحشا والقلب مرسى ومرسح

إذا مابدت لـي شـامخـات جبـالهـا ... فإني على أهـل البسيطـة أسمـح(٤)

(١) ديوان امرئ القيس/ ١٩

(٢) ديوان لبيد ٢٦٣

(٣) ديوان أوس بن حجر ٧

(٤) الدرر الفرائد ٢/ ١٤٦٣

المبحث الثاني

الحمام رمز للشوق والحنين

لقد حظي الحمام منذ القدم بتكريم كثير من الشعوب على مللهم المختلفة، فنجد أول من أكرم الحمامة قوم نوح عليه السلام؛ لأن الحمام أول من بشر نبيهم بوجود اليابسة، وذلك بعد أن يئس من الغراب، الذي كان أرسله من قبل، فتباطأ عليه، يقول عبد الله الطيب: «إن سيدنا نوحا أرسل الحمامة، فأمعنت في البحث عن مكان يابس، فلم تجد شيئاً، ووجدت الماء محيطاً بكل مكان، فعادت، ثم إن نوحاً مكث سبعة أيام بعد ذلك، ثم أرسلها مرة أخرى، فرجعت عند المساء، وفي فمها غصن زيتون، فسرَّ سيدنا نوح من ذلك؛ وتزعم العرب أنه كافأها على حسن قيامها بما عهد إليها به، أو إنها جعلت عليه ذلك إن هي عادت بنبأ يسر»[1]. يقول أمية بن أبي الصلت:

سمع الله لابن نوح ... ربنا ذو الجلال والأفضال

حين أوفى بذي الحمامة والنا ... س جميعاً في فلكه كالعيال

فأتته بالصدق لما رشاها ... وبقطف لما غدا عثكال[2]

ومن ذلك الحين أصبحت الحمامة رمز المأوى والسلام.

وله أيضاً:

وما كان أصحاب الحمامة خيفة ... غداة غدت منهم تضمُّ الخوافيا

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: ٣/١٥٤ (وقفت على هذه الحكاية في المرشد فقط).

(٢) كتاب الحيوان: ٢/٣٢٣ – ٣٢٤.

رسولا لهم والله يحكم أمره ... يبين لهم هل يؤنس الشوب باديا
فجاءت بقطف آية مستبينة ... فأصبح منها موضع الطين جاديا
علة خطمها واستوهبت ثم طوقها ... وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا
ولاذهبا إني أخاف نبالهم ... يخالونه مالي وليس بماليا
وزودني علة طوقي من الحلي زينة ... تصيب إذا أتبعت طوقي خضابيا
وزودني لطرف العين منك بنعمة ... وأرث إذا مامت طوقي حماميا
يكون لأولادي جمالا وزينة ... ويهوين زيني زينة أن يرانيا[1]

وللحمامة مع نبي الله سليمان بن داود عليه السلام حكاية، يرويها أحمد شوقي:

كان ابن داود يقرب ... في مجالسه حمامة
خدمته عمرا مثلما ... قد شاء صدقا واستقامة
فمضت إلى عماله ... يوما تبلغهم سلامه
والكتب تحت جناحها ... كتبت لها فيها السلامة
فأرادت الحمقاء ... تعرف من رسالته مرامه
عمدت لأولها وكا ... ن إلى خليفته برامة
فرأته يأمر فيه عا ... مله بتاج للحمامة
ويقول وفوها الرعا ... ية في الرحيل وفي الإقامة
ويشير في الثاني بأن ... تعطى رياضا في تهامة

(١) المرجع السابق: ٢/٣٢٣ - ٣٢٤.

وأتت لثالثها ولم ... تستحي أن فضت ختامه

فرأته يأمر أن تكون ... لها على الطير الزعامة

فبكت لذاك تندما ... هيهات لاتجدي الندامة

وأتت نبي الله وهي ... تقول يارب السلامة

قالت فقدت الكتب يا ... مولاي في أرض اليمامة

لتسرعي لما أتا ... ني الباز يدفعني أمامه

فأجاب بل جئت الذي ... كادت تقوم له القيامة

لكن كفاك عقوبة ... من خان خانته الكرامة[1]

وأورد محمد لبيب : «أن احترام النصارى للحمام يقرب من درجة التقديس؛ لأنه يمثل عندهم روح القدس، ويقولون: إنه عندما كانوا يغسلون المسيح في نهر الأردن وهو صغير، جاءت حمامة وحطت على رأسه؛ لذلك يرسمونها على كنائسهم، وعلى صورهم الدينية»[2].

ووضع الجاهليون صورة الحمام داخل الكعبة المشرفة، وذلك دليل احترامهم لهذا الطائر.

وروى البزار في مسنده : « إن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على فم الغار، وإنَّ ذلك مما صدّ المشركين عنه صلى الله عليه وسلم، وإن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين». كما أن حمام مكة كان قد أظل الرسول صلى الله عيه وسلم

---

(١) الشوقيات: ٤ /١٦٨.

(٢) الرحلة الحجازية: ١٤٦ - ١٤٨.

يوم فتح مكة، فدعا عليه الصلاة والسلام له بالبركة. ولذا اقترن ذكر حمام الحرم بالأمن والطمأنينة، قال رؤبة بن حجاج:

فـلا وربِّ الآمنات القطن ... بمحبس الهدي وبيت المسدن(١)

وجاء في المثل: «آمن من حمام الحرم، وآلف من حمام مكة»(٢).

وحدث أن كان فخر الدين الرازي يلقي بعض الدروس على تلاميذه فسقطت حمامة بمجلسه، وكأنها تستغيث به من مطاردة الجوارح لها، فأنشد ابن عنّين يمدحه بقوله:

من نبأ الورقاء أن محلكم ... حرم دانك ملجأ للخائف

وفدت عليك وقد تداني حتفها ... فحبوتها ببقائها المستأنف

لو أنها تحبى بمال لانثنت ... من راحتيك بنائل متضاعف(٣)

ووصف أبو حاتم أنواع الحمام عند العرب بقوله: «العرب لاتعرف حمام الأمصار إنما يسمونه الخضر، وإنما الحمام عند العرب القطا والقماري والدباسي والواثين والفواخت وساق حر ونحوهم، وضروب كثيرة وحشية، والمعروف عند العرب أن الحمام هي ذات الأطواق»(٤).

وقال حميد بن ثور واصفاً للحمام مرة بساقِ حر وأخرى بالمطوقة:

وماهاج هذا الشوق إلا حمامة ... دعت ساق حر ترحة ترنما

إذا شئت غنتني بأجزع بيشة ... أو النخل من تثليث أو يلملما

---

(١) السيرة النبوية: ١/١٣٩.

(٢) مجمع الأمثال العربية: ١/١٩٥.

(٣) حياة الحيوان الكبرى: ٣٢٦.

(٤) البيان لما يحل ويحرم من الحيوان/رسالة حامعية: ٣٣٤.

مطوقة خضباء تسجع كلما دنا الصيف وانجال الربيع فأنجما[1]

وجاء في المثل: «قلدها طوق الحمامة»[2]؛ أي لزمه عمله لزوم القلادة.

وجاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿ **ولايحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهمْ بل هو شرٌ لهم سيُطوَّقُون ما بخلُوا به يوم القيامة ولله ميراثُ السماواتِ والأرض والله بما تعملُون خبير** ﴾[3].

وحدث أن باع أبو سفيان داراً له، فخاطبه عبد الله بن جحش معيّراً له بالعار الذي طوق نفسه به:

أبلغ أبا سفيان عن أمرٍ عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها تقضي بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله ربّ الناس مجتهد القسامة
اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة[4]

وللفرزدق في طوق الحمامة:

ومن يك خائفاً لأذاة شعري فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم منعوا سفيههم وخافوا قلائد مثل أطواق الحمام[5]

ومماجاء في منثور الكلام في وصف الحمام: «بهرماني العينين، عاجي

---

(١) ديوان حميد بن ثور: ٢٤.

(٢) مجمع الأمثال: ١/١٩٥.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٠.

(٤) بلوغ الأرب الآلوسي: ١/١٠٠.

(٥) الحيوان في الأدب العربي /٣٦٨+ ثمار القلوب/٤٦٦ (ولم اجدهما في ديوانه)

المنقار،أصهب القرطمين، نقطتان على أصل منقاره، سيجي الجناحين، كأنما خطا بقلمين، دري الدفتين، فضي الحقيبة والبطن والكشحين، أرجواني الساقين والقدمين، معتدل الهامة، جاحظ الحدقتين، رحب الأذنين والمنخرين، واسع الحوصلة والشدقين، محدد المنكبين والركبتين، سبط الذنب والكفين، طويل العنق والقوادم والفخذين، قصير الخوافي والساقين، عريض الصدر والدفتين والوظيفين، غليظ القصب، أجش الهدرة، منتصب الهامة، ذكي الحركة، بعيد الذرقة»(١).

وصوت الحمامة هو الذي يستفز الشاعر ويهيج مشاعره، ويذكره بأهله وعشيرته وأحبائه، فإذا كان الشاعر حزينا أحس بأن الحمامة تبكي، فيتجاوب معها، وإذا كان مسرورا شاركته هذه الفرحة، فقد أحست الحمامة بحال ابن العربي كما أحس هو بحرقتها:

حمامة البان بذات الغضا ... ضاق لما حملتيه الفضا
من ذا الذي يحمل شجو الهوى ... من ذا الذي يجرع مر القضا(٢)

وله أيضاً:

أطارح كل هاتفة بأيك ... على فنن فأفنان الشجون
فتبكي إلفها من غير دمع ... ودمع الحزن يهمل من جفوني
أقول لها وقد سحت جفوني ... بأدمعها تخبّر عن شؤوني
أعندك بالذي أهواه علم ... وهل قالوا بأفياء الغصون(٣)

(١) ديوان المعاني: ٢/١٣٥-١٣٦.

(٢) ديوان ابن العربي: ١٧٢.

(٣) ترجمان الأشواق: ١٤٤.

وعندما يسجع الحمام يكون الشوق قد تملكه وشدّه إلى أليفه، فيخاطبه عنترة العبسي:

أيا طائر البان قد هيجت أشجاني وزدتني طربا يا طائر البان

إن كنت تندب إلفا قد فجعت به فقد شجاك الذي بالبين أشجاني[1]

فالحمام دائماً من المثيرات التي تجعل الشاعر يحن لأهله ولدياره، فقد أيقظ هديل الحمامة فؤاد جران العود، وجعله يحن إلى أهله:

كأن فؤادي قد صحا ثم هاجني حمام ورق المدينة هتف[2]

ويعزى سبب بكاء الحمام الدائم إلى تفجعه على فقده العظيم منذ الأزل، فهن يبكين على الذكر الحمام، الذي يُدعى هديلاً، كان قد هلك في الزمان الماضي، كقول النابغة:

بكاء حمامة تدعو هديلا مفجعة على فنن تغني[3]

وأطلقوا على الحمام اسم بنات الهديل، نسبة إلى هذا الذكر، الذي هلك في الزمن الماضي، ويحنّ الحمام إليه، قال المعري:

أبنات الهديل أسعدن أو عدن قليل العزاء بالإسعاد[4]

ونجد الرمز بالحمامة في المنظومات الصوفية، كقول أبي الحسن، ابن الصباغ:

(١) شرح ديوان عنترة: ١٤٧.

(٢) ديوان جران العود: ١٣ - ١٤.

(٣) ديوان النابغة: ٥٦.

(٤) شرح التنوير على سقط الزند، أبو العلاء المعرى، ١/٣٠٦.

حمامة الأراك ألا خبرينا   بمن تهتفين ومن تندبينا
فقد شق نوحك منّا القلوب   فأزريت ويحك ماء معينا
تعالي نقم مأتما للعراق   وندب أحبابنا الظاعنينا
وأسعد بالنوح كي تسعدي   فإن الحزين يواسي الحزينا(١)

واستغرق هذا الصوفي في بكاء موجع، وردد بين عبراته:

أيبكي حمام الأيك من إلفه   وأصبر عنه كيف ذاك يكون
ومالي لا أبكي وأندب ما مضى   وداء الهوى بين الضلوع دفين
وقد كان قلبي قبل حبك قاسيا   وإن دامت البلوى به سيلين
ألا هل على الشوق المبرح مسعد   وهل لي على الوجد الشديد معين(٢)

وعبد الله بن أسعد، وكان يلقب بنزيل الحرمين، عندما سمع صوت الورقاء، حركت شوقه وحنينه إلى الديار الحجازية المقدسة:

وإن غنت الورقاء في الأيك أو بكت   شجتني وشاقتني إلى خير مرتع
وأغرت غرامي بالأحبة حيثما   أقاموا وهاجت لوعتي وتولعي
تذكرني جيران سلع ورامة   وخيف منى والمنحنى والأجيرع(٣)

ويستعجب ابن معصوم من نوح الحمام، ولم يتمكن منه الوجد، كما تمكّن منه:

إلام تطيل نوحك ياحمام   ولا وجد عراك ولا غرام

---

(١) جامع كرامات الاولياء: ٢/١٦٤.

(٢) المرجع السابق ٢/١٦٤.

(٣) كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين: ٣٥٢.

تبيت على الغصون حليف شجو تطارحني كأنك مستهام

وماصدعت لك البرحاء قلباً ولا أودى بمهجتك الهيام

ولو صاليت نار الشوق أمسى على خديك للدمع انسجام

ومابك بعض مابي غير أني ألام على البكاء ولا تلام(١)

(١) ديوان ابن معصوم: ٤٢٤.

المبحث الثالث

الراحلة وحنينها

الراحلة هي المطية، وسميت راحلة؛ لأن الرحل يُشدُّ عليها، وهي تشمل الجمل والناقة،وكل ما ينتعل في اللغة يسمى راحلة، قال الله تعالى: ﴿ والأنعام خلقها لكُم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكُلُون ﴾(1) كذلك قوله تعالى: ﴿ أفلا ينظُرون إلى الإبل كيف خُلقت ﴾(2). خلق الله سبحانه وتعالى الإبل، وجعل خلقها ملائماً لطبيعة الصحراء وبيئتها القاسية، فهي من أصبر الحيوانات على تحمل الجوع والعطش؛ لأنها قد تصبر عن الماء مدة عشرة أيام، وتستطيع السير مسافات طويلة، لذا اتخدها رجل الصحراء وسيلة ترحال؛ ليجوب بها الصحاري الشاسعة والفيافي المخيفة؛ ليصل إلى الأمصار المترامية الأطراف، ومنها اتخذ الأعرابي لباسه وفراشه ومسكنه، فنفعها لرجل الصحراء كثير، وأنواعها متعددة ومختلفة، لذاك نجده قرب راحلته منه حتى جلعها بمنزلة العيال، بل ظن أنها تصحبه في المحشر(3):

أبني زودني إذا يومي دنا ... في القبر راحلة برحل فاتر

للبعث أركبها إذا قيل اركبوا ... مستوثقين معا لنشر الحاشر

لذلك نجد أن للإبل فضلاً على الإنسان، ليس كفضل سائر الحيوانات من خيل وبغل وحمر وبقر؛ لأنها ركوبة، في قوله تعالى: ﴿ تحمل

---

(1) سورة النحل: 5 .

(2) سورة الغاشية: 17 .

(3) الأغاني: 1 / 336.

أثقالكم﴾[١] وأكولة: **﴿ومنها تأكلون﴾**[٢].

ومن أحسن ماوصفت به الإبل قول الجرمي: «سمعت من العرب تقول ماذكر الناس مذكوراً خيراً من الإبل، إن حملت أثقلت، وإن مشت أبعدت، وإن حلبت أروت، كل شيء عليها عيال»[٣].

وهذه الراحلة، التي طالما سافرت طلباً لديار المحبوب والفوز باللقاء والتمتع بالقرب ورؤية المحبوب، أو قطعت السهول والوديان وصولاً إلى الممدوح، وهي تمني نفسها بعطاياه، قد اختلف حالها، وتبدل همّها عند السفر إلى الديار الحجازية المقدسة والمرابع النبوية الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. فالراحلة في رحلتها القدسية هذه نراها قد زهدت في اللقاء الحسي، ورغبت عن العطاء المادي، وصارت ترنو وتصبو إلى العلا السامي والنعيم الأبدي الدائم، وروحها تحنّ إلى المقام الأعلى، فنجد أصدق صورة لللتلاحم التام والارتباط الوثيق والتمازج بين نفسية الناقة وصاحبها، فقد التقت روحاهما، وامتزج هواهما وهمهما، وأصبحا شيئاً واحداً، فحاورها محاورة الخليل لخليله، وباتت الناقة هي السلوى من الوحشة، والوحدة النفسية التي يعيش فيها رجل الصحراء؛ لأنه لا يجد من يبثه همومه إلا هذه الرفيقة، وإذا وجد من يرافقه في دربه ويصاحبه في سفره الطويل، فقد أصبحت فيهم سنة متبعة أن يخاطب ناقته، نجدهما يتبادلان الشكوى، فكلاهما يشتكي للآخر ألم الفراق من الأحباب والبعد عن الأوطان، وكلٌّ يحاول أن يخفف عن الآخر، ويهوّن عليه ما يعانيه ويقاسيه

(١) سورة النحل / ٧.

(٢) سورة النحل / ٥.

(٣) كتاب المنمق: ٩٥.

من دواعي الحنين، جاء في المثل: «حنين البعير المفارق أنس لكل صب وامق»[1] تناول إبراهيم الكاتب هذا المعنى في قوله:

باتت تشوقني برجع حنينها ... وأزيدها شوقاً برجع حنيني
نضوين مقترنين بين تهامة ... طويا الضلوع على جوى مكنون
لو خبرت عني القلوص لخبرت ... عن مستقر صبابة المحزون[2]

فقد استفز كل منهما عواطف الآخر، وكلاهما اهتاج حنينه لحنين الآخر، وأصبحا متماثلين في المعاناة، واتحدت لغتهما.

وقد عرف عن الناقة تعلقها بحوارها، جاء في المثل: «حرك لها حوارها تحن»[3]، ويقال للذي يتذكر بعض أحزانه فيهتاج لذلك. ولازم حنين الشاعر إلى أهله وعشيرته ودياره ذكر الناقة، وقد استمد الشعراء من تلفت الناقة وراءها بحثاً عن حوارها، وقد يكون هذا التلفت مصحوباً بصوت حزين في الغالب الأعم، وقد يكون بدون صوت، استمدوا من هذا النظر مادة ثرَّة؛ ليعكسوا مايدور بدواخلهم، يقول أبو العلاء المعري: «والإبل أكثر افتناناً في الأصوات؛ لأن من أصواتها الحنين، والأصيط، والسجع، والتحوب، والعجيج، والجرجرة، والهدر، وأصنافه: الفحيح، والكتيت، والكشش، والقصيف، والقرقرة، والزفد، والشحشحة، والقلج، ومن أصواتها: الرغاء، والبغام»[4].

(١) الزهرة: ٢٤٣١.

(٢) مثير العزم الساكن: ١٣٣.

(٣) الحيوان في الأدب العربي: ٤٨+ مجمع الأمثال الينسابورى / ٢٥١.

(٤) رسالة الصاهل والشاحج: ٨٩.

والأصيط والسجع يطلق على صوت الناقة والحمامة، ويعني ترديد الصوت على وتيرة واحدة، ومنه جاء سجع الكلام، وهو الذي تكون فيه قافية كقافية الشعر، ولكن لا وزن له، وهو من المحسنات البديعية، والتحوّب، والعجيج في اللغة: رفع الصوت أو الصياح، أما الجرجرة: فهو الصوت الذي يحدثه البعير أو يردده عند الغضب أو الاستياء، والهدر من أصوات البعير والحمام أيضاً، ويعني: ترديد الصوت في الحنجرة. والفحيح يطلق أيضاً على صوت الأفعى، أما الكتيت والكشيش فهما بمعنى واحد، وهو صوت غليان الشراب، والقصيف: يعني شدة الصوت، والقرقرة هو الهدير، ويطلق أيضاً على الضحك بصوت عالٍ، والزفد يعني الإكثار من الشيء.

وقد وصف صفي الدين الحلي صوت ناقته التي رافقته في رحلته إلى البيت الحرام:

إذا وخطتها الشمس سال لعابها وإن سلكتها الريح طال هديرها(١)

وشبه الشعراء صوت المغنية الحزين بصوت الناقة وهي تبكي على فقد حوارها، كقول طرفة بن العبد(٢):

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تُشدد
إذا رجّعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردي

والظئر. لغة: الناقة التي لها ولد، والربع: ماولدته في أول نتاج لها.

أما ناقة الفرزدق فقد بكت من شدة حنينها إلى الديار والربع:

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي: ٩٥.

(٢) ديوان طرفه: ٥٠٦.

وليلة بتنا بدير حسان نبهت ... هجودا وعيسا كالحسيان ضمراً
بكت ناقتي ليلاً فهاج بكاؤها ... فؤادا إلى أهل الوديعة أصدرا
وحنّت حنيناً منكراً هيجت به ... على ذي هوى من شوقه تنكرا
فبتنا قعودا بين ملتزم الهوى ... وناهي جمان العين أن يتحدرا
تروم على نعمان في الفجر ناقتي ... وإن حنّت كنت بالشوق أعذرا(١)

فقد نبهت الناقة ببكائها وحنينها صاحبها، فاهتاجت عواطف الشاعر الدفينة، وانهمرت دموعه الحبيسة. وقد يفوق حنين الشاعر حنين الناقة فيبالغ في وصف ألمه عند الفراق، ويشير إلى أن ألمه يفوق حنين الناقة، التي أضلّت حوارها أو فارقت ديارها(٢):

فما وجدت كوجدي أم سقب ... أضلّته فرجّعت الحنينا

والسقب هو حوار الناقة، والرجيع هو ترديد الصوت، والحنين هو صوت المتوجع.

يقول الشمشاطي: «وإذا رجعت الإبل الحنين كان ذلك أحسن صوت يهتاج له المتفارقون، كما يهتاجون لنوح الحمام، وللمع البرق، ولهبوب الرياح من نحو أرض الحبيب»(٣).

وتتجاوب الناقة مع صاحبها، فهي تبادله العواطف، وكثيراً مايتّحد

---

(١) ديوان الفرزدق: ١/٣٤٥.

(٢) شرح المعلقات السبع: ١٨٩.

(٣) الأنوار ومحاسن الأشعار: ١٨٦.

هوى الشاعر وحنينه وشوقه مع هوى ناقته وشوقها وحنينها، فنجد عبيد بن الابرص يتجاوب مع ناقته، أو ناقته تتجاوب معه(١):

فقلت لها لاتضجري إن منزلاً نأتني به هند إليّ بغيض
دنا منك تجواب الفلاة فقلصي بما قد طباك رعيه وخفوض

والأرض الخفوض هي الأرض المتسعة، ومفردها خفض ، وجاء في القرآن الكريم: ﴿ واخفضْ لهما جناح الذلّ من الرحمة ﴾(٢).

ويقول الشريف الرضي في المعنى نفسه:

أقول وقد حنّت بذي الأثل ناقتي قري لا ينل منك الحنين المرجع
تحنّين إلا أنّ بي لا بك الهوى ولي لا لك اليوم الخليط المودع
وباتت تشكّى تحت رجلي ضمانة كلانا إذا يا ناق نضو مفجع
أحسّت بنار في ضلوعي فأصبحت يخبّ بها حر الغرام ويوضع(٣)

ويشارك الصمة القشيري ناقته في كتمان الشوق، وإخفاء الحنين ، الذي يعصر نفسه، ولكنه يصارحها بعلمه بما تكتمه عنه، يقيناً منه أن كلاهما لابد من أن يصرح بما يدور بدواخله يوماً ما:

وحنت قلوصي آخر الليل حنّة فيا روعة ماراع قلبي حنينها
فقلتُ لها حنّي فكل قرينة مفارقها لابد يوماً قرينُها
فقلت لها حني رويداً فإنّني وإياك نخفي عولة سنبينها(٤)

(١) ديوان عبيد بن الأبرص: ٨٠.

(٢) سورة الإسراء: ٢٤.

(٣) ديوان الشريف الرضي: ٥٠.

(٤) مثير العزم: ١٣٢.

العولة هي رفع الصوت بالبكاء، وقد وردت في بعض الروايات لوعة.

أما أمّ الملثم الهذلية، فقد أشبه حالها حال القشيري:

وحنّت قلوصي بعد هدء صبابة ... فيا روعة ماراع قلبي حنينها
حنت في عقاليها وشبّ لعينها ... سنا بارق يسري فجُنّ جنونها
فقلت لها صبراً فكل قرينة ... مفارقها لابد يوماً قرينها
ومابرحت حتى ارعوينا بصوتها ... وحتى انبرى منّا معين يعينها
وقلت لها حنّي رويدا فإنني ... وإياك نبدي عولة سنبينها[1]

أي مازالت على تلك الحالة من الحنين والبكاء على مفارقة الديار والعشيرة، حتى تجاوبت معها مشاعر الحاضرين، وبرز من بينهم من غلبه أمره، ولم يستطع كتمان مايدور بدواخله، وشاركها في توجعها الذي عبرت عنه بالبكاء.

ولكن تبدّل الحال مع عروة بن حزام، فقد اختلف هواه وهوى ناقته، فكل منهما يشدّه شوقه إلى جهة مغايرة لجهة الآخر، فهو يحنّ ويشتاق إلى العراق، لذا يرنو بطرفه نحوه، أما ناقته فحنينها يحدو إلى جهة اليمن[2]:

هوى ناقتي خلفي وقُدّامي الهوى ... وإني وإياها لمختلفان
هواي عراقي وتثني زمامها ... لبرقٍ إذا لاح النجوم يمان

فعروة وناقته اتفقا في الهوى، واختلفا في الجهة، وهذا خلاف ما نجده عند الشعراء الإسلاميين، فالهوى متّحد بين الناقة وصاحبها لاتحاد الغاية،

---

(١) شاعرات العرب: ٣٨٩.

(٢) ديوان عروة بن حزام: ١٢-١٣.

ويصور لنا البرعي تمازج هواه وهوى ناقته[1]:

قل للمطايا اللّواتي طال مسراها ... من بعد تقبيل يمناها ويسراها
ماضرها يوم جدّ البين لو وقفت ... نقصٌ في الحي شكوانا وشكواها
حملت بعض ماحملت من حرق ... مااستعذبت ماءها الصافي ومرعاه
لكنها علمت وجدي فأوجدها ... شوقا إلى الشام أبكاني وأبكاها
ماهبّ من نجد نسيمُ صبا ... للغور إلا وأشجاني وأشجاها
ولاسرى البارق المكي مبتسما ... إلا وأسهرني وهنا وأسراها

وتعرض عبد الله بن الزبير لما يماثل هذا الموقف، فقدهيّجت القلوص صبابته، وأرادت أن ترجعه إلى الوراء؛ أي لما تريد، ولكنه أبى الخضوع لرغبتها،و قرر أن يمضي قدماً لما يريد، وهانكاد نحسّ أن الناقة التي يتحدث عنها الشاعر هي نفسه التي أضناها الهوى:

حنت قلوصي وهنا بعد هدأتها ... فهيجت مغرما صبّا على الطّرب
حنّت إلى خير من حث المطي ... له كالبدر بين أبي سفيان والعتب
تذكرتُ بقرى البلقاء نائلة ... وأن ألاقي أبا حسّان من أدب
حنّت لترجعني خلفي فقلت لها ... هذا أمامك فالقيه فتى العرب
لايحسب الشرّ جاراً لا يفارقه ... ولا يعاقب عند الحلم بالغضب[2]

وكثيراً مايلجأ الشاعر إلى مخاطبة حادي الركب، ويطلب منه أن يترفق قليلا؛ لأنه يمسك بفؤاده وليس بزمام ناقته، وهذا ما كان من حال شرف

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ٢٦٠.

(٢) كتاب الأغاني: ١٤ / ٢١٦.

الدين عمر بن الفارض:

خفف السير واتئد ياحادي ... إنما أنت سائق بفؤادي
ماترى العيس بين سوق وشوق ... لربيع الربوع غرث صوادي
لم تبق لها المهامه جسماً ... غير جلدٍ على العظام بوادي
وتحفت أخفافها فهي تمشي ... من جواها في مثل جمر رماد
وبراها النَّوى محلّ بُراها ... خلها ترتعي ثمام السواد
شفَّها الوجدُ إن عدمت دواها ... فاسقها الوجد من جفار المهاد
واستبقها واستبقها فهي مما ... تترامى به إلى خير وادي(١)

والناقة في رحلة سيرها إلى الديار الحجازية المقدسة لا تشتكي من طول المسافة، ولا مخاطر الطريق ووعورته، ولاتحسّ بالملل، ولاتصاب بالنصب، ولكنها تعدو في خطوات ثابتة وسريعة، وتقطع الفيافي الوعرة، والوهاد والوديان في همّةٍ عالية ونشاط وحيوية متدفقة، فهي في أمان الله ورسوله؛ لأن إلى الله تعالى قصدها وغايتها، يقول الإمام الصرصري:

سارت العيس يرجعن الحنينا ... يجاذبن من الأشواق البرينا
داميات من حفى أخفافها ... تقطع البيد سهولاً وحزونا
وعلى طول طواها حرمت ... عشبها الخضر والماء المعينا
كلما جد بها الوجد إلى ... غايةٍ لم تدرها إلا الظنونا(٢)

العيس في اللغة: البيض من الإبل، التي خالط بياضها شيء من الشقرة.

---

(١) الدرر الفرائد، الجزيري، ١/ ١٩٠.

(٢) ديوان الصرصري: ٢٠٩ – ٢١٠.

ويتناول عبد الرحيم البرعي الوقت الذي تشدّ فيه الرحال إلى الديار الحجازية المقدسة، فمنهم من يسير بالرواح، والبعض في الصباح الباكر، ولاتقف الهاجرة حجر عثرة في طريق من شدّة الشوق إلى التمتع بزيارة المشاعر المقدسة، وقد تشقُّ الراحلة سواد الليل الدامس، ولاتكترث بأهواله ومخاطره.

ياناز لاً بربى الأراك عـــداك مـــا — حملت من ولهي وطول تذكــري

سل جيرة الجُرعا غداة غدت بهم — بزل الركائب في الفريق المصحـر

هل جددوا عهداً بمعهـــد رامـة — أم طنبوا في الشعب شعب العرعر

يخرجن من حجب السراب سرادقاً — مــابين طيبــة والمقــام الأكبــر

ويلحن في لجج الظـــلام ضوامــر — شوقاً إلــى المزمــل المدثــر[1]

وكان الحال كذلك بالنسبة للقاضي أبي عطية، ففي رحلته القدسية هذه قاصداً الأماكن المقدسة، التي وقف عليها قبله رسل الله أجمعين، عليهم الصلاة والسلام، ملبين محرمين، شعثاً غبراً، يبتغون مرضاة الله تعالى، فكلّ مايلاقيه في سبيل هذه الزيارة من مشقة وتعب يهون عليه، فهو يستمدّ القوة والمقدرة على الصبر؛ لقطع الفيافي الوعرة، والقفار المخيفة، والليل حالك مظلم، ويجوب الصحاري، والنهار قائظ، بقلب عامر بحبّ الله تعالى، فهو ينشد غاية سامية، ولقاء روحياً يزيل عن نفسه الصدأ، ويغسل مالحق بها من أدران وخطايا:

ألا أيها الليل البطـــيء الكــواكــب — متى ينجلي صبــحٌ بلـيل المــآرب

---

(1) المجموعة النبهانية: ٢/ ٩٧.

وحتى متى أرعى النجوم مراقبا فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسي أن أرى الركب سائراً وذنبي يقصيني بأقصى المغارب
ولافزت من نيل الأماني بطائل ولاقمت في حق الحبيب بواجب
فكم حدّثتني النفسُ أن أبلغ المنى وكم عللتني بالأماني الكواذب(١)

أما الشاعر الجاهلي امرؤ القيس فقد بدأ رحلته إلى معاهد الأحبة ليلاً، والليل يعني الظلام؛ لذا تحف به الأخطار من كل جانب:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي(٢)

ويستمر في وصف رحلته إلى أن يقول:

فيالك من ليل كأنّ نجومه بكل مغار الفتل شدّت بيذبل
ووادٍ كجوف العير قفرٍ قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيّل

ولم تكن الظروف الطبيعية وحدها تقف حجر عثرة أو عائقاً أمام رغبة العاشق لزيارة معاهد الأحبة، فقد كان البعض يعاني من ظلم الحكام وجبروتهم ومحاولتهم المخفقة لمنع الحجيج من تأدية الفريضة، كما حدث لابن معصوم عندما أراد زيارة البيت الحرام والروضة الشريفة وكان يتخذ من الهند دار إقامته:

إذا امتطيت الفلك مقتحم البحر ووليت ظهري الهند منشرح الصدر
فما لمطلبك الهند إنْ ضاق صدره علــى يدٍ تقضيني ولا أمر
ألم يصغ للأعداء سمعاً وقد غدت عقار بهم نحوي بكيدهم تسري

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٤ /٤٤٧.

(٢) شرح المعلقات السبع: ٦٢.

فأوتر قوس الظلم لي وهو ساخطٌ		وسدّد لي سهم التغطرس والكبر
وسدّ علي الطرق من كل جانب		وهمّ بما ضاقت به ساحة الصبر
إلى أن أراد الله إنفاذ أمره		على الرغم منه في مشيئته أمري
فرد عليه سهمه نحو نحره		وقلد بالنعماء من فضلها نحري
وأركبني فلك النجاة فأصبحت		على ثبج الدأماء سابحة تجري(١)

ولابن معصوم أيضاً في وصف الرحلة التي قام بها من أجل الحج والعمرة:

يؤمُّه الوفد من عرب ومن عجم		ويسيرون له البيد السباريتا
يطوون عرض الفيافي طول ليلهم		لايهتدون بغير النجم خريتا
من كلّ منخرق السربال تحسبه		إذا تسربل بالظّلماء عفريتا
لايطعم الماء إلا بلّ غلته		ولا يذوق سوى سدّ الطوى قوتا
يفري جيوب الفيافي في كلّ هاجرة		يماثل الضب في رمضائها الحوتا
ترى الحصا جمرات من تلهبها		كأنما أوقدت في القفر كبريتا
أجاب دعوة داع لا مردّ لها		قضى على الناس حج البيت توقيتا
يرجو النجاة بيوم قد أهاب به		في موقف يدع المنطيق سكيتا
فسار والعزم يطويه وينشره		ينازل البين تصبيحا وتبييتا
حتى أناخ على أم القرى سحرا		وقد نضا الصبح للظلماء إصليتا(٢)

وعندما اصطحب الأعشى ناقته في رحلته إلى ممدوحه بدأت سيرها

---

(١) ديوان ابن معصوم: ١٧١-١٧٢

(٢) المرجع السابق: ٨٢-٨٣.

بقوة ونشاط وهمة عالية، وصارت تعدو وكأنها حمار وحشي، ولكن سرعان مادبّ الملل إلى نفسها، وشكت إلى صاحبها متذمرة من طول المسافة، وماأحست به من نصب، وما بذلته من جهد فقال على لسان حالها:

تراها تشكو إليّ وقد آ لت طليحا تخدي صدور النعال
نقب الخف للسرى فترى الأنسـ اع من حل ساعة وارتحال
أثرت في جناجن كإران الـ ميت عولين فوق عوج رسال(١)

وعندما أحسّ صاحبها بمللها، وعدم رغبتها في متابعة هذه الرحلة الطويلة الشاقة، صار يمنّيها بما ستناله من عطايا ممدوحه، الذي عُرف بالنوال والندى؛ أي قد يكون الحافز عطاء ملك، أو راحة من عناء سفر، أو ماء يروي بعد طول صدى:

ولاتشتكي إلي وانتجعي الأسـ ود أهل الندى والفعال(٢)

أما الناقة في رحلتها القدسية إلى الديار الحجازية المقدسة والمرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فلا يتسرب الملل إلى نفسها، ولاتحتاج إلى من يشحذ هممها أو يغريها ويمنيها بالنوال؛ لأنها تدري سلفاً بالفوز العظيم. يقول الشهاب محمود واصفاً حال ناقته في طريق رحلتها إلى الديار الحجازية المقدسة:

قد براها جذب البرى والأذمة وثناها طول السرى فهي رمه
وطواها على الطوى قطعها البيـد وإنهاء مهمهٌ بعد مهمه

(١) ديوان الأعشى / ١٦٦.

(٢) المجموعة النبهانية: ٣/ ٢٤١.

ولواها حرّ الهـــوا جـر لو لـــم تطفه من هوا اللقـــاء بنسمـــه

وهداها الهـوى وقـد جـازت الطر ق وسـاف الثرى الدليـــل وشمـه

فغدت كالقسي الضمر يرمـي السير من فوقها إلى البيـد سهمه

فألقها غبّ سوقها وتأملهـــا تجدهـــا وهي الفتـية همـــه

طول سيـر وعـــرض قـفـــر فإن تعنف في السير بهـــا فهي التتمة

خلّها واشتياقها فهـــو كـــاف همة الشـــوق لا تقـــاسُ بهمـــة

وأرحـهـا ففي غـد توجب الحـــق بأوفى عهـــد وآكـــد حرمـه(١)

على الرغم من أن الراحلة لا تحس بالكلل أو الملل إلا أننا نجد الشاعر الإسلامي يخاطب حادي الركب، ويطلب منه أن يريح المطايا، فهو إنما يتحدث بلسان حاله، ولا تكاد تحس الفرق بين حاله وحال ناقته في الشوق إلى الربوع الحجازية المقدسة، يقول الصرصري:

ياحُـداة الركب الحـجازي ميلـوا فـبنعمان للركـــاب مقيـــل

فأريحوا فيها المطايـــا قليـــلاً من وجاها فقد براها النحـــول

وانزلوا الخيف من منى فيـه ظـل للأمـانـــي للنازلـــين ظليـــل

واستقلوا نحو الأباطح إن كـان إلى رب الستـــور سبيـــل

بأبي ذلك الجناب فـوجـــدي وغـرامي به عـريض طويـــل

إلى أن يقول :

أتمنى للقـرب منهـــا وقـــد حـا لَ عن القرب وعرها والسهول(٢)

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ٩١.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٣ / ٢٦١-٢٦٢.

اقتبس الشعراء الإسلاميون من الشعر الغزلي وصف الرحلة، ولكن الهبوا هذا الوصف بنيران عواطفهم المتاججة والمتأصلة في نفوسهم، التي كانت حاديهم وقائدهم من غير زمام إلى الإمام ويترجم لنا الشاعر عبد الله النميري عواطفه وشوقه وحنينه:

للعيس شوقاً قادها نحو السرى ... لما دعا أجفانها داعي الكرى
أرخ الأزمة واتبعها إنها ... تدري بالحمى النجديّ مع من درى
واشتمّ ذاك الترب إذا ماجئته ... تلفيه عند الشمّ مسكاً أذفرا
فإذا ماوصلت إلى العقيق فقل لهم ... قلبُ المتيم في الخيام قد انبرى
عانق مغانيهم إذا لم تلقهم ... واقنع فقد يجزي عن الماء الثرى
ياأهل رامة كم أروم وصالكم ... وأبيع فيه العمر لو ما يشترى
وأشد عروة قربكم بيد الرضى ... والدهر يفصم ما أشدّ من العرى[1]

ويقول الشهاب محمود في المعنى نفسه:

أحبابنا طال السرى نحو داركم ... فطاب ولكن نال فرط الجوى منّا
برانا الهوى حتى توهمنا الذي ... برانا خيالاً قد سرى بالدّجى وهنا
كأنّ على الأكوار أفنان دوحة ... يميلها مرّ الصبا غصناً فغصنا
إذا خاف حادينا الكلال شدا بكم ... فنستقصر المسرى ونستسهل الحزنا
وإن زادت الأخطار في السير نحوكم ... فما يرهب المشتاق ضرباً ولا طعنا
وياحبذا خوض الردى في لقائكم ... فماذا عسى المسرى يكون وإن أضنى
متى قال حادينا رويداً فبينكم ... وبين الحمى مقدار يومين أو أدنى

---

(١) ديوان عبد الله النميري: ٥٠.

وهبنا له شطر الحياة فإن أبى ولم يرضه ماقد وهبنا له زدنا
وقل له ماقد وهبنا فإنه غدا بالذي أولاه أولى بنا منّا(١)

واختلف الحال عند برهان الدين القيراطي، فقد واصل الليل بالنهار في سبيل الوصول إلى الأماكن المقدسة؛ ليروي ظمأ نفسه، ويمتع ناظريه بالنظر إلى الديار الحجازية المقدسة، ومن كثرة ماعانى ومن معه من وفد الحجيج، حتى إن حادي الركب قد ترفّق بهم، وطلب منهم أن يخلدوا إلى الراحة:

واصلت فيكم سرى ليلي بهاجرة من حرها قال حادي عيسنا قيلوا
وجُبت كلّ فلاة لا أنيس بها أني وفيها لحمر الوحش تبغيل
قام الدليل بها حيران ليس لما يبديه من بحثه في الترب مدلول
وكم ركبت من الظلماء أدهمها وعاق أشهب صبحي عنه تشكيل
أطوي الصعاب لكم طي الكتاب عسى إلى ارتشاف كؤوس الوصل تسهيل(٢)

ووصف طرفه بن العبد راحلته التي رحل بها إلى ديار محبوبته، مشيرا إلى قوتها وتمكنها من خوض الخطوب:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد
تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبّد(٣)

وذهب الصرصرى إلى المعنى نفسه الذي تناوله طرفه، وذكر صفات ناقته

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤/ ١٨٩.

(٢) المجموعة النبهانية: ٣/ ١٠١.

(٣) ديوان طرفه بن العبد/ ٧١.

التي اصطحبها في رحلته القدسية إلى الديار المقدسة:

جئناك نطوي القفار الشاسعات على — عيس لهنّ بنا وخدٌ وإرقال

تفري جيوب الفيافي في الهجير إذا — آوى الظباء إلى الأفياء والرأل

حملن إليك وفداً الشوقُ قادهم — ولا ونى العزم منهم عنك عذال(١)

وتكمن أهمية الناقة في كونها الوسيلة التي تمكن الشاعر من الوصول إلى الديار الحجازية.

وقد اعتاد وفد الحجيج السفر إلى بيت الله الحرام على الرواحل والمطايا المحسوسة، ولكن قد يرحلون في بعض الأحيان ويمتطون غير ماتعارف عليه الناس واعتادوه، فمنهم من يمتطي أشواقه المتاججة بين ضلوعه وجوانحه، وبذا ينتقل إلى عالم اللامحسوس واللامرئي في هذه الرحلة الطويلة، التي تحفها الأنوار القدسية، وتنير طريقها أنوار تنبعث من القلوب، مصدرها الحب الصادق والشوق إلى الذات العليا، ولايحمل من الزاد إلا ترديد السيرة العطرة، فهي نعم الزاد. وحدث أن تزود به البوصيري:

أشتاق للحرم الشريف بلوعة — في القلب تحدو بي إليه وتجذبُ

مالي سوى ذكري له في رحلتي — زادٌ ولا غيرُ اشتياقي مركبُ(٢)

ويزيد ابن العربي في معنى البوصيري، ويصف لباسه ووجده وغبوقه وراحلته:

فشوقي ركابي وحزني لباسي — ووجدي صبوحي ودمعي غبوقي(٣)

---

(١) المجموعة النبهانية ٣/ ٢٤٥.

(٢) ديوان البوصيري: ٤٧.

(٣) ديوان ابن العربي: ٩٥.

وعندما تحول ظروف المحب من السفر للحج لبيت الله الحرا م والزيارة، فمن شدة شوقه، ينفلت زمام نفسه منه، ولا يستطيع أن يكبح جماحها، وتروح هذه النفس المشتاقة إلى رحلة صفاء، حيث يغسلها من كل درن، وينقيها من كل صدأ لحق بها، وكانت هنالك رائحة طيب طيبة، تنبعث من الرواحل، وقد استمدّت هذه الدواب الطيب من طيب الوفد الذي تحمله إلى أطيب بقعة، حيث يتم أطيب اجتماع:

شدّوا المطيّ وقد نالوا المنى بمنى ... وكلّهم بأليم الشوق قد باحا
سارت ركائبهم تندى روايحها ... طيبا بما طاب ذاك الوفدأشاحا
يا واصلين إلى المختار من مضر ... زرتّم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إن أقمنا على عذر وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا(١)

ويتوجّع ابن العبري ويتحسر لما أصاب بدنه من وهن، فجعل فؤاده في مؤخرة الركب، فاعتلال صحته حال بينه وبين مشاركة وفد الحجيج في التمتّع برؤية الأماكن المقدسة، التي تبعث في روح المؤمن المتعة الروحية، فكان يشارك هذا الوفد بروحه ومشاعره، ولا يفوته أن يحملهم أشواقه وسلامه إلى الديار الحجازية المقدسة، فعندما يرسل الشاعر سلامه وأشواقه يحسّ بشيء من الراحة النفسية:

انقطعنا ووصلتم فاعلموا ... واشكروا لمنعم ياأهل بنى
قد ربحتم وخسرنا فصلوا ... بفضول الربح من قد غبنًا
ياسقى الله الحمى أنتم به ... ورعى تلك الربا والدّمنا

(١) المجموعة السهانية: ١/ ٥٩١.

سار قلبي خلف أجمالكم | غير أنّ الوهن عاق البدنا
ما قطعتم وادياً إلا وقد | جئته أسعى بأقدام المُنى
إن سقيتم ديمة هاطلة | فدموعي قد جرت لي أيمنا
وأنادي كلّما لبيتم | في فؤادي أسفاً واحزنا
بدني نضوٌ لأبدانكم | والذي أقلني أني هنا
آه وأشواقي إلى ذاك الحمى | شوق محزون حليف شجنا
سلموا مني على أربابه | أخبروهم أني حليف الضنا
أنا مذ غبتم على تذكاركم | أتراكم عندكم ما عندنا
عرفكم تعرفه ريح الصبا | كلّما مرت به مر بنا
در در للوصل ما أعذبه | ليته يرضى بروحي ثمنا(١)

وأحياناً أخرى يجد هذا الصب الوله، الذي أضناه الشوق للبيت الحرام والمشاعر الدينية المقدسة والمرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، منفذاً ينفس به عن هذه العواطف الدفينة، فيبعث بناظريه، فمهيار الديلمي لا يكتفي بنظرة الوداع لتكون له بمنزلة الزاد، ولكنه يرسل ناظريه بحثاً عن فؤاده الذي افتقده هناك، فهو يجلس في مكانه جسداً بلا روح:

وما أتبعت ظعن الحي طرفي | لأغنم نظرة فتكون زادي
ولكن بعثت بلحظ عيني | وراء الركب ليسأل عن فؤادي(٢)

---

(١) محاضرة الابرار: ٢ / ٣٢٢.

(٢) ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٧٢.

ويضيف ابن العربي بعداً آخر، فهو يعزي تخلفه هذا عن الركب إلى القصور المادي أو العجز العضوي، ولكنه لايملك زمام أمره؛ لأن روحه تهفو إلى رؤية البقعة التي فضلها الله تعالى على كل بقاع الأرضين، وفي الأيام التي فضّلها سبحانه وتعالى على كل أيام الدنيا، فتراه يخاطب حادي الركب، ويسأله التمهُّل والرويّة:

ياحادي العيس لا تعجل بها وقفا	فإنني زمن في إثرها غادي
قف بالمطايا وشمّر عن أزمتها	بالله بالوجد والتبريح ياحادي
نفسي تريد ولكن لاتساعدني	رجلي فمن لي بإشفاق وإسعاد
عرّج ففي أيمن الوادي خيامهم	لله درك ماتحويه من وادي(١)

وعندما يصف الشاعر الإسلامي شوقه وتحنانه إلى المرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، يرتبط شوقه هذا بالشوق إلى الكعبة المعظمة، التي شرفها الله تعالى، بل هي مصدر شوقه وحنينه وينبوع إلهامه، وإليها حنينه الأبدي، وطالما اختلط وامتزج شوقه إلى مكة المكرمة بشوقه إلى المدينة المنورة، حيث القبة الخضراء، وفيها المصطفى القمر عليه الصلاة والسلام. فالشوق والحنين عند ابن معصوم إلى المكانين واحد، ليس بينهما حدود فاصلة، وقد تكون الخطوط رفيعة ودقيقة، وقد تكون واهية، وتنعدم في بعض الأحيان، ويطلب ابن معصوم من حادي الركب أن يتولى عنه القيام ببعض المهام:

ياحادي الظعن إن جزت المواقيتا	فحي من بمنى والخيف حيّا
سل بجمع أجمع الشمل مؤتلف	أم غاله الدهر تفريقاً وتشتيتا

---

(١) ترجمان الأشواق: ١٦٥ - ١٦٦.

والثم ثرى ذلك الوادي وحطّ بـه ... عن الرحال تنل ياسعد ماشيتا
عهدي به وثراه بالشذا عبقٌ ... كالمسك فتّته الداري تفتيتا[1]

نلاحظ أن الشاعر يردد أسماء أماكن بعينها، لها أثر كبير في نفسه، ومنها يستمد القوة الدافقة، ممايجعل المعاني تخرج من دواخله معبرة صادقة، وبعد أن يردد ذكر هذه الأماكن المقدسة التي ارتبطت روحه بها، وتعلق قلبه بها، نراه يدلف إلى الإفصاح عن حبّه لخير البرية عليه الصلاة والسلام:

وأم طيبة مثوى الطيبين وقد ... ثني له الشوق نحو المصطفى ماليتا
فواصل السير لا يلوي على سكن ... أزاد حبًا له أم زاد تمقيتا
حتى رأى القبة الخضراء حاكية ... قصرا من الفلك العلويّ منحوتا
فقبل الأرض من أعتاب ساحتها ... وعفّر الخد تعظيما وتشميتا
مقام قدسي يحار الواصفون له ... ويرجع العقل من علياه مبهوتا
لو فا خرته الطباق السبع لا ندكست ... وعاد كوكبها الدري مكبوتا
تستوقف السمع والأبصار بهمة ... ويجمع الفضل مشهودا ومنصوتا
يقول زائره هات الحديث لنا ... عن زوره لا عن الزوراء أو هيتا[2]

ويصف لنا الشهاب محمود كيف أن الشوق ينتقل منه إلى الإبل، كما تنتقل العدوى من الشخص المريض إلى الشخص السليم:

حركت ساكن شوق بالحمى ومن ... حل الحمى فسرى منا إلى النجب
كأن سائقها يبغي اللحاق بها ... على وجاها ومافاسته من وجب

---

(١) ديوان ابن معصوم: ٨٣ – ٨٥.

(٢) نفس المصدر السابق ٨٥–٨٦.

فنحن والنوق والشهب الهداة لنا ثلاثة في السرى لم نؤت من لغب
إذا الكرى ذرَّ في أجفاننا سنةً من النعاس نفضناها عن الهدب(١)

نلاحظ أن هوى الراكب والمركوب في الرحلة القدسية إلى الديار الحجازية المقدسة متحد، والغاية المنشودة واحدة، ويتولد لنا من اتحاد الهوى والغاية بين الناقة وصاحبها أن تكون العواطف والأحاسيس ممتزجة، وامتزاج العواطف هذا لايكون إلا إذا كانت الاستجابة للمؤثر الذي أدى للانفعال واحدة، أو من النوع نفسه، ثم اتحاد رد الفعل؛ أي لابد أن يكون الانفعال النفسي بالدرجة نفسها لدى الطرفين؛ لذا نجد كلّ مثيرات الشوق والحنين إلى الديار الحجازية المباركة بين الناقة وصاحبها واحدة، فالبرق كما استفز الشاعر عندما لمع من جهة سماء المحبوب استفز الناقة أيضاً وأثار بلبالها، فناقة جرير قد أهاجها البرق عند ما لمع من جهة سماء رباها، حيث رتعت ورعت نبتها الطيب، فالهب هذا البرق شوقها، وأيقظ حنينها، فصار صاحبها يحاول جاهداً التخفيف من حدة شوقها، وبيّن لها أنه يشاركها في المشاعر نفسها، ويقاسي من المعاناة نفسها، وربما تكون الناقة هي نفس الشاعر التي اعتصرها الشوق والحنين:

تحنّ قلوصي بعد هدء وهاجها وميض على ذات السلاسل لامعُ
فقلت لها حني رويداً فإنني إلى أهل نجد من تهامة نازع(٢)

واختلف الحال بالنسبة لناقة مهيار الديلمي، فقد لاح أنّ هواها عكس الجهة التي لمع منها البرق، وكونه لمع وأثار عواطفها الدفينة، فلمعانه فقط

---

(١) المجموعة النبهانية: ١ / ٤٢٢.

(٢) ديوان جرير / ٢٩٠.

كافي لإيقاظ ماتكتمه من تباريح الشوق والهوى:

أمن خفوق البرق تزرمينا حتى مما يمنعك الحنينا
أسرى يمينا وسراك شامة فضله ما تلفتينا
نعم تشتاقين ونشتاق له ونعلن الوجد وتكتمينا
وأين منك اليوم أو منّا الهوى وأين نجد والمغورونا(١)

تزرمينا: من زرم أي ولى وانقطع، والمغورونا: اسم موضع.

ويصور ابن معصوم حال ناقته، وقد براها الشوق إلى ديار طالما أحبتها، وعندما لمع البرق ذكرها تلك الربوع، فما كان منها إلا أن تعدو والفرح يملأ حوانبه، وهي تمني نفسها بحلو اللقاء:

لمن العيس لها في البيد نفحُ شفها التأديب والشوق الملحُ
ضُمّر تمرحُ شوقاً في البرى ولها من لاعج الأشواق برح
تقطع الأرض وهاداً وربى ولها في لج بحر الآل سبحُ
وإذا مالاح برقُ الحمى وهي تعدو فرحا كادت تلح(٢)

وتلح: أي تلح في السير.

أما أبو زبيد الطائي فقد اختلف حاله، فعندما اهتاجت ناقته للمعان البرق انتقلت العدوى منها إليه، فأصبح يسألها أن تترفق بحاله:

فإلى الوليد اليوم حنّت ناقتي تهوى لمغير المتون سمالق

(١) ديوان جرير: ٥٩.

(٢) ديوان ابن معصوم: ٢١٢.

حنّت إلى برق فقلت لها قري بعض الحنين فإن سحرك سائقي[1]

وقال آخر:

حنّت قلوصي آخر الليل حنة فيا روعة ماراع قلبي حنينها
سعت في عقاليها ولاح لعينها سنا بارق وهنا فجن جنونها
فما برحت حتى ارعوينا لصوتها انبرى منّا معين يعينها
تحن إلى أرض الحجاز صبابة وقرّب من أهل الحجا قرينها
فيا ربّ أطلق قيدها وجريرها فقد راع من بالمسجدين أنينها[2]

ويقول أبو عبد الله البارع إن للبرق أثرا فعالاً في الإبل، حتى ولو كان هذا برقاً خلباً:

دع المطايا تنسم الجنوبا إن لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد أن قد فارقت حبيبا
تسامت بنجد بارقا كذوبا أذكرها عهد هوى قريبا
فغادر الشوق لها حنينا يضرم في أكبادها لهيبا
ترزم أمّا استشرقت كثيبا كان بالرمل لها سقوبا
ماحملت إلا فتى كئيبا يسر مما أعلنت نصيبا[3]

ومن المثيرات والمهيجات لشوق الناقة الماء، فعندما رأت ناقة النجاشي

---

(١) شعراء اسلاميون / نوري القيسي / ٦٥٤.

(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار: ١٨٦.

(٣) مثير العزم: ١/١٤٨.

ماء الفرات الذي وصفه بالملوحة ومرارة الطعم، وعلى الرغم من كل هذه النقائص، التي اتصف بها ماء نهر الفرات، إلا أن طعمه ومذاقه كان مختلفا بالنسبة لناقته، فقد ذكّرها بربعها وربوعها، التي طالما رعت نبتها ووردت ماءها:

رأت ناقتي ماء الفرات وطيبه ... أمر من الدفلي الذعاف وأمقرا

وحنت إلى الخابور لما رآت به ... صياح النبيط والسنين المغيرا

فقلت لها: بعض الحنين فإن بي ... كوجدك إلا أنني كنتُ أصبرا(١)

وكان لنسيم الصبا أثر في نفوس العشاق، فكلما هبّ من جهة أرض المحبوب أثار فيهم الكوامن الدفينة، وحرك المشاعر وألهب الشجون، وعدّه البعض من أقوى المثيرات؛ لأنه عندما يهب من جهة أرض المحبوب، فهو يحمل فيما يحمل عطرها، وبعض أنفاسها، التي يستطيع أن يميزها الشاعر من بين العطور والأنفاس المختلفة، فقد تأثرت ناقة البرعي بالمؤثرات نفسها التي هيجت صبابة صاحبها، وهما البرق ونسيم الصبا.

وكان الشهاب أحمد المنيني ضمن وفد الحجيج، وعندما هبت ريح الصبا أثرت في الوفد، وتجاوب معها بأكمله، حتى الرواحل قد اهتاجت، فصارت في حالة نشوى وطرب، مما جعلها تجدّ في السير:

(١) معجم البلدان: ٢ / ٣٨٢.

ريح الصّبا نفحت بعرف العنبر ... من روضة الهادي البشير المنذر
رعفت محاجرنا دماً بشميمه ... وتقرحت شوقاً شؤون المحجر
رقمت حروف النوق في صحف الفلا ... بنسوعها في السير أحرف أسطر
رقصت بنا شوقاً لأشرف مرسل ... المصطفى الهادي الأغرّ الأزهر(١)

ويتناول الصرصري كذلك حالة النشوى التي تعتري وفد الحجيج عندماتهب الرياح من جهة الأراضي الحجازية المقدسة، وتتجاوب النوق، وتشارك الوفد الشعور بالفرح والطرب، مما يجعلها تتمايل وترقص مع نسمات الصبا، أو رياح الشمال، التي قد تحمل بين ذراتها أخبار الحمى(٢):

ماذا عرى الركب حتى حنّت الإبلُ ... وهزّ من طربٍ أعطافها الميل
أهبّ من جانب البطحاء نشر صبا ... أم طارحتنا بأخبار الحمى شمل

وكما ذكر الشعراء العشاق النبات من طلح وسلم وغيره؛ لأنها ارتبطت بأرض المحبوب، فقد اقتبس الشعراء الإسلاميون منهم هذه الناحية وذكروا النبات في أشعارهم؛ لأنه ارتبط عندهم بأماكن مقدسة أحبوها، وعندما ابتعدوا منها زاد شوقهم إليها، فذكروها في أشعارهم؛ لأنها كانت تثير فيهم كل معاني الشوق والحنين، كذلك كان هذا النبات من المثيرات للإبل؛ فقد حنت في بعض الأحيان إلى رمث حيزوي، وهو نوع من النبت، ينتمي إلى فصيلة الحمض، تحبه الإبل وتشتاق لرعيه، وذلك بدلاً من الأذخر، وهو حشيشة طيبة الرائحة، فقد رغبت هذه الناقة عن المرعى الطيب، وحنّت إلى مادونه؛ لأنه مرتبط بمرتعها ومرعاها اللذين ابتعدت عنهما:

---

(١) المرجع السابق: ٢/٢٤٧.

(٢) المرجع السابق: ٣/٢٥٢.

ألا حنت المرقال واشتاق ربها تذكر أرماثا وأذكر معشري
ولو علمت صرف البيوع لسرها بمكة أن تبتاع حمضاً بأذخر(1)

وأراد بصرف البيوع كيفية المبادلة في التجارة؛ أي لقايضت الحمض بالأذخر.

وشجر النخيل له وقع خاص في نفس رجل الصحراء، فمنه يستمد الظل والقوت، مع ملاحظة أن شجرة النخيل سطحية الجذور، ولا تحتاج إلا إلى القليل من الماء؛ لذلك فهي من أنسب الأشجار للبيئة الصحراوية. وتناول مهيار الديلمي ذكر شجر النخيل وتعلق ناقته به، كما حدث بالنسبة لناقة مهيار الديلمي:

حب إليها بالغضا مرتبعا وبالنخيل موردا ومشرعا
وبأثيلات النقا ضلائلا تفرشها كراكراً وأذرعا
منى لها لو جعل الدهر لها أن تأمن الطارد والمذعذعا(2)

وبما أن الرحلة إلى الديار الحجازية تتطلب السفر أياماً وليالي، ومايصاحب هذا السفر من مشاق ومخاطر، قد يتعرض لها وفد الحجيج، كان لزاما على من أراد الحج أو العمرة أن يختار من النوق النجيبات الكريمات السريعات، وكثيراً ما وصف الشعراء الإبل ونعتوها بشتى أنواع النعوت، وجاء وصف رجل الصحراء لناقته وصفاً دقيقاً، وذلك لالتصاقه بها، وتولد من هذا الالتصاق حبٌّ عميق بين الجانبين، فالرباط بينه وبين

(1) أساس البلاغة: 1/369.

(2) ديوان مهيار الديلمي 2/212.

ناقته رباط وثيق أزلي، فقد شبه طرفة بن العبد ناقته بالسفينة؛ لقوتها، فكما تستطيع السفينة أن تصارع أمواج البحر المتلاطمة للوصول إلى بر الأمان تصارع الناقة أمواج الرمال المتلاطمة:

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصي من در
عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسّم الترب المفايل باليد[١]

ويشارك المثقب العبدي طرفة في هذا المعنى، ويصف ناقته بالسفينة:

كأن الكور والأنساع منها ... على قرواء ماهرة دهين
يشق الماء جؤجؤها ويعلو ... غوارب كل ذي حدب دهين[٢]

ومنه من شبه ناقته بالسفينة التي تبحر في بحر من السراب، كعبد الله بن زمرك:

غوارب في بحر السراب تخالها ... وقد سبحت فيه مواخر غربان[٣]

وقد اختار الزمخشري من الإبل الضامرة النحيفة، وهذا دليل على قوة الناقة وسرعتها:

ومتى تضمّ قتود رحلي ضامرا ... يهفو به نحو المدينة ضامر[٤]

القتود في اللغة هو خشب الرحل، فقد وصف الشاعر نفسه وناقته

---

(١) ديوان طرفه: ٥٩.

(٢) ديوان المثقب العبدي: ٩٠.

(٣) المجموعة النبهانية: ٤/ ٢٠٩.

(٤) المرجع السابق نفسه: ٢/ ١٣٥.

بالضمور، فالضامر الأول هو، والضامر الثاني ناقته، فضمور راحلته دلالة على قوتها، وضموره دليل على شدة شوقه إلى الديار الحجازية المقدسة، وغالباً مايصاب العاشق بالنحول والهزال من كثرة التفكير فيمن يهوى،و أصبحت ناقة النابغة الذبياني تبدو كالقسي من شدة ما أصابها من نحول، وهي في طريقها إلى البيت الحرام[١]:

بمصطحبات من لصاف وثبرة   يزرن إلالا سيرهن التدافع
سماما تباري الريح خوصا عيونها   لهن رذايا بالطريق ودائع
عليهن شعث عامدون لحجهم   فهن كأطراف القسي خواضع

إلال: هو جبل الرحمة

وبسبب ما يلاقيه الشاعر في الصحراء من صعاب ومخاطر، يشيب لها الولدان في بعض الأحيان، يحتاج إلى ناقة قوية، يعتمد عليها في قطع الصحاري؛ لذا نجد أن وصف الصحراء يرتبط بوصف الناقة، فهناك ربط بين الاثنين، ولا يذكر الشاعر أحدهما إلا جره إلى ذكر الآخر، يقول الشهاب محمود:

لاتسأمي يا ناقَ طول السرى   فقد بدت أعلامُ وادي القُرى
ولاتملي قطع عرض الفلا   وشدة السير وجذب البرى[٢]

فالربط واضح بين الناقة والصحراء.

كذلك نجد الربط بين الفيافي والناقة القوية الشديدة:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٨٤.

(٢) المجموعة النبهانية: ٢ / ١٧٠.

ولارمين له الفجاج بضمر كالنبل سبقاً والقسي نحولا

من كل دامية الأباطل زدتها عنقاً إذا كلفتها التمهيلا

وتمدّ من طول المسافة جيدها فكأنما ماست تميل ذميلا

حرفٌ تريك الحرف من صلد الصفا أخفافها بدمائها مشكولا

وكأنما ضربت بصخر مثله من منسم فتكافأ تقتيلا[1]

وبارى الشعراء بعضهم بعضاً في مجال وصف الناقة، وكلّ يحاول جهد طاقته أن يلحق بناقته كل الصفات الرفيعة، التي ترتفع بها إلى مصاف النجيبات المراسيل، وأورد الأعشى في معلقته كل صفة كريمة أحبّها رجل الصحراء في الناقة، فنسبها إلى ناقته[2]:

وعسير إدماء العيـ ـن خفوق عيرانة شملال

من سراة الهجان صلّبها العـ ـض ورعي الحمى وطول الحيال

لم تعطف على حوار ولم يقـ ـطع عبيد عروقها من حمال

وكعب بن زهير في بردته التي نظمها بغرض الاعتذار إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يرجو المغفرة، ويأمل في العفو، أسهب في وصف عذافرته، وهي ناقته، فقد نسب إليها كل صفات الإبل الكريمة، بل فضّلها على النجيبات من الإبل:

أمست سعاد بأرضٍ ما يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة لها على الأين إرقال وتبغيل

---

(١) المرجع السابق: ٣/١٩٦-١٩٧.

(٢) ديوان الأعشى: ٢٣.

من كل نضّاحة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الإعلام مجهول
ترمي الغيوب بعيني مفردلهق إذا توقدت الحزاز والميل
ضخم مقلدها عبل مقيدها في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
غلباء وجناء علكوم مذكرة في دفها سعة قدامها ميل
وجلدها من أطوم لايؤيسه طلح بضاحية التنين مهزول
حرف أخوها أبوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شمليل
يمشي القراد عليها ثم يزلقه منها لبان وأقراب زهاليل
كأنما فات عينيها ومذبحها من خطمها ومن اللحين برطيل
تمر مثل عسيب النخل ذا خطل في غارز لم تخنه الأحاليل[1]

والطريقة التي تمشي بها الناقة لها أهمية خاصة في نفس رجل الصحراء، لأنها توحي بمدى قوة الناقة ومقدرتها على التحمل والصبر، فقد حدد عبد الغني النابلسي كيفية سير بعيره[2]:

بالله ياأيها الساري على جمل لاتستقل له القود المراسيل
والبيد تطوى كطيات السجل له لا فرسخ عنه يستعصي ولا ميل
حتى يلم بذاك الحي من إضم حي به كان للقرآن تنزيل

ووصف الصرصري أنواع سير ناقته، وهو الرقال والخبب؛ أي السير السريع، وغالباً ما يدل السير السريع على القوة والنشاط، فالناقة التي استغلها للذهاب إلى الأماكن الحجازية جمعت بين أنواع المشي، وذلك

---

(١) المجموعة النبهانية: ٣/٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٣/١٦٣.

دليلا على المقدرة الهائلة التي تتمتع بها ناقته:

هل يبلغني إليهـــا جســـرة آخــذ ... يحلولها في الفلا الإرقـال والخبب

عنس عذافرة في سيرهــا هــوج ... تبدي النشـاط إذا أبدى الوجى الدأب(١)

ويضيف عبد المكودي ثلاثة أنواع أخرى من أنواع سير الناقة:

قطعتــه ببـــازل ذي مــرة ... ينوع الســير بأنواع المشي

فتارة يعمل فيهـا الهـيدبـي ... وتارة يعدو عليهـا الخيـزلي(٢)

فالهيدبي هو المشي السريع، وقد تحتاج الناقة أحياناً إلى الجري، وهو العدو،أما الخيزلى فمشية فيها شيء من التثاقل.

ومنهم من مزج بين العدو والخبب، كشمس الدين النواجي في قوله:

عيسـاء غلباء علطوس عـجنسة ... عديس علطبيس عدوها خبب(٣)

والناقة الغلباء: هي الناقة الغليظة أو العظيمة، وكذلك العجنس والعديس، فقد استعمل الشاعر كل هذه المترادفات التي تدل على قوة ناقته؛ لذا فهي تجري بسرعة.

وصوت الناقة يحمل شحنات هائلة من الشجون والعواطف، لذا نجد أن صاحب الناقة أو رجل الصحراء قد أحب صوت ناقته، فمنه كان يستمد الكثير من المعاني التي تطفئ نار شوقه، كما تمدّه بطعم اللقاء، وفرحة

---

(١) ديوان الصرصري: ٩١.

(٢) المجموعة النبهانية: ١/ ٣٢٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٦٣.

التلاقي، وعند الرحيل ومفارقة الديار والأحباب كان يستأنس بصوتها، وكما مرّ بنا أن للناقة نغمات صوتية مختلفة، كل صوت له وقعه الخاص عند الصبّ المفارق عندما يسمعه، فمنهم من وصف بغامها وفضّله على أجمل الأنغام الموسيقية، ومنهم من استعذب هديرها على سجع الحمام، مثل الصفي الحلي:

ألذ من الأنغام رجع بغامها   وأطيب من سجع الهديل هديرها(١)

وقد يلجأ صاحب الناقة أحياناً إلى استعمال شيء من القوة أو العنف مع ناقته، وذلك إذا أبدت شيئاً من الخمول والفتور، أو أحس بعدم رغبتها في السير، وحتى يزيد من سرعتها أو يحثّها على السير، تتمثل أدوات القوة والشدة، التي يلجأ إليها في بعض الأحيان، في السوط أو العصا، ولكن نجد أن ناقة الأعشى قد تضجرت من الضرب، ورفضت العنف، وأبت السوط:

غضوب من السوط زيافة   إذا ما ترى بالسراب الأكم(٢)

ونظرت ناقة علقمة إلى السوط الذي بيده شزرا، عندما أراد أن يزيد من همتها، ويحثها على السير بسرعة، وقوة بالضرب:

تلاحظ السوط شزراً وهي ضامرة   كما توجس طاوي الكشح موشوم(٣)

ولكن الناقة في رحلتها إلى البيت الحرام لا تحتاج إلى من يحثها على السير بالضرب، فكلما تذكرت منتهى الرحلة وغايتها، كان هذا بمنزلة قوة

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي: ٩٥.

(٢) ديوان الأعشى: ٥٠.

(٣) ديوان علقمة: ٦٠.

خفية، تدفعها إلى الأمام، وتزيد من سرعة عدوها، فحاديها ليس بحاجة إلى السوط لينهرها به، أو يزجرها. والشهاب محمود يطلب من حادي الركب أن يكفّ عن حث الإبل؛ لأن مابداخلها من الأشواق ينوب عنه في القيام بهذه المهمة خير قيام، وكلّ ماعليه أن يعدها ويمنيها بما ستنال من جزاء بعد هذه الرحلة، وهذا كافٍ لشحذ هممها:

حادي الركب لاتحث المطيا فكفاها شوقٌ يسوقُ المطيا
خلّها تمتطي الحزون وعدها بعدها بالحمى مهاداً وطيا
لاتزدها على جواها ودعها الآن تهوي بين الوهاد هويا
إن بين الضلوع منها إلى الري بعين الزرقاء داء دويا(١)

والحزون: ماغلظ من الأرض.

وذكر ابن حجله التلمساني:

لجمالنا في الليل مشيٌ لأجله أرى ضربه في الحجّ ضرب لازب
عديم ضياء الحسن يمشي بجهله كحاطب ليلٍ في طريق المحاطب(٢)

ولقد كانت حركة سير الجمال ووقع أخفافها مصدراً من المصادر التي استمد منها الأوائل وعلماء العروض أو زان الشعر وبحوره، فكل نوع من أنواع سيرها ينتمي إليه بحر معين من بحور الشعر وأوزانه، فعرف به ونسب إليه، فالرجز إذا مشت الهوينا، أما الخبب فيكون في حالة السرعة.

صور شمس الدين النواجي ناقته عندما ذكّرها الحادي بمهد الرسالة

---

(١) المجموعة النبهانية: ٤ / ٣٣٠.

(٢) الدرر الفرائد: ٣١٩ - ٣٢٠.

المحمدية والمرابع النبوية الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، بأنها تحن، وقد يكون هذا الحنين في بعض الأحيان حنيناً موجعاً، ويتولّد من حنين الناقة حنين صاحبها، إذاً فصاحب الناقة يتأثر بالحداء، وقد يكون بالدرجة نفسها التي تأثرت بها ناقته:

وكلما زمزم الحادي لها وحدا　　　بذكر خير الورى تدنو وتقتربُ(١)

فغناء الحداة يثير مكامن الأشواق في الناقة وصاحبها على حد سواء، ويقول الصرصري:

نغم الحداة وحنّة الإبل　　　وشذا العرار يضوع في الطّفل

أبرزن وجدي من مكامنه　　　بربا الحجاز وربّة الكلل(٢)

والحادي هو الشخص الذي يتولى أمر قيادة الإبل، ويترنم لها ببعض الترانيم، ليشحذ هممها، ويحثها على السير. والحداء: أصله التغني، أو قول الشعر، وقد يمتزج معنى الغناء والحداء في بعض الحالات، كقول ذي الرمة:

أحب المكان القفر من أجل أنني　　　به أتغنى باسمها غير معجم(٣)

وكان الغناء عند العرب في أيامهم الأولى ثلاثة أنواع، النصب: وهو غناء الركبان والفتيان، ومنه يجيء أصل الحداء كله، والنوع الثاني: السناد، أما الثالث، فهو الهزج.

---

(١) المجموعة النبهانية: ١/ ٤٦٤.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٥٧.

(٣) ديوان ذي الرمة: ٨١.

ويرجع إلى مضر بن نزار ترديد هذا الضرب من الغناء للإبل، فقد حباه الله تعالى بصوت جميل، وأصبحت سنّة بين الأمراء وأصحاب الشأن أن يكون هناك من يحدو بناقته في أثناء حجه، فناقة عبد الملك بن مروان في رحلة سيرها إلى الديار الحجازية المباركة كان حاديها يترنم ببعض الترانيم مثل قوله:

يا أيها البكر الذي أراكا ... عليك سهل الله في ممشاكا

ويحك هل تعلم من علاكا ... إن ابن مروان علا ذراكا

خليفة الله الذي امتطاكا ... لم يعل بكر مثل ما علاكا(١)

وتتمثل أهمية الحداء، إضافة إلى حثّ الإبل على السير وقطع المسافات البعيدة والطويلة في أقصر مدة ممكنة، في أنه يلهي الإبل عن التفكير في ورود الماء؛ أي ينسيها الظمأ؛ وبخاصة في وقت الهجير. وكان لسالم الحادي الذي يقود ناقة الخليفة أبي جعفر المنصور حداء جميل، وقد خصه الله تعالى بصوت عذب، فكثيراً ماكانت الإبل تتشاغل به عن العطش، أو ينسيها به ويلهيها عن التفكير في ورود الماء خاصة، وإنّ السفر إلى الديار الحجازية المقدسة كان يحتاج إلى أيام وليالي في فلوات يتعذر وجود الماء فيها، كقوله:

أبلج بين حاجبيه نوره ... إذا تفدّى رُفعت ستوره

يزينه حياؤه وخيره ... ومسكه يشوبه كافوره(٢)

(١) الرحلة الحجازية: ٢١٨.

(٢) الدرر الفرائد / الجزيري: ١٦٧٢.

وأحياناً قد يطلق على حداء الحادي الزمزمة، كقول شمس الدين النواجي:

وكلّما زمزم الحادي لها وحدا بذكر خير الورى تدنو وتقترب[1]

ومن تأثيرات الحداء أو غناء الركبان للمطايا أنه ينقل الراحلة من الحالة التي هي كائنة فيها إلى حالة من النشوى الروحية العميقة، فتعيش الراحلة في حالة سُكر عميق، يجعلها لا تحسّ بالمحيط الخارجي من حولها؛ لأنها إلى الله تعالى مقصدها، وإلى المرابع النبوية الشريفة شوقها، وقد لاحظ الصرصرى حالة السّكر التي اعترت ناقته، لذا طلب من حاديها أن يترفق بها ويتركهاوشأنها:

خلها تمرح في أرسانها فثنيات اللوى من شأنها
تقطع البيد نشاوى كلّما طارحوها نفحة من بناها
مل بها نحو شعاب المنحنى فنعم القلب في نعمانها
لاتخف منها ضلالا في الدجى فالنجوم الزهر في كيرانها[2]

وحالة النشوى هذه تكون طوال مدة الرحلة؛ أي لا يدب الوهن أو الملل إلى الناقة في أثناء سيرها حتى تبلغ منتهاها وغايتها التي تبغيها، يقول محمد البكري:

سائق العيس يعسف البيد عسفاً مرّ مرّ الظهران يطلب عُسفا
ويحك اترك حثيثها فهي آلت لاتهدأ حتى طيبة تُلفى

---

(١) المجموعة النبهانية: ١ / ٤٦٤ .

(٢) المجموعة النبهانية: ٤ / ١٧٥ .

ماتراها لو جـذبت بُراهـا   لاشتياق تُسابق الريح عُسفا
هكذا العيسُ كيف قلب مشوقٍ   يسوي القرب ناره ليس تطفا[1]

ويصف آخر أن هذه النشوى مصدرها خمر من نوع آخر، ولكنها ليست من سلالة الكرم:

عليهن نشوى هـزة وارتياحه   ولا راح تجلوها أكف نديم
تهزّهم الذكرى كما هزّ ناضراً   من الأيك لدن العطف مرّ نسيم[2]

وأحياناً تعتري حالة الطرب والنشوى الوفد بأكمله من راكب ومركوب، ويجسد الشهاب محمود هذا المنظر بقوله:

أعدْ حديث الحمى فالركب في طربٍ   وقصّ أنباء من بالجزع من عرب
ولاتشبب بذكرى غيرهم فيهم   يحلو حديثي وفيهم ينتهي أربي
كرّر حديث الثنايا فهو أعذب لي   على الظما من رضاب الخُرّد العرب
فقد سرت نفحة أنشأت نسمتها   فينا فملنا على الأكوار كالقضب[3]

وله أيضاً:

بلبلتهم كأس السرى فنشتهم   نشوة ما سقوا بها البابليّا[4]

البابليا: هي الخمر المنسوبة إلى مدينة بابل العراقية.

ويرتبط بالغناء والنشوى التمايل والرقص:

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٢/ ٣٩٢.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٤/ ١٥٤.

(٣) المجموعة النبهانية: ١/ ٤٢١.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٣٣٠.

والمطايا في سـيـرها راقـصـات   منذ غنت حـداتهـا بارتجـاز[1]

ويقول ابن نباته المصري:

مشتاقة تسـري بمشتـاق كمـا   رجع المدامع وجنة المسترجـع
كادت من الذكرى تطير نسوعهـا   وتقيم من صدري حواني الأضلع[2]

فترديد السير العطرة يجعلهم يحسون بلذة روحية، يقول نور الدين التميمي:

تميل مثلي من شـوق ويسكرهـا   خمر السرى فهي مع ركبانها ميـل
وتسرع الوخد من وجد ألـم بهـا   وكم لها قد بدا بالنص تعجيـل
وإن بذكـر له حـاد يذكرهـا   تهتز من طرب والدمع مبـول
حتى أحط الرجا والرحل في حرم   كم منه للخلق تأمين وتأميـل[3]

وكثيراً ماحمل المحبون أو من عاقته ظروفه من الانضمام إلى وفد الحجيج الحداة السلام والأشواق إلى الربوع الحجازية المقدسة، التي يتشوقون إلى رؤيتها:

ياسائق العيس ترفّق واستمعْ   منّي وبلغ إن وصلت عنـي
وقف بأكناف الحجاز ناشـداً   قلبي فقد ضاع الغداة منّـي
وقل إذا وصلت نحو أرضهـم   ذاك الأسير موثّقٌ بالحـزن
وعرّض بذكري عندهم عساهم   إن سمعوك ساءلوك عنّـي

(١) المرجع السابق: ٢ / ٢٥٤
(٢) المرجع السابق: ٣ / ٣٤٢.
(٣) المرجع السابق: ٣ / ٨٢.

قل ذلك المحبوس عن قصدكم

معذب القلب بكل فنّ

أقول قد أملت أن أزوركم   في جملة الوفد فقد خاب ظني

أقعد في الجدلان عن قصدكم   ورمت أن أسعى فلم يدعني(١)

فقد شرح هذا الصب الوله في رسالته هذه، التي أودعها لحادي الركب حاله، والأسباب التي حالت بينه وبين مايتمناه وتشتهيه نفسه، ويوصي حادي الركب أن يبلغ هذه الرسالة عنه إن أبلغه الله تعالى الديار التي تعلّق فؤاده بها.

وهناك من يتحايل على حادي الركب أن يتريث ويمهله حتى يتمكن من اللحاق بالركب الميمون في رحلته المباركة. وطلب عبد الله البارع من حادي الركب أن يمهله لحظات معدودات حتى يتمكن من التخلص من العبرات التي سدّت حلقه:

ماعلى حادي المطايا لو ترفق   ريثما أسكب دمعي ثم أعنق(٢)

وقد استعاض الشعراء الإسلاميون بمخاطبة حادي الركب عن مخاطبة الرفيق أو الصاحب في القصيدة الجاهلية، كقول طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجلّد(٣)

---

(١) محاضرة الابرار ومسامرة الاخبار ٢/٢٥٦.

(٢) مثير العزم الساكن: ١٤٩.

(٣) ديوان طرفه بن العبد: ٦٠.

وطلب أمرؤ القيس من رفيقيه الوقوف معه؛ ليبكوا جميعاً آثار الديار الدارسة التي تعلق قلبه بها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل(١)

فالشاعر الجاهلي كان يستوقف صاحبيه أوصاحبه الذي يسير معه، وقد يتوهمه، وذلك حتى لايشذّ عن درب من سبقوه في هيكل بناء القصيدة الجاهلية.

وخاطب الشاعر الإسلامي في رحلته إلى الديار الحجازية المباركة حادي الركب كقول الصرصري:

ياسائق الركب لا تعجل فلي أربٌ فوق الرواحل حالت دونه الحجب(٢)

وأكثر مانودي بحادي الركب أو حادي العيس، كقول ابن معصوم:

ياحادي الظعن إن جزت المواقيتا فحيّ من بمنى والخيف حُييتا(٣)

وأحيانا قد يصرح باسم الحادي، كما ورد في قول عائشة الباعونية:

سعد إن جئت ثنيات اللوى حيّ عني الحيّ من آل لُؤي(٤)

كذلك صرح الحكيم الرشيد باسم الحادي، ودعا له بالخير في قوله:

ياسعد لك السعد إن مررت على البان عرّج فضيا البدر في المنازل قد بان(٥)

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٧١.

(٢) المجموعة النبهانية: ١/ ٤٠٣.

(٣) ديوان ابن معصوم: ٨٣.

(٤) المجموعة النبهانية: ٤/ ٣٣٨.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ٢١٧.

وللحادي موقع خاص يستطيع من خلاله أن يؤثر في الوفد بأكمله، ولابد من أن يكون مستقر المزاج حتى ينعكس هذا على أداء وظيفته بالطريقة المثلى، ويقول صاحب كتاب الدرر الفرائد المنظمة: «ولا يخفى على العاقل أنّ الاستقامة للرحيل إلى تلك الأقطار الشريفة، وقطع تلك الفيافي المخيفة، لا يكون إلا بالجمال والجمّال، وإذا كان الجمّال مزاجه معتدل وحاله منتظم، فأمير الحج كذلك، وأهل الركب كذلك»(١).

وللحالة النفسية التي يعيشها الجمّال أو حادي الركب أهمية بالغة، فإذا كان مزاجه معتدلاً فينعكس هذا على بقية الوفد، ويؤكد الصلاح الصفدي أهمية اعتدال مزاج الحادي الذي يطلق عليه اسم الجمال:

درب الحجاز مشقةٌ ولكن إذا الـ ... جمّال هان تسهّلت أحواله
أصبحت في تصريف جمّالي على ... ما يشتهي فكأنّني جمّاله(٢)

وهناك من خاطب رفاقه أو أصحابه، كقول أحمد بن عبد الله:

ياصاحبي حققا ميعادي ... وانطلقا لأخصب الوهاد
ولاحظاني في السُّرى فإنني ... نضو هوى مقرّح الأكباد(٣)

ويتعجب عبد الرحيم البرعي من حال صاحبيه اللذين يطلبان منه مغالبة هذا العشق والتلهي عنه، أو مغالبته بالصبر والسلوى على الرغم من عجزهما على الأمرين:

---

(١) الدرر الفرائد: ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٣٢٣.

(٣) المجموعة النبهانية: ٢/٧٦.

أتأمراني بالصبر والطبعُ أغلبُ   وتعجب من حالي وحالك أعجبُ
وتطلب مني سلوةً عن ربائب   وراهن أرواح المحبين تطلب
فما قرّ لي صبرٌ ولا كفّ مدمعٌ   ولا طاب لي عيشٌ ولا لذّ مشرب(١)

وأوقف أحمد العروسي صاحبه على معاهد أحبته وديارهم المباركة، وكيف أن نورهم القدسي الذي قد عم المكان قد شلمهم:

قف بالركاب فهذا الربعُ والدار   لاحت عليك من الأحباب أنوار
بشراك بشراك قد لاحت قبابهم   انزل فقد نلت ما تهوى وتختار(٢)

لم يقف الشاعر الإسلامي عند وصف الناقة للتعبير عن حبّه لها هذا الحب، الذي نبع من كونها وسيلته إلى غايته، بل أراد إكرامها إن بلّغته بغيته ومراده، وقد سبقه إلى هذا المعنى الشاعر الجاهلي، ومن الشعراء من أكرم ناقته إن هي أبلغته إلى ممدوحه، حيث ينال الهبات والعطايا:

وإذا المطي بنا بلغن محمداً   فظهورهن على الرجال حرام(٣)

وأغلظ الصرصري في القسم على أن يُكرم من كانت سبباً في بلوغه إلى غايته ومرامه في قوله:

قسماً بالصّفو ومن ورد الصفو   وهو الأشرف من إيمانها
إن أرتني العيس بطحاء منى   لأصون الخدّ عن صوانها(٤)

(١) ديوان البرعي: ٨١.
(٢) المجموعة النبهانية: ٣ / ١٢٠.
(٣) وحي الصحراء: ٣٩.
(٤) المجموعة النبهانية: ٤ / ١٧٥.

أما الشهاب محمود فيعترف بفضل الإبل عليه ووفائها بعهدها له، لذا كان لزاماً عليه أن يفي بما عاهد نفسه عليه تجاهها:

قربتنا من الديار فأضحت ... ولهـا عندنا أياد جمّة
أنا آليت إن بلغت بها البيت ... لثمت الأخفاف فيهنّ لثمة
فوفت بالذي عليها ومثلي ... من وفى بالذي لها وأتمه(١)

وله أيضاً:

وأمسح عن أرجل اليعملات ... بأجفان عيني ذاك الغبارا(٢)

وابن معصوم يوصي صاحبه أن يقوم بتقبيل أخفاف ناقته، إكراماً لها:

أنخ لاثما أخفاف عيسك إنها ... وفت لك إذ وافت بك العلم(٣)

وشاركه الشهاب محمود في المعنى نفسه بقوله:

فلألثمنّ من المطيّ مناسما ... أدنت إليك وأكثر التقبيلا(٤)

وأقسم شمس الدين النواجي إن بلغته المطي الديار الحجازية المقدسة أن يجعل من خده مداساً لها:

وإنّ مطيّا بلغتنا إليكم ... حقيق علينا أنها تطأ الخدّا(٥)

ودعا الصرصري الله تعالى أن يجنب ناقته أي نوع من أنواع العوائق التي

---

(١) المرجع السابق نفسه: ٤/ ٩٢.

(٢) المرجع السابق نفسه: ٢/ ١٤٢.

(٣) ديوان ابن معصوم: ٨٩.

(٤) المجموعة النبهانية: ٣/ ٢٧٧.

(٥) المرجع السابق نفسه: ٢/ ٤٢.

قد تعترض طريقها، أو تؤخرها عن الذهاب إلى الحج، كما سأل الله تعالى أن يبسط لها في المآكل والمشرب وأن يحميها من الأمراض:

يا ناقتي لا تغشاك الطلاح ولا ... مسّ القوائم فيك الأين والنصب

وامتد خصبك من ورد ومن كلأ ... ولا تمكّن من أخفافك النقب(١)

فالطلاح والأين والنصب كلها مترادفات تعني التعب والإعياء والعجز، أو عدم القدرة التي قد تعطلها من القيام برحلتها المباركة، وأتى بالمترادفات لتأكيد المعنى وتقويته.

نستخلص من هذا المبحث الارتباط الوثيق بين رجل الصحراء وبين راحلته، فهو ارتباط أزلي، أملته ظروف الحياة في الصحراء، وبيئتها القاسية التي عرفت بها؛ لذا وقع اختيار هذا الرجل البدوي ذو الحس الصادق والشفافية المرهفة على الناقة التي جعل الله سبحانه وتعالى خلقها ملائماً لطبيعة الصحراء، وهي كذلك مصدر لكثير من احتياجاته اليومية.

وتولّد من الارتباط الشديد بين الناقة وصاحبها ألفة ومحبة؛ فاتخذها رفيقة له في دربه الطويل، وشخّصها وناقشها، ثم حاورها واستأمنها سره، أو اشتكى لها آلامه وفرط صبابته ومرارة الغربة والبعد عن الديار، واستمع إلى شكواها وأنينها، وحاول أن يهوّن عليها لوعة الشوق وشدة الحنين إلى مرعاها ومرتعاها.

وورث الشاعر الإسلامي عن نظيره الجاهلي موروثات كثيرة، منها اعتماده الكلي على الناقة وسيلة من وسائل المواصلات، ولكن هذه الناقة التي طالما أخذت العاشق إلى ديار من يهوى، أو لأرض يقصد حاكمها أو

---

(١) المجموعة النبهانية: ١/ ٤٠٤.

مليكها بغرض العطاء المادي قد تغيّر حالُها وتبدّل همها، واختلفت غايتها في رحلتها إلى البيت الحرام والمعاهد النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فأصبحت لصاحبها خير رفيق وأصدق صديق، وشاركته حبّه وشوقه إلى الديار الحجارية.

وجاء وصف الشاعر الإسلامي للناقة مفصّلاً ودقيقاً، وتناول الجانبين الحسيّ والمعنوي فيها، وكان هذا الوصف هو الوعاء الذي صبّ فيه حبه لها، وجاء ترجمة صادقة لمشاعره وأحاسيسه تجاهها، ووصف كذلك الاختلاط والتمازج بين شوقه وشوقها، وحنينه وحنينها إلى الربوع الحجازية المقدسة فاصبح كلّ منهما مرآة للآخر، كما توحّدت مهيجات الشوق والحنين بينهما، فما استفز الشاعر وألهب عواطفه وأثار كوامن أشواقه كان له الأثر نفسه في الناقة، ومما لاشك فيه أن الشاعر كان يعبّر عما يجيش بدواخله على لسان حال ناقته.

الباب الرابع
كسوة الكعبة المشرفة
وزينتها وخدامها وطيبها

الكسوة:

حظيت الكعبة المشرفة بتعظيم جميع القبائل العربية في بلاد الحجاز وتقديسها على مللهم ودياناتهم المختلفة، من نصرانية أو وثنية أو يهودية، وتعدى هذا الاحترام والتقديس نطاق حدود جزير ة العرب، فقد أظهرت بعض الأمم والشعوب المختلفة كلّ مظاهر التقديس والتعظيم للكعبة المشرفة، وأخذت مظاهر التقديس هذه صوراً مختلفة، ومن مظاهر التقديس والاحترام أنهم كانوا يقومون بكسوة الكعبة المشرفة كل عام.

ويُقسم الأخطل التغلبي بالله ربّ البيت ذي الستور في قوله:

وقد حلفتُ يمينا غير كاذبةٍ   بالله ربِّ ستور البيت ذي الحجب[1]

وله أيضاً:

ولقد حلفت برب موسى جاهدا   والبيت ذي الحرمات والأستار[2]

وكسوة الكعبة المشرفة تعني مايوضع عليها من ثياب أو ستور، وقد جرت هذه سنّة فيهم منذ القدم، فقد كانت الكعبة المشرفة تكسى بكسى مختلفة، وقد كان مجموع ماتكسى به الكعبة المشرفة من أكسية يربو على العشرين نوعاً من أنواع الكُسى، منها الخصف، ومفردها خصفة، وهو مايصنع من الخوص والليف؛ لذا يكون فيه شيء من الغلظة والخشونة. كذلك كسيت بالمعافر، وهي ثياب كانت تصنعها قبيلة معافر اليمانية، فسمّيت باسمها، وهناك الملاء، ويعني في اللغة الثوب الذي تلف به المرأة جسمها، ومفرده ملاءة، ويمتاز هذا النوع من النسيج باللّين والنعومة، وهو

---

(١) اخبار مكة للفاكهي: ٢٨٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٨٠.

قطعة نسيج واحدة، يطلق عليها اسم الريطة. ومن أكسية الكعبة المشرفة كذلك الوصائل، ومفردها وصيلة، وسميت بذلك؛ لأنها كانت يُوصل بعضها ببعض، ويقوم بصناعتها أهل اليمن، ويرسمون عليها بعض النماذج الإسلامية، ولونها في الغالب الأعم أحمر، تتخلله بعض الخطوط، وقد وصف أبو طالب وصائل الكعبة المشرفة في لاميته بقوله:

وأحضرت عند البيت رهطي وأخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل(١)

وكسيت الكعبة المشرفة بالكرار، وهو ضرب من ضروب الستور. وهناك الشقة، وهي ثياب مستطيلة الشكل، ناعمة الملمس بعض الشيء. أما الأنماط فهو نوع من أنواع البسط والبرود، وغالب الظن أنها تصنع في بلاد اليمن؛ لذا يقال لها البرود اليمانية، وتحلّى وتزين برسم بعض الخطوط عليها.

أما المُسُوحُ وتجمع على أمْساح أيضاً، ومفردها مسْح، ويطلق عليها أيضاً اسم البلاس، وهو نوع من الكساء، يصنع من الصوف أو الشعر؛ لذا يميل ملمسه إلى الخشونة. وهناك نوع آخر من الستور يسمى الطريفة، وتصنع من الصوف. أما الحبرات فهي ضرب آخر من البرود، تتخللها الخطوط. وكسيت الكعبة المشرفة بالقباطي، ونسبت إلى صانعيها من قبط مصر، ويمتاز هذا النوع من النسيج بالدقة والرقة، ولا يكون لونها إلا أبيض، وصنعت كذلك ثياب رقيقة وناعمة الملمس من الديباج الخراساني بلونيه الأحمر والأصفر، وكسيت بها الكعبة المشرفة.

وكان أول من كسا الكعبة المشرفة اسعد الحميري، كما مضت الإشارة

---

(١) السيرة النبوية: ١/ ٢٢٦.

إلى ذلك[1] وكان الملك الحميري قد كسا الكعبة المشرفة بكسى شتى، فقد رأى في المنام أن يكسو الكعبة المشرفة، فاستجاب لهذا النداء إيماناً ويقيناً منه بحرمة هذا البيت الذي حرمه الله تعالى وعظمه، فكساه الخسف، ولكن أبت الكعبة المشرفة هذه الكسوة ولفظتها، ثم كساها المعافر اليمانية، التي لم تحظ بقبول الكعبة المشرفة، ثم أبدلها بالوصائل والملاء. يقول ابن هشام: «وأوصى بالبيت ولاته من جرهم، وأمرهم بتطهيره، وألا يقربوه دماً ولاميتة ولامثلاة»[2]. ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة أنه قال: (لاتسبوا أسعد الحميري، فإنه أول من كسا الكعبة)[3].

وروى الفاسي عن ابن جريج قال: «وزعم بعض علمائنا أن أول من كسا الكعبة المشرفة إسماعيل عليه السلام».

وخالفه الزبير بن بكار في هذا الرأي بقوله: «ويقال إن عدنان بن أُد خاف أن يدرس الحرم، فوضع أنصابه، فكان أول من وضعها وأول من كسا الكعبة، أو كسيت في زمانه»[4].

ولكن لم تشتهر كسوة إسماعيل عليه السلام، ولا كسوة عدنان بن أد، ولم تشر إليها كتب السير والأخبار، مثلما اشتهرت كسو ة أسعد الحميري. وقد يرجع السبب في شهرة كسوة أسعد الحميري إلى أنها ارتبطت بقصة تخريبه للبيت الحرام، وماهم به من أفعال خراب وسوء، التي

---

(١) انظر الصفحتين ١٢٧-١٢٨ من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ الخميس: ١١٩.

(٣) انظر الصفحة ١٢٨ من هذا الكتاب.

(٤) اخبار مكة للفاكهي: ٢ / ٢٢٠.

كـان من أهم نتـائجـهـا اعـتـرافـه بحـرمـه البـيـت، وندم، وأظهـر كل مظاهر التقـديس والاحترام للكعبة المشرفة، ثم إنه آمن بالرسول الكريم قبل مجيئه ومبعثه، وكتب كتابه الذي جاء فيه[1]: «أما بعد، فإني آمنت بك بربك وبكتابك الذي ينزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك وبكل ماجاء من ربك من شرائع الإيمان والإسلام، فإن أدركتك فبها ونعمت، وإلا فاشفع لي، ولا تنس يوم القيامة، فإني من أمتك الأولين، وقد بايعتك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة إبراهيم أبيك عليه السلام، ثم نقش عليه: لله الأمر من قبل ومن بعد، وكتب عنوانه إلى محمد بن عبد المطلب نبي الله ورسوله وخاتم النبيين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم. ومن تبع الأول حمير بن ودرع».

وقد يكون أسعد الحميري أول من كسا الكعبة المشرفة كسوة تامة، لذا اشتُهرت أكثر من غيرها، ولم ينقطع الملك الحميري عن كسوة الكعبة المشرفة طيلة حياته، وسار من جاء بعده على سيرته، فكانوا يكسونها بالقباطي، ويتقربون إليها بالهدايا.

أما أول أعرابية كست الكعبة المشرفة في الجاهلية كسوة كاملة فهي أم العباس بن عبد المطلب، وتدعى (نبيلة بنت حباب)، وحدث أن تاه عنها ابنها وتعذر عليها الوصول إليه، وكانت تعدد في أثناء بحثها عنه حميد صفاته، وكريم أصله وشرفه التليد:

أضللتـه أبيض لـوذعـيّـا ... لم يكُ خوباً ولا دعيّا
أضللته أبيض غير خافِ ... للفتية الغرّ بني مناف

(١) الروض الأنف: ٩١.

ثم لعمرو منتهى الأضياف   سنّ لفهر سنّة الإيلاف

في القر يوم القر والأصياف[١]

فنذرت لله أن تكسو الكعبة المشرفة إن عثرت عليه. وقولها لوذعياً: أي ذكيامتوقد الذهن، وأرادت بسنة الإيلاف: أي ما ألفته قريش من الخروج إلى رحلة الشتاء والصيف، ومثله قول مطرود بن كعب الخزاعي:

المنعمين إذا النجوم تغيرت   والظاعنين لرحلة الإيلاف[٢]

أما القر فهو البرد الشديد . وأوفت أم العباس نذرها الذي نذرته بكسوة الكعبة المشرفة بالحرير والديباج، وبذا صارت أول من كست الكعبة المشرفة الحرير والديباج.

وقد مضت الإشارة[٣] إلى أن سبب هدم قريش للكعبة المشرفة وإعادة بنائها هو الحريق الذي أصاب الستور من مجمر المرأة القرشية، فقد كانت الستور تتدلى عليها من الحيطان، وتشد إلى باطنها. وبعد أن جددت قريش بناء الكعبة المشرفة جعلت لها أنواعاً مختلفة من الستور، كلما بليت واحدة وضعت الجديدة فوقها، وذلك لأن ثياب الكعبة المشرفة لم تكن تنزع آنذاك. وروى ابن مليكه: «بلغني أن الكعبة المشرفة كانت تكسى في الجاهلية كسىً شتى، وكانت البدن تحلل الحبر والبرود والأكسية وغير ذلك من عصب اليمن، وكان يهدى للكعبة هدايا من كسى شتى، سوى جلال البدن، وخز، وأنماط، فتكسى منه الكعبة، ويجعل مابقي منه في خزانة

(١) بلوغ الأرب: ٢ / ٩٠.

(٢) السيرة النبوية: ١ / ٢٢٦.

(٣) انظرالصفحة : ٥٢ من هذا الكتاب.

الكعبة، فإذا بلي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوبٌ آخر، ولا ينزع منها شي»[1].

أما المال الذي يشترى به الكسوة، فإنّ قريشاً كانت تترافد وتتعاون في جمعه، كما كانت قريش تتعاون في صنع طعام الحجيج، فقد أجمعوا أمرهم أن يدلي كل منهم بدلوه في كسوة الكعبة المشرفة، التي هي حرزهم وحرز آبائهم. ولكن برز من بينهم من تكفل بهذا الشرف العظيم عاماً بعد الآخر، وهو المغيرة بن ربيعه المخزومي، فقد كان ثريّاً في قومه، وساوى بفعلته هذه ماتفعله قبيلة قريش بأسرها، فاطلقوا عليه اسم العدْل، واستمرت الكعبة المشرفة على ترافد قريش في كسوتها عاماً بعد عام، والمغيرة المخزومي يتناوب معها في الشرف العظيم، وكان يرمي من وراء فعلته هذه أن تاتيه الرسالة التي كان يتوقعها أهل ذلك الزمان، وعندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رفض أن يؤمن بما أنزل عليه من الحق، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ **ذرني ومنْ خلقتُ وحيداً * وجعلتُ له مالا ممدوداً وبنين شهودا* ومهدّدتُ له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد** ﴾[2].

وأشار الفاسي: إلى أن من كسا الكعبة المشرفة الديباج في الجاهلية خالد بن جعفر بن كلاب، وجد لطمة أو لطيمة يحمل البر، ووجد فيها أنماطاً فعلقها على الكعبة[3]، وتطلق لطمة أو اللطيمة على وعاء المسك. كذلك يطلق اسم اللطيمة على العير التي تحمل المسك والبز وغيرها

---

(١) الروض الأنف: ١ / ٨٩.

(٢) سورة المدثر: ١١ - ١٥.

(٣) شفاء الغرام: ١٩٠.

للتجارة.

وجاء الإسلام وأبطل العادات القبيحة التي تعافها النفس البشرية وتشمئز منها، وهذّب وشذب بعضها، ومن العادات الحميدة، التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي وأبقى عليها التشريع الإسلامي وأقرها الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً، وفي الزمان نفسه الذي كانت تُكسى فيه في زمن الجاهلية، وهو يوم عاشوراء، فقال عليه الصلاة والسلام: (هذا يوم عاشوراء يوم تنقضي السنة، وتستر الكعبة)[١]. وقام صلى الله عليه وسلم بكسوتها بالحبرات اليمانية. ونهج خلفاؤه الراشدون نهجه من بعده، فكساها أبو بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما القباطي المصرية.

وأول من كسا الكعبة المشرفة كسوتين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد زاد في كسوة صاحبيه البرود اليمانية، كذلك كساها من بعده عبد الله بن عمر القباطي والحبرات والأنماط. وممن كساها كسوتين معاوية بن أبي سفيان، فقد كساها الديباج إضافة إلى القباطي .

وبعد أن أصبحت الكعبة تُكسى مرتين في العام، واحدة من الديباج، والأخرى من القباطي، خصص يوم عاشوراء لوضع الديباج عليها، وذلك بعد انتهاء وفد الحجيج، أما القباطي فتوضع عليها يوم التاسع والعشرين من رمضان.

واستمرت كسوة الكعبة المشرفة على هذه الحال؛ أي تكسى مرتين في العام، إلى أن جاء عهد الخليفة المأمون، الذي أمر بكسوتها ثلاث مرات في السنة، فقد كانت تُكسى الديباج الأحمر يوم التروية، وتوضع عليها

---

(١) الكعبة المشرفة: ٢٣٧ - ٢٤٥.

القباطي يوم هلال رجب، أما الديباج الأبيض فيوضع عليها آخر رمضان، وتستقبل العيد وهي في حلة زاهية من الثياب البيضاء، وكان الديباج الأسود آخر كسوة الفاطميين لها. وقد سبق الديباج الأسود كسوتهم لها بالديباج الأبيض والأصفر والأخضر، واستمر الديباج الأسود إلى يومنا هذا يقول، مهلهل الدمياطي في هذه الستور السوداء:

يروق لي منظرُ البيت العتيق إذا — بدا لطرفي في الإصباح والطفل

كأنّ حلته السوداء قد نُسجت — من حبّة القلب أو من أسود المقل(١)

أما فيما يجوز أن تكسى به الكعبة المشرفة من القُمُص، فقد ذكر الفاكهي عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه كان يكسو بُدنه القباطي والحبرات يوم يقلدها، فإذا كان يوم النحر نزعها، ثم أرسل بها إلى شيبة بن عثمان، فناطها على الكعبة»(٢).

وكما أشار ابن مليكه في حديثه السابق الذكر إلى أن ثياب الكعبة المشرفة لا تنزع منها، وإنما يوضع بعضها فوق بعض. وروى الأزرقي: عن شيبة بن عثمان أنه دخل على عائشة رضي الله عنها، فقال لها: يا أم المؤمنين، إن الكعبة تُجمع عليها الثياب، فتكثر، فنعمد إلى بئر فنحفرها، وندفن فيها ثياب الكعبة؛ لئلا يلبسها الجنب والحائض، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أصبت، وبئس ماصنعت، إنّ ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لا يضرّها من لبسها من حائض أو جنب، ولكن بعها وتصدّق بثمنها(١). وكان عمر رضي الله عنه ينزع كسوتها كل سنة، ويستبدلها

---

(١) الدرر الفرائد: ٢/١٤٩٨.

(٢) اخبار مكة للفاكهي: ٢/١١٠.

بحديدة، ويقسّم القديمة بين الحجيج

وعندما صارت تكسى من بيت مال المسلمين كان يخفف عنها بعض الثياب، ولا تنزع كلية، ولكن كان الحجبة قد نزعوا عنها كسوتها كلها، وذلك على عهد معاوية، عندما اشتكوا إليه كثرة ما على الكعبه المشرفة من ثياب، وبعضها يعود إلى عهد الجاهليه، فأرسل لهم معاوية بالديباج والقباطي والحبرات اليمانية، وعندئذ جردها بنو شيبة من قمصانها القديمة، ووضعوا عليها الكسوة الجديدة

ولقد ساهم عدد كبير من ملوك العجم في كسوة الكعبة المشرفة على سبيل المثال (شاه رخ) صاحب شيراز وقد كانت هناك بعض الأوقاف بمصر ينفق ماتدره من أموال على كسوة الكعبة المشرفة، وذلك من عهد عمر بن الخطاب اما الآن فقد تولت الحكومة السعوديه مسؤولية صنع الستور بالكيفية نفسها التي كساها بها الفاطميون في آخر عهدهم، أي الحرير الأسود، وجعلوا لها حزاما من الذهب والفضة، وكتبت عليه بعض الآيات القرآنية الكريمة، وكتب في الطراز من الجانب الشرقي[٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[٣]

---

(١) أخبار مكه للازرقي ١/٥٨

(٢) الكعبه المشرفه ٢٤٥ - ٢٥٠

(٣) آل عمران /٩٦

وكتب في الجانب الغربي:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾(١).

وفي الجانب اليماني كتبت الآية من سورة المائدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافي السموات ومافي الأرض وإنه بكل شيء عليم﴾(٢).

وقد بلغ طول حزام الكعبة المشرفة عشرين ذراعاً، والعرض حوالي ذراعين، وكل الآيات القرآنية التي كتبت عليه بأسلاك ذهبية وفضية كما كتبت على الحزام الآية الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق﴾(٣).

أما ستارة باب الكعبة المشرفة فقد كتب عليها عشرة أسطر، كما أوردته أمينة الصاوي، فقد كتب على السطر الأول:

---

(١) سورة البقرة / ١٢٧.

(٢) سورة المائدة / ٩٧.

(٣) سورة الحج / ٢٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها ﴾(١).

وفي السطر الثاني:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ﴾(٢).

وفي السطر الثالث:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾(٣).

وفي السطر الرابع:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾(٤).

وفي السطر الخامس كتب:

---

(١) سورة البقرة / ١٤٤.

(٢) سورة الاسراء / ٨٠.

(٣) سورة آل عمران / ١٣٩.

(٤) سورة البقرة / ٢٥٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[1].

وجاء في السطر السادس:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾[2].

وكتب في السطر السابع:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[3].

أما في السطر الثامن فقد كتب على جانب الستارة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا إله إلا الله الملك الحق اليقين، محمد رسول الله صادق الوعد اليقين﴾.

وكل هذه الأسطر كتب حولها:

---

(١) سورة الاخلاص .

(٢) سورة الاسراء / ٨١.

(٣) سورة قريش.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[١].

وبين آياتها كتب في دوائر صغيرة **﴿الله ربي﴾**.

وخلاصة القول أن العرب في جاهليتهم تقربوا إلى الكعبة المشرفة بكل أنواع القرابين، وأخذت هذه القرابين صوراً وأشكالاً مختلفة، منها كسوة الكعبة المشرفة، وقد شاركتهم في ذلك الأمم الأخرى، اعترافا بحرمة هذا البيت الكريم، الذي فضله الله تعالى على بقاع الأرض، وكانوا يكثرون من القسم برب البيت ذي الأستار كما مر بنا[٢].

الزينة والزخرفة:

عرف العرب في جاهليتهم بعض الحرَف البدائية لقوله تعالى: **﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾**[٣]. فهذه الآية الكريمة فيها إشارة واضحة إلى إدراكهم صناعة غزل الصوف والشعر. ومما يجدُر ذكره أن أيّ صناعة، على بداوتها، تحتاج إلى شيءمن الزخرفة والتزيين.

كذلك كانوا على علم ودراية بفن النحت وصناعة التماثيل، وعبادتهم للأصنام أكبر دليل على أنهم برعوا في مجال النحت وصنع التماثيل التي كانوا يصورونها كما يريدون. وقد بلغ عدد مانصبوه من الأصنام حول

---

(١) سورة الفاتحة.

(٢) انظر صفحة ١٣١ من هذا الكتاب.

(٣) سورة النحل: ٨٠.

الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستين صنماً أو مايزيد، جاء في التنزيل العزيز: ﴿ يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل ﴾[١]، فهم كما وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)[٢]

وأول من زيّن الكعبة المشرفة وزخرفها من الداخل قريش، والزخرفة والزينة مظهر من المظاهر أو من الدلالات التي تدل على بداوتها وبساطتها مبلغ مابلغه القوم، أو أي أمة من الأمم من الرفاهية والحضارة.

وعندما هدمت قريش الكعبة المشرفة[٣]، وأعادت بناءها على قواعد الخليل عليه السلام جعلوا لها سقفاً، وقاموا بزخرفته وتزويقه. أما الدعائم الست التي بنوها داخل الكعبة المشرفة، فقد وضعوا صور الملائكة على بعضها، ورسموا على بعضها الآخر صور الأنبياء، فصوروا الخليل عليه السلام، وهو يستشير الآلهة بالقداح، ونحتوا تمثالاً للسيدة مريم العذراء، وعلى حجرها ابنها عيسى (عليهما السلام)، وجعلوا صور بعض الشجر على بعض الأعمدة. وأوضح القرآن الكريم أن عرب الجاهلية كانوا على علم ودراية بفن الزخرفة، كما عرفوا أسباب الزينة، كقوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿ أو يكون لك بيتٌ من زُخْرُف ﴾[٤]. قيل: الزخرف: هو النقوش، وقيل: الذهب. وقال مجاهد: لم أكن أدري ما الزخرف حتى سمعنا في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بيت من زخرف، وأصله من

(١) سورة سبأ: ١٣.

(٢) التصوير عند العرب / أحمد تيمور باشا / ١٢٣.

(٣) نفس المرجع السابق / ١١٩.

(٤) سورة الإسراء: ٩٣.

الزخرفة، وهو تحسين الصورة، ومنه قوله عز وجل: ﴿حتى إذا أخذت الأرضُ زُخْرُفَها وازيَّنت﴾[١]. يقول أبو تمام في فتح عمورية:

أين الرواية؟ بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب[٢]

فالزخرف بمعنى التزيين والتنميق، والزخرف من الكلام: ما لا فائدة منه.

وكانت قريش عند بنائها الكعبة المشرفة قد ترافدت من طيب مالها كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٣].

طيب الكعبة المشرفة:

جرت في العرب عادة في جاهليتهم هي سنة تطييب الكعبة المشرفة، وذلك من باب تعظيمها وتقديسها، حتى إن سبب بناء قريش لها كان بسبب ماأصابها من مجمر المرأة القرشية.

وجاء الإسلام وأقرّ هذه السنّة الحميدة، حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «لأن أطيب الكعبة المشرفة أحبّ إليّ من أن أهدي لها ذهباً وفضةً»، وقالت أيضاً: «طيبوا البيت فإن ذلك من تطهيره»[٤]. وجاء في الذكر الحكيم: ﴿وعهدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أنْ طَهّرا بيتي للطّائفين والعاكفين والرُّكع السجود﴾[٥].

وروى سعد بن جبير: أنه كان يأخذ من طيب الكعبة، يستشفي به،

---

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) ديوان أبي تمام: ٩١.

(٣) انظر الصفحة ٥٧ من هذا الكتاب.

(٤) الجامع اللطيف / ١٠٩.

(٥) سورة البقرة: ١٢٥.

فقال عطاء بن رباح: «كان أحدنا إذا أراد أن يستشفي بطيب الكعبة جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر الأسود، ثم أخذه؛ لأنه لايجوز أخذ شيء من طيب الكعبة بغرض التبرك أو غيره».

كذلك عندما أتم عبد الله بن الزبير بناء الكعبة المشرفة اتخذ من المسك طيباً لها من الداخل والخارج.

خدمة البيت الحرام:

خدمة البيت الحرام تسمّى الحجابة، أما الخدام فيسمون الحجبة. بدأت أول خدمة للبيت الحرام في عهد قبيلة تدعى طسم، ثم انتقلت من بعدها إلى قبيلة خزاعة، وعندما استخفت قبيلة خزاعة بأمر البيت آل أمره إلى قبيلة جرهم، وتوارثه بنو جرهم حتى انتهى الأمر إلى غبشان، وتمكن قصي بن كلاب بدهائه وحيلته ان يعيد هذا الشرف التليد إلى بني إسماعيل عليه السلام.

عندما احتال، بعد خداعه لغبشان بن حبشية، أصبحت مفاتيح الكعبة في يد قصي، الذي استحجب ابنه عبد الدار على هذا المنصب في عهد حكمه، ثم توارثها بنو عبد الدار، حتى صارت إلى عثمان بن طلحة، حتى كان يوم فتح مكة المكرمة، ودخول الرسول صلى الله عليه وسلم فاتحا، وطلب من عثمان بن طلحة أن يسلمه مفاتيح الكعبة المشرفة، وهنا تلكأ عثمان بن طلحة بن شيبة في تسليم هذه المفاتيح؛ لأنها الشرف التليد الذي توارثوه كابراً عن كابر، فنزل قوله تعالى: ﴿ **إنَّ اللهَ يأمرُكُم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهْلها** ﴾[1]، فقد أبقاها الله تعالى في حوزة بني شيبة،

---

(١) سورة النساء: ٥٨.

وعندها خاطب الرسول الكريم بني شيبه بقوله: (خذوها يابني طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة، لاينزعها منكم إلا ظالم)، فقد تولى بنو شيبه أمر البيت الحرام بنص القرآن الكريم، ثم بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيما يرويه الفاكهي أن يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع كانا محدّدين لفتح الكعبة المشرفة.

واختلفت الروايات في أيام فتح الكعبة المشرفة، فذهب الفاكهي إلى أنهاكانت تفتح يوم الاثنين والجمعة من كل أسبوع. أما الأزرقي فأشار إلى أن فتحها يوم الخميس والاثنين، وأورد ابن جبير في رحلته قول الفاكهي في صحة فتحها يوم الاثنين والجمعة، ماعدا شهر رجب، فقد كانت تفتح كل يوم. وهذا ما كان يحدث في أيام الجاهلية؛ إذ كانت تفتح يوم الجمعة والاثنين.

ومن ضمن المهام التي يقوم بها حجبة الكعبة المشرفة غسل الكعبة سنوياً، وذلك إحياءً لسنة الرسول الكريم، عندما غسلها يوم الفتح.

وكذلك فقد غسلها ابن الزبير بعد أن أعاد بناءها بماء زمزم.

الأبرق:

هو مال الكعبة المشرفة، مصدره الهدايا التي كانت تهدى إلى الكعبة المشرفة، وما يقدم إليها من قرابين أو هبات، ولمكانة الكعبة المشرفة نالت تعظيم أمم وشعوب كثيرة؛ لذا نجد معظم ملوك العرب والعجم قد أهدوا إلى الكعبة المشرفة، وتقربوا إليها بالقرابين، وكانت هداياهم من ذهبٍ وفضة وجواهر نفيسة. وكانت هذه الهدايا منذ عهد إبراهيم عليه السلام توضع في جب الكعبة، أو في تلك الحفرة التي احتفرها إبراهيم عليه السلام بداخلها. وقد تعرضت أموال الكعبة إلى عدة سرقات منذ عهد جرهم، ويحكى أن فتى من حجبة الكعبة المشرفة كان يحتضر لعدة أيام، واشتد به النزع، وكان والده يعلم تمام العلم أن من تطول يده شيئاً من مال الكعبة المشرفة يلحق به أذى؛ أياً كان نوع هذا الأذى، وتنبه الوالد إلى هذا الشيء، وسأل ابنه وهو في حالة احتضار؛ إذا طالت يده شيئاً من مال الكعبة المشرفة أو الأبرق، وعندها أقر الفتى أنه قد تصرف في أربعمائة دينار من الأبرق، وتعهد والده برد المبلغ إلى مكانه؛ أي إلى خزانة الكعبة المشرفة، وعندها انتقلت روحه إلى بارئها(١).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وجد أموالاً كثيرة، بلغت تسعين ألف أوقية من الذهب، وكان الإمام علي رضي الله عنه قد أشار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذه الأموال، ويستعين بها في حربه، لكن لم يحركها النبي صلى الله على وسلم، ونهج صاحباه أبو بكر الصديق والفاروق رضي الله عنهما النهج نفسه.

---

(١) الجامع اللطيف: ٤٩.

المعاليق:

من معاليق الكعبة المشرفة قرنا الكبش الذي افتدى الله سبحانه وتعالى به إسماعيل الذبيح، ابن خليله إبراهيم عليهما السلام، وقد ذهبا في الحريق الذي أصاب الكعبة المشرفة في الجاهلية.

كذلك علقت قريش عليها ما وجده الزعيم القرشي عبد المطلب من أدرع وسيوف وغزالي الذهب، اللذين حكمت بهما الآلهة للكعبة المشرفة، عندما ضربت قريش القداح، وكانت من قرابين ساسان ملك الفرس للكعبة المشرفة، اعترافاً منه بحرمة هذا البيت المقدس.

وتعرض غزالا الكعبة إلى السرقة من قبل جماعة من شباب مكة، الذين أغواهم الشيطان، وكانوا يتنادمون في بيت أحدهم، يدعي مقيساً، وكان على رأس هؤلاء الشباب أبو لهب، واستأثر لنفسه بنصيب كبير؛ لأنه من ورثة أبيه عبد المطلب، لذا خص نفسه بالعنق والرأس والقرنين، وأهدى القرطين للمغنيتين، وباعوا ماتبقى منه، واشتروا بثمنة كلّ ما أتت به العير من خمر الشام إلى مكة، وطاب لهم الأنس واللهو مع لحن المغنيتين اللتين كانتا تغنيان لهم من شعر أبي مسافع:

ان الغـــزال الذي كنتم ... تقنوته لخطوب الدهر والضُر
طافت بهم عصبةٌ من شرّ قومهم ... أهل العلى والندى والبيت ذي الستر
فاستقسموا فيه بالأزلام علكم ... أن تخبروا بمكان الرأس والأثر
إني وإن أجنبياً كنت عن وطني ... فإنّ حلفي إلى عمران أو عمر
ريحانة القوم لا أبغي بحلفهم ... حلفاً ولا غيرهم حيّاً من البشر(١)

(١) الكعبة المشرفة: ٢٣٤.

وكان أبو طالب آثرهم اهتماماً بأمر سرقة الغزالين، فأخذه العباس إلى حيث يجلس أولئك السفهاء، وسمع غناء المغنيتين:

أبلغ بني النضر أعلاها وأسفلها ... إن الغزال وبيت الله والركن

أمست قيان بني سهم تقسمه ... لم يغل عند نداماهن في الثمن

ظللن يجري فتيت المسك بينهم ... على مفارقهم فنناً على فنن

وقهوة قرقف يغلي التجار بها ... حانية عتقت في الدن من زمن[1]

وعندما افتقدت قريش الغزالين أنزلت بهم أشد العقوبة.

وعندما فتحت مدائن كسرى في خلافة عمر بن الخطاب غنمت الجيوش الإسلامية هلالين من ذهب، وأرسلتهما إلى الخليفة، فعلقهما على الكعبة المشرفة.

وذكر الأزرقي: «حدثني سعيد بن يحيى البلخي قال: أسلم ملك التبت، وكان له صنم من ذهب يعبده، في صورة إنسان، وكان على رأس الصنم تاج من ذهب، مكلل بخرز الجواهر والياقوت الأحمر والأخضر والزبرجد، وكان على سرير مرتفع عن الأرض على قوائم، والسرير من فضة، وعلى السرير، أهدى السرير والصنم إلى الكعبة المشرفة»[2].

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٥.

(٢) شفاء الغرام: ١/١٩٢.

نتائج البحث

يحتل البيت الحرام مكانة دينية رفيعة بين جميع القبائل العربية على اختلاف ميولها وأهوائها ودياناتها، فهو يمثل مركز الدائرة بالنسبة للدعوة الحنيفية، وتناول المؤرخون تاريخ بنائه بالتفصيل، أما في مجال الأدب، فقد تناوله الأدباء والشعراء بالوصف من عرب وعجم، وأسهب الشراح والمفسرون في كل مايتعلق به بالشرح والتفصيل، ولايزال الموضوع بكراً، والمجال خصباً للبحث والتنقيب.

أما فيما يختص بتاريخ بنائه، فقد توصلت إلى الحقائق الآتية:

١ - أول بناء حقيقي للبيت الحرام هو بناء إبراهيم (عليه السلام)، وقد ورد نص قرآني صريح وذلك في قوله تعالى[١]: ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد عن البيت** ﴾، وهنا يمكن أن نستنتج أن القواعد كانت موجودة من قبل إبراهيم عليه السلام.

٢ - أما فيما يختص ببناء شيث بن آدم (عليه السلام)، فلم تتناوله معظمُ كتب السير والأخبار، وإن صح فهو يمثل أول بناء حقيقي للكعبة المشرفة، وذلك لأن المادة الخام التي استعملت في بنائه من جنس تربة الأرض؛ أي لم يؤت بها من الجنة، كما حدث في بناء الملائكة رضوان الله عليهم، وبناء آدم عليه السلام.

٣ - كما أن بناء قريش قد اشتهر وتناولته كتب السير والأخبار، وقد شارك

---

(١) البقرة / ١٢٧.

الرسول صلى الله عليه وسلم فيه، وكان ذلك قبل مبعثه الكريم، وحديث السيدة عائشة (لولا حداثة قومك بالإسلام) يقطع الشك باليقين من أن قريشاً قد بنت الكعبة المشرفة في جاهليتها، أما بناء عبد المطلب فلم تذكره معظم كتب السير والأخبار، مما يدل على عدم صحته.

٤ – وكان أول بناء للبيت بعد البعثة المحمدية بناء عبد الله بن الزبير، فقد حاول جهده أن ينفذ الخارطة التي أوردها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث السيدة عائشة السالف الذكر، وذلك بردّ البيت الحرام إلى قواعد (إبراهيم عليه السلام).

٥ – أما فيما عدا ذلك، فكل المحاولات التي تمت كانت محاولات محضة لترميم وإصلاح، كقوم جرهم، والعمالقة، وقصي بن كلاب، الذي أحكم بنيان الكعبة المشرفة، وكان آخر ترميم ماقام به الحجاج بن يوسف الثقفي؛ إذ ردّها إلى ماكانت عليه في عهد الجاهلية.

٦ – وأما وجود البيت الحرام بهذه البقعة المباركة، التي فضلها الله تعالى على كل بقاع الأرض، فقد استمدت مكة المكرمة خاصة، وأرض الحجاز بصورة عامة، مكانة رفيعة بين الدول في الماضي، وأصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً مهمّاً، حتى إن بعضهم فكّر في غزو أرض الحجاز؛ ليسلبها هذه المكانة الاقتصادية والاستراتيجية، كالروم والفرس، ولكن باءت محاولتهم بالإخفاق؛ لأن طبيعة الأرض الصحراوية وقفت عائقاً أمام تحقيق مطامعهم، ثم كانت محاولة أبرهة الأشرم الحبشي، وقد وجد العون من الفرس والروم، ولكن جعل الله تعالى كيده في نحره، وهذه

من إحدى فضائل هذه البقعة الطاهرة، فكل من هَمّ بغزوها أو أرادها بسوء مكّته مكاً.

ولم يقتصر وصف البيت الحرام على الأدب العربي فقط، بل تناوله العجم في أشعارهم، وذلك دليل على المكانة الدينية التي يحتلّها البيت الحرام في نفوس جميع الشعوب و الأمم، فنجد أن الفرس كانوا يحجونه، ويقفون عند المشاعر المقدسة اعترافاً منهم بحرمتها وقدسيتها، كما عظّمه الهنود وحجّوه، وشاركهم في هذا التعظيم والتقديس التبابعة، وهم ملوك اليمن، فقد كسا أسعد الحميري البيت الحرام، وأظهر له كل مظاهر التقديس والإجلال. وكانت الكعبة المشرفة تمثّل الوعاء الذي يضم بداخله كل الديانات، ففي داخل هذا الحرم الآمن وجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند فتح مكة صورة مريم العذراء وابنها المسيح(عليه السلام)، كما كانت بعض الصور ترمز إلى الخليل (عليه السلام)، وهو يستشير الآلهة بالقداح، وعندما أدخل عرب الجاهلية الأصنام بأرض الحجاز بغرض التقرب والزلفى إلى الله تعالى، نصبوا ما يربو على الثلاثمائة صنم حول الكعبة المشرفة؛ أي كانت كلُّ الديانات من يهودية ومسيحية ووثنية، إضافة إلى الحنيفية، تجد متسعاً وبراحاً داخل البيت الحرام.

وتناول عرب الجاهلية وصف البيت الحرام في منظوم كلامهم ومنثور قولهم، ودرر حكمهم.

فقد وصف الشعراء كل الشعائر الدينية، التي تختص بمناسك الحج، كما حلفوا بالمشاعر المقدسة، وأغلظوا في القسم بها، وذلك دليل على مدى اعترافهم بقدسيتها وحرمتها، ومع ملاحظة أن عبادة الحج لم تكن

مفروضة عليهم بصورة شريعة؛ أي لم تكن هناك رسالة سماوية تفرض عليهم ممارسة هذه العبادة إلا ماتوارثوه من دين الحنيفية، حتى هذا الإرث قد تعرض للتغيير والتبديل في معظم ملامحه.

ومن خلال الدراسة والبحث لاحظت أن الشعراء لم يقفوا عند حد الوصف فقط، بل كانوا يتبارون في نظم القصائد العصماء، التي تعدُّ من عيون الشعر، كما ورد ذكر المشاعر المقدسة في معلقاتهم.

وكانوا يحجون البيت الحرام حسب ماتناقلوه من إرث دين الحنيفية مع بعض التغيير في كيفية أداء بعض المناسك، واستمر الحال كذلك حتى بعد البعثة المحمدية؛ إذ كان أهل الشرك والإسلام يحجّون جنبا إلى جنب، حتى نزل قوله تعالى[1]: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾. وهكذا أزالت الرسالة المحمدية بمبادئها السمحة كلّ ماعلق بشريعة الحج من أدران الجاهلية والممارسات السالبة، التي صاحبت هذه العبادة المقدسة.

وهنا اختلف حال الشعراء الذين اعتنقوا الدين الجديد، وسرت في نفوسهم مبادئه السمحة وقيمه الفاضلة، وتبدل همهم وصدق حسهم عند وصف المشاعر الدينية المقدسة، فأصبحت العاطفة أكثر حرارة من ذي قبل، وصار الشوق إلى الديار الحجازية المقدسة والمرابع النبوية الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولاحظت أن الشاعر الإسلامي استفاد من كل المعاني القديمة، التي تناولها نظيره الجاهلي، ولكنه طوّرها وهذبها، وأدخل عليها بعض المعاني

(١) سورة التوبة / ٢٨.

والألفاظ الجديدة، التي أصبحت تناسب عظمة الموضوع؛ فقد وقف الجاهلي عند الأطلال الدارسة والديار الخربة، وأوقف رفاقه وبكى واستبكى، أما الشاعر الإسلامي فدياره التي يقف عندها، ويحج إليها كل عام، فهي ديار تستمد عظمتها من عظمة من رفع السماء بغير عمد. وهي ديار عامرة تهفو إليها القلوب، وتدف إليها النفوس، دفيف الطيور إلى أوكارها، حبٌّ فطري قذفه الله تعالى في قلوب المسلمين، وكل من سمع دعوة الخليل (عليه السلام) في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وكلّ من كتب الله تعالى في سابق علمه أن يحجّ إلى هذه البقعة الطاهرة.

ونلاحظ أن الشاعر الإسلامي عندما يقف بهذه الأماكن المقدسة تجول بذاكرته ومخيلته صورة من سبقوه من الأنبياء والرسل، عليهم صلوات الله جميعاً، فيستلهم العظة والعبرة، عكس نظيره الجاهلي، الذي كان يقف ليجتر الذكريات وماضي أيام خلون.

وكل ما استفز الشاعر الجاهلي نراه قد أحدث الأثر نفسه في الشاعر الإسلامي، فترجيع الناقة ألهب عواطف الشاعر الإسلامي وأثارها، وحتى هذه الناقة التي كان همها في الماضي الوصول إلى ديار المحبوب، للتمتع بالقرب، أو إبلاغ صاحبها إلى ديار الممدوح؛ لنيل عطاياه وهباته، قد تبدل حال هذه الناقة، وأصبحت تجد في السير، وتسرع في الخطى، كلما حدا حاديها بذكر خير الأنام المصطفى (عليه الصلاة والسلام).

وسجع الحمام كان بمنزله المنبه الذي يثير كلّ المشاعر الدفينة في الشاعر الإسلامي، ويجعله يحنُّ حنيناً موجعاً إلى الديار الحجازية المقدسة.

كما استفزته كلُّ الظواهر الطبيعية من برق ورعد ورياح وأمطار

وأشجار، حتى إنه كان يعشق، ويحب ثرى الديار الحجازية المقدسة، ويحن إليه، ويجده أطيب من المسك.

كذلك كان للطبيعة الساكنة أثر قوي في إثارة عواطف الشاعر كالجبال، فكانه كان يستودع هذه الجبال عند رحيله أهله وعشيرته، فهي آخر ما تقع عليه عيناه عند رحيله وأول من يستقبله عند عودته.

ويمكن القول إن الشاعر الإسلامي تغزل في الديار الحجازية المقدسة غزلاً نشمُّ فيه عبق الغزل الصوفي، ونحس فيه رائحة الحب الإلهي.

خلاصة القول أن وصف البيت الحرام في الأدب العربي قديم قدم البيت، فمنذ أن خلقه الله تعالى، ودحا الأرض من تحته، كان يأتيه المستعيذ والمستغيث والمستجير من عرب وعجم، وكلٌّ يتحدث بلسان حاله، ليشرح عن حاجته بمقاله، ويعبّر عما يجيش بصدره، سواء كان شعراً أو نثراً، وكل بناته عبر العصور المختلفة سجلوا لنا محاولاتهم التي قاموا بها، حتى إن حادثة الفيل ومحاولة الأشرم الحبشي التي باءت بالإخفاق لو لم يذكرها القرآن الكريم، لكان ماورد إلينا من أشعار السابقين دليلاً وبرهاناً على وقوع هذه الحادثة في الزمن الماضي، وماورد في شعرهم وكتب السير والأخبار قد فصّل وشرح مالحق بهذه الحملة من هزيمة نكراء، ولكن جاءالذكر الحكيم، وقطع الشك باليقين، على صحة وقوع هذه الحادثة.

تراجم الأعلام

١ - إبراهيم الحربي: أبو إسحاق ابن إسحاق الحربي (١٩٨هـ - ٢٨٥هـ): كان جامعاً للغة حافظاً للحديث عالماً بالفقه. وكان ثعلب يقول عنه: «مافقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحو ولغة خمسين سنة».

٢ - الأحمر: علي بن المبارك الأحمر (؟ - ١٩٤هـ): صاحب الكسائي، كان من الجند على باب الرشيد، وأخذ عنه العربية، فأوصله الكسائي للرشيد، فجعله مؤدباً لأولاده.

٣ - ابن الأحمر: عمرو بن الأحمر بن العمود الباهلي (؟ - ٣٥هـ): شاعر مخضرم اشتهر في الجاهلية، وأسلم، وغزا مغازي في الروم، ونزل الشام، وله شعر كثير، اشتهر بالغريب.

٤ - الأخفش الأكبر: أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد (؟ - ١٧٧هـ): أول من كتب تفسير الأشعار بين السطور، وكان هو وعيسي بن عمر الثقفي أستاذي أبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة والأصمعي.

٥ - الأخفش الأوسط: أبو الحسن سعيد بن مسعدة (؟ - ٢١٥ هـ): كان مولى بني مجاشع بن دارم، وأصله من بلخ، فهو فارسي النسب، وكان من تلاميذ سيبويه، من مصنفاته (العروض) و (القوافي).

٦ - الأخفش الأصغر: علي بن سليمان المفضل (؟ - ٣١٥هـ): أخذ عن ثعلب والمبرد، وروى كتاب الكامل للمبرد، وأخذ عنه أبو عبد الله المرزباني.

٧ - الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد بن طلحة (٢٨٢ - ٣٧٠هـ):

أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده ووفاته في هراة بخراسان، والأزهري نسبة إلى جده الأزهر، له المعجم المعروف «تهذيب اللغة» الذي يوصف بأنه حوى معجم العين للخليل.

٨ - ابن الأعرابي: أبو عبد الله محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي (١٥٠ - ٢٣١هـ): روى عنه ثعلب، وقال ابن الأنباري: من أكابر أئمة اللغة المشار إليهم في معرفتها، ويقال: لم يكن للكوفيين أشبه برواية البصريين من ابن الأعرابي، وكان ربيباً للمفضل الضبي، وسمع منه الدواوين وصححها.

٩ - أمية بن أبي الصلت: أمية بن عبد الله أبي الصلت بن عوف الثقفي (؟ - ٥هـ): شاعر حكيم، من أهل الطائف، كان مطلعاً على الكتب القديمة، وكان يكثر من ذكر الآخرة في شعره.

١٠ - ابن الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار (٢٣١ - ٣٢٨هـ): أشهر تلاميذ ثعلب، ألف كتباً كثيرة في علوم القرآن، والحديث، واللغة، والنحو، من مصنفاته: «الأضداد»، و «شرح المفضليات»، و «شرح المعلقات».

١١ - الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعد الأنباري النحوي (٥١٣ - ٥٧٧هـ): من مصنفاته (الإنصاف في مسائل الخلاف).

١٢ - الباخرزي: أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي الطيب (؟ - ٤٦٧هـ): أصله من باخرز في خراسان، مؤرخ، أديب، كان من كتاب الرسائل، له كتابه المعروف (دمية القصر وعصرة أهل العصر).

١٣ - البطليوسي: أبو محمد، عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (٤٤٤ - ٥٢١ هـ): يرجع نسبه إلى بطليوس، ولد ببطليوس، وتوفي ببلنسيه، مؤرخ، حافظ للحديث، أديب، له رسالة (الاسم والمسمى).

١٤ - البلطي: عثمان بن عيسى بن منصور البلطي النحوي الموصلي (٥٢٤ - ٥٩٩ هـ): ولد بالموصل، قدم إلى مصر لما تملكها العزيز، ورتب له صلاح الدين راتباً للإقراء، له القصيدة المشهورة بالقصيدة الحرباوية، وهي من ثلاثة وثلاثين بيتاً، يجوز في كل قافية من قوافيها الرفع والنصب والجر.

١٥ - التوحيدي: أبو حيان علي بن محمد بن العباس (؟ - ٤٠٠هـ): ياقوت شيخ الصوفية، وفليسوف الأدباء، من مصنفاته: البصائر والذخائر، والإمتاع والمؤانسة.

١٦ - الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٣٠هـ): الأديب الشاعر سمّي بالثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب، فقد كان فراءً، له من التصانيف يتيمة الدهر، وفقه اللغة وسر العربية.

١٧ - ابن جني: أبو الفتح عثمان بن جني النحو (٣٠٠ - ٣٩٣هـ): كان أبوه جني مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي، أخذ عن أبي علي الفارسي، وكان يقال: هو أعلم الناس بعلم النحو والتصريف.

١٨ - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (١٠١٧ - ١٠٦٧هـ): تركي الأصل، مستعرب، مولده ووفاته في القسطنطينية، له الكتاب المشهور كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

١٩ - ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد (٧٣٣ - ٨٥٢هـ): من أئمة العلم، من مصنفاته المعروفة الإصابة في تميز الصحابة، وفتح الباري بشرح البخاري.

٢٠ - الحسن البصري: الحسن بن علي أبي الحسن أبو سعيد (٢١ - ١١٠هـ): كان عابداً ناسكاً، ولد بالمدينة، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب، كان شجاعاً، يدخل على الولاة، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

٢١ - ابن خالويه: الحسن بن أحمد بن خالويه (؟ - ٣٧٠هـ): لغوي نحوي، ولد في همذان، واستوطن حلب، له مع المتنبي مجالس ومباحث، من مصنفاته (شرح مقصورة ابن دريد، مطبوع، و إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم.

٢٢ - ابن الخياط: أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بابن الخياط (.. - ٢٣ هـ): كان من أهل سمرقند، قدم بغداد واجتمع بأبي إسحاق الزجاج، وجرت بينهما مناظرة، أوردها القفطي، وكان يخلط بين المذهبين.

٢٣ - ابن خلكان :أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (٦٠٨ - ٦٨١هـ): المؤرخ الأدبي، صاحب وفيات الأعيان و انباء أبناء الزمان.

٢٤ - ابن خلدون: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ - ٨٠٨هـ): أصله من أشبيله، ومنشؤه بتونس، مؤرخ أديب، مقدم لدى الملوك، صاحب المقدمة والتاريخ.

٢٥ – أبو داؤد: جارية بن الحجاج الإيادي، المعروف بأبي دؤاد: شاعر جاهلي، كان من وصاف الخيل، شك في فصاحة ألفاظه؛ لأنه كان يدخل الأمصار.

٢٦ – الدينوري: أبو علي، أحمد بن جعفر الدينوري (... – ٢٨٩هـ): نحوي من أهل الدينور من بلاد الجبل، رحل إلى البصرة وبغداد، وهو ختن أبي العباس ثعلب.

٢٧ – الذهبي: أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ – ٧٤٨هـ): الحافظ، تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق، مؤرخ محقق، حافظ للحديث، من مصنفاته (المشتبه في الأسماء والأنساب، والكنى والألقاب، وسير النبلاء، و تذكرة الحفاظ.

٢٨ – ذو الرمه: أبو الحارث، غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي (٧٧ – ١١٧ هـ): من مضر، شاعر من فحول الطبقة الثانية، أكثر شعره في التشبيب وبكاء الأطلال.

٢٩ – رؤبة بن العجاج: رؤبه بن عبد الله العجاج التميمي السعدي ((٠ . – ٢٥٧هـ): أحد الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين، كان العلماء يحتفلون بشعره.

٣٠ – الرياشي: أبو الفضل ابن العباس بن فرج الرياشي البصري (٣١٦ – ٣٧٩هـ): مولى محمد بن سليمان الهاشمي، أخذ عن الأصمعي، وأخذ عنه المبرد وثعلب.

٣١ – الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي الأشبيلي (٣٣٧ – ٣٣٩هـ): كان أشهر تلاميذ القالي، وأصل أجداده من حمص، ولد

بأشبيلية، وتعلّم بقرطبة، أديب، لغوي، مؤرخ، له كتاب التراجم المعروف بـ: طبقات النحويين واللغويين.

٣٢ - الزجاجي: عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (.. - ٩٧٦هـ): من تلاميذ الزجاج، أصله من نهاوند، وأخذ عن الزجاج ببغداد، وألف كتاب الجمل، وكتاب الإيضاح، وكان من طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي.

٣٣ - الزركلي: خير الدين بن محمود بن علي بن فارس، الزركلي (بكسر الزاي والراء) (١٣١٠ - ١٣٩٦هـ): نشأ بدمشق، وأخذ عن علمائها، استقر بالحجاز، وتجنس بالجنسية السعودية في ١٩٢٠، له الكتاب المعروف الأعلام، وعامان في عمان، وديواني.

٣٤ - الزيات: حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل (١٨٦ - ٢٤٤هـ): التميمي بالولاء، أحد القراء السبعة.

٣٥ - ابن السكيت: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (٣٩٨ - ٤٥٨هـ): أصله من خوزستان، قدم بغداد واتصل بالمتوكل، له إصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ، وله شروح كثيرة لدواوين الشعراء، ذكرها بروكلمان.

٣٦ - ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل (٨٤٩ - ٩١١هـ): ولد بمرسيه، وانتقل إلى دانيه، وتوفي بها، كان ضريراً، صنف: المخصص، و المحكم.

٣٧ - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ): ولد ونشأ في القاهرة، مؤرخ، حافظ فقيه، عالم بالقراءات، زادت مؤلفاته على خمسمائة مؤلف، ذكرها ابن العماد في الشذرات.

٣٨ - الشماخ: الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان، وقيل معقل بن ضرار المازني الذبياني الغطفاني (.. - ٢٢هـ): شاعر محضرم، أدرك الإسلام وأسلم، وهو من طبقة لبيد والنابغة.

٣٩ - طرفة: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي (٨٦ - ٦٠هـ): شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، نشأ في بادية البحرين، واتصل بعمرو بن هند.

٤٠ - عدي بن زيد: عدي بن زيد (٢٨٤ - ٣٥٦هـ): شاعر جاهلي نصراني، من عباد الحيرة، أكثر في شعره ذكر الآخرة، وكان سفيراً لكسرى، طعن في فصاحته لكثرة اختلاطة بالعجم واطلاعه على الكتب.

٤١ - أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد (٥٦٨ - ٦٤٦هـ): أحد الأئمة في معرفة الأنساب، والتاريخ، والسير، والآثار، والمغازي، وهو صاحب المصنف المشهور الأغاني.

٤٢ - القفطي: أبو الحسن، جمال الدين، علي بن يوسف بن إبراهيم التيباني (.. - ١٨٩هـ): وزير مؤرخ من الكتاب، ولد بمصر، وسكن حلب، له من المصنفات: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، وإنباه الرواة على أنباه النحاة.

٤٣ - الكسائي: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (٣٥٥ - ٤٣٦هـ): شيخ أهل الكوفة، من القراء، واضع أساس المذهب الكوفي في النحو.

٤٤ - المرتضي: الشريف ، أبو القاسم، علي بن الحسين الطاهر بن موسى (٣٥٥ - ٤٣٦هـ): نقيب الطالبيين ، له من المصنفات: أمالي المرتضي.

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

* المصادر المخطوطة:

- الإشارة إلى تاريخ المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، لعلاء الدين بن قلج المصري مغلطاي، نسخة مصورة محفوظة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي.

- إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، لمحمد بن غازي الهندي، محفوظة في مكتبة محمد نصيف، جدة.

- تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام والمدينة المنورة، للصاغاني، محمد بن أحمد، محفوظة في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، تحت رقم ١٧.

- تهنئة أهل الإسلام بتجديد بيت الله الحرام، لإبراهيم بن محمد المأموني، محفوظة بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم ١٠١٣.

- حسن القرى في أودية أم القرى، لمحمد بن عبد العزيز، ابن فهد، محفوظة في مكتبة الأحقاف باليمن، تحت رقم ٩٨.

- الدر الكمين ذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لمحمد بن عبد العزيز، ابن فهد، محفوظة في معهد المخطوطات العربية.

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، لمحمد بن أحمد العناني، محفوظة في دار الكتب المصرية، تحت رقم ١٨٥٤.

- غاية المرام بأخبار أمراء البلد الحرام، لمحمد بن عبد العزيز، ابن فهد، محفوظة في مكتبة برلين، تحت رقم ٩٧٥٥.

* **المصادر المطبوعة:**

- الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، كارلو نالينو، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.
- الإبل في الشعر الجاهلي، لأنور عليان أبو سليم، دار العلوم للطباعة والنشر، د.ت.
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، لعمر بن محمد، ابن فهد، تح. فهيم شلتوت، دار المدني، جدة، د.ت.
- آثار المدينة المنورة، لعبد القدوس الأنصاري، ط٣، المكتب السلفي، المدينة المنورة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- الأحكام السلطانية، لمحمد بن الحسين الفراء، تح. محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- أخبار مكة المشرفة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي، تح. رشدي الصالح ملحس، ط٢، دار الثقافة، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار، تح. سامي مكي العاني، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد، د.ت.
- أدب العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، لبطرس البستاني، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- الأدب العربي في العصر المملوكي، لعمر موسى باشا، مطبعة الإنشاء، ١٩٨٢-١٩٨٤م.
- أدب الغرباء، لأبي الفرج الأصبهاني، تح. صلاح الدين المنجد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٢م.

- الادب في العصر المملوكي، لمحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، د.ت.
- أديان العرب في الجاهلية، لمحمد نعمان الجارم، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م.
- أساس البلاغة، لمحمود بن عمر الزمخشري، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- أسواق الذهب، لأحمد شوقي، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٣٢م.
- الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها، لابن قتيبة، محمد بن عبد الله، تح. ممدوح حسن محمود، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، د.ت.
- الأصمعيات، لعبد الملك بن قريب الأصمعي، تح. أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م.
- أعجب العجب في شرح لامية العرب، لمحمود بن عمر الزمخشري، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ.
- الأعشى، شاعر المجون والخمرة، لمحمد التونجي، الشركة المتحدة للتوزيع، د.ت.
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، لقطب الدين النهروالي، المكتبة العلمية بمكة المشرفة، د.ت.
- إعلام الساجد بأحكام المساجد، لمحمد بن عبد الله الزركشي، تح. أبوالوفا المراغي، المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، لأحمد محمد الحوفي، مكتبة دار نهضة مصر، الفجالة، ١٩٥٨م.

- أم القرى مكة المكرمة، لفؤاد علي رضا، ط١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٢م.
- امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، لأحمد مكي الطاهر، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، مصطفى البابي الحلبي، مصر، د.ت.
- الأنوار ومحاسن الأشعار، لعلي بن محمد الشمشاطي، تح. صالح مهدي العزاوي، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٦م.
- أيام العرب، لأبي الفرج الأصبهاني تح. حمد الجاسر وصالح العلي، ط١، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٨هـ/ ١٩٨٦م.
- البداية والنهاية، لأبي الفداء بن كثير، تح. محمد أبو ملح ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تح. أحمد أمين ورفيقه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، لمحمود شكري الألوسي، بعناية محمد بهجة الأثري، ط٣، دار الكتاب العربي، مصر، د.ت.
- تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، تعليق شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، د.ت.
- تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، دار الثقافة، بيروت. د.ت.
- تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ، لشوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، مصر، د.ت.

- تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، لشوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، مصر، د.ت.
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، للذهبي، محمد بن أحمد، تح. حسام الدين القدسي، د.ت.
- تاريخ الأمم والرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.
- تاريخ البلد الحرام، لعبد الكريم القطبي، تح. أحمد محمد جمال، وعبد العزيز الرفاعي، القاهرة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، لعمر أبو النصر، منشورات مكتبة هاشم، بيروت، د.ت.
- تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٠-١٩٥٩م.
- التاريخ العربي وجغرافيته، لأمين مدني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.
- تاريخ عمارة المسجد الحرام، لحسين عبد الله باسلامة، ط٣، دار تهامة، جدة، د.ت.
- تاريخ الكعبة المعظمة، لعلي حسني الخربوطلي، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- تاريخ مكة، لأحمد السباعي، ط٤، دار مكة للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- تاريخ مدينة جدة، لعبد القدوس الأنصاري، دار الأصفهاني وشركاه،

جدة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، لإبراهيم بن عبد الرحمن الخياري، تح. محمود السامرائي، وزارة الثقافة، العراق، د.ت.
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- تحفة النظار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- التصوير عند العرب، لأحمد تيمور باشا، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د.ت.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، لشكري فيصل، ط٤، دار العلم للملايين، ١٩٦٩م.
- ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧١م.
- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها، لابن ظهيرة، ط٤، المكتبة الشعبية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٣م.
- الجامع المختصر في عنوان التاريخ، لعلي بن أنجب الخازن، المطبعة السريانية، بغداد، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.
- جزيرة العرب قبل الإسلام، لبرهان الدين دلو، ط١، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م.
- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم،

وعبد المجيد قطاقس، المؤسسة العربية الحديثة، مصر، ١٩٦٤م.

- جمهرة أنساب العرب، لعلي بن أحمد، ابن حزم، تح. عبد السلام هارون، ط٥، دارالمعارف، مصر، د.ت.

- جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار، تح. محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، د.ت.

- حداء الصحراء، لأنور الجندي، دار مجلة الثقافة، بيروت، د.ت.

- حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي أمارة الحاج، لأحمد الرشيدي، تح. ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

- حلية الكميت في الأدب والنوادر، لمحمد بن الحسن، دار الطباعة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

- الحماسة الصغرى، لأبي تمام، حبيب بن أوس، تح. عبد العزيز الميمن، دار المعارف، مصر، د.ت.

- الحنين إلى الأوطان، لعمرو بن بحر الجاحظ، تصحيح طاهر الجزائري، ط١، مطبعة المنار، مصر، ١٣٣٣هـ.

- الحنين إلى الوطن في الأدب العربي، لمحمد إبراهيم حور، دارنهضة مصر، الفجالة، مصر، د.ت.

- الحياة الأدبية في جزيرة العرب، لطه حسين، ط١، مكتبة النشر العربي، دمشق، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، لأحمد محمد الحوفي، مطبعة دار

نهضة مصر، الفجالة، ١٩٧٢م.
الحيوان في الأدب العربي، لشاكر هادي شاكر، مكتبة النهضة العربية، بيروت، د.ت.
خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، مطبعة بولاق، مصر، ١٢٧٣هـ.
- الخصائص الكبرى، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تح. محمد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، د.ت.
- خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام، لأحمد زيني دحلان، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- الخيال الشعري عند العرب، لأبي القاسم الشابي التونسي، الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٦١م.
- الخيال في الشعر العربي، لمحمد الخضر حسين، تح. علي الرضا التونسي، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- دراسات في الأدب العربي والتاريخ، لمحمد عبد الغني حسن، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- دراسات في تاريخ الأدب، لعبد العزيز سالم، شباب الجامعة للطباعة، الإسكندرية، د.ت.
- الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر، تح. شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- دلائل النبوة، لأحمد بن الحسين البيهقي، تح. عبد الرحمن محمد

عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- دمية القصر وعصرة أهل العصر، للباخرزي، علي بن الحسن، تح. عبد الفتاح الحلو، مطبعة المدني، د.ت.

- ديوان ابن الأبرص، لعبيد بن الأبرص، تح. حسين نصار، ط١، البابي الحلبي، ١٩٥٧م.

- ديوان أسامة بن منقذ، لأسامة بن منقذ، تح. أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- ديوان ابن الأسلت، لصفي الدين بن الأسلت، تح. حسن محمد باجورة، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.

- ديوان الأعشى، للأعشى ميمون بن قيس، تح. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، د.ت.

- ديوان البرعي، لعبد الرحيم بن أحمد، المكتبة الشعبية، بيروت.

- ديوان البوصيري، لمحمد بن سعيد البوصيري، تح. محمد سيد كيلاني، ط١، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

- ديوان أبي تمام، لحبيب بن أوس، تح. محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.

- ديوان جران العود، لجران العود النميري، رواية السكري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣١م.

- ديوان جميل بثينة، لجميل بن عبد الله بن معمر، جمع وتحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، د.ت.

- ديوان حسان بن ثابت، لحسان بن ثابت الأنصاري، تح. وليد عرفات، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ديوان الحماسة، للوليد بن عبيد البحتري، تح. لويس شيخو اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، د.ت.
- ديوان حميد بن ثور، لحميد بن ثور، تح. عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ديوان أبي حيان، لأبي حيان الأندلسي، تح. أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، جامعة بغداد، د.ت.
- ديوان الراعي النميري، للراعي النميري، تح. نوري حمودي القيسي، وهلال ناجي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٠م.
- ديوان ابن سهل، لإبراهيم بن سهل، تح. بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٥٣م.
- ديوان الشريف الرضي، لمحمد بن الحسين، دار صادر، بيروت، ١٩٦١م.
- ديوان صفي الدين الحلي، لصفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٢هـ.
- ديوان ابن أبي الصلت، لأمية بن أبي الصلت، تح. محمد المرزوقي، دار بو سلامة للطباعة، تونس، د. ت.
- ديوان الطغرائي، للحسين بن علي الطغرائي، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٠هـ.
- ديوان ابن قيس الرقيات، لعبيد الله بن قيس الرقيات، تح. محمد يوسف

نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٥٨م.

- ديوان امرئ القيس، لامرئ القيس بن حجر، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

- ديوان العجاج، للعجاج، تح. خضر الطائي وسيد العبيدي، ط١، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٥٦م.

- ديوان عدي بن زيد، لعدي بن زيد، تح. محمد جبارة المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد العراقية، بغداد، ١٩٥٦م.

- ديوان ابن عربي، لمحيي الدين بن عربي، تح. محمد ركاب الرشيدي، ط١، دار ركابي للنشر، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- ديوان أبي فراس الحمداني، للحارث بن سعيد التغلبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

- ديوان الفرزدق، لهمام بن غالب التميمي، رواية الحسن السكري، تقديم شاكر الفحام، مجمع اللغة العربية، دمشق، د. ت.

- ديوان عمر بن أبي ربيعة، لعمر بن أبي ربيعة، دار صادر، بيروت.

- ديوان عنترة، لعنترة بن شداد، دار بيروت، بيروت، ١٢٧٧هـ.

- ديوان قيس بن الخطيم، لقيس بن الخطيم، تح. ناصر الدين الأسد، ط٣، مكتبة دار العروبة، ١٩٦٢م.

- ديوان كثير عزة، لكثير بن عبد الرحمن الخزاعي، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

- ديوان مسكين الدارمي، لربيعة بن عامر الدارمي، تح. عبد الله الجبوري

وخليل إبراهيم العطية، ط۱، دار البصري، بغداد، ۱۳۸۹هـ/ ۱۹۷۰م.
ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ط۱، دار الأضواء للطباعة والنشر، لبنان، د.ت.
- ديوان ابن معصوم، لعلي بن أحمد، تح. شاكر هادي شاكر، مكتبة النهضة العربية، مصر، د.ت.
- ديوان النابغة الذبياني، لزياد بن معاوية، تح. علي فاعور، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.
- ديوان ابن النحاس، لفتح الله بن النحاس، ط۱، المطبعة الأنسية، بيروت، ۱۳۱۳هـ.
- ديوان نصيب، لنصيب بن رباح، تحقيق داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، د. ت.
- ديوان أبي نواس، للحسن بن هانيء، تح. أحمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر، القاهرة، ۱۹٥۳م.
- ديوان ابن هانيء الأندلسي، لابن هانئ الأندلسي، دار صادر، بيروت، ۱۳۸٤هـ/ ۱۹٦٤م.
- ديوان أبي هلال العسكري، جمع جورج قنازع، المطبعة التعاونية، دمشق، ۱٤۰۰هـ/ ۱۹۷۹م.
- رحلة ابن جبير، لمحمد بن أحمد بن جبير، دار صادر- دار بيروت، ۱۹٥۹م.
- الرحلة الحجازية، لمحمد السنوسي، تح. علي الشنوفي، الشركة التونسية،

١٣٦٦هـ/ ١٩٨٦م.

- الرحلة الحجازية، لمحمد لبيب البتنوني، ط٢، الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ.

- رحلة الشتاء والصيف، لكبريت، محمد بن عبد الله الحسيني، تح. محمد سعيد الطنطاوي، ط٢، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ.

- رسالة الصاهل والشاحج، لأبي العلاء المعري، تح. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر.

- روض الرياحين في حكايات الصالحين، لليافعي، ط١، مطبعة محمد صبيح، مصر، د. ت.

- الروض الأنف، لعبد الرحمن بن أحمد السهيلي، تح. طه عبد الرؤوف سعد، المطبعة الجمالية، مصر، د. ت.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.

- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي، تح. مصطفى عبده، القاهرة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

- سيرة الرسول، لمحمد عزة دروزة، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، د. ت.

- السيرة النبوية، لأبي الفداء بن كثير، تح. مصطفى عبد الواحد، عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد بن محمد، ابن شهبة، ط١،

دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- السيرة النبوية والآثار المحمدية، لأحمد زيني دحلان، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- شرح أشعار الهذليين، للحسن بن الحسين السكري، تح. عبد الستار فراج، دارالعروبة، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.
- شرح ديوان جرير، لمحمد بن حبيب، تح. نعمان محمد أمين، ط٣، دارالمعارف، مصر، د.ت.
- شرح ديوان عروة بن الورد، لابن السكيت، وزارة الثقافة والإعلام القومي، دمشق، ١٩٦٦م.
- شرح ديوان كعب بن زهير، للحسن بن الحسين السكري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
- شرح ديوان ابن المعتز، لميشيل نعمان، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٩م.
- شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي ذر الخشني، تح. همام سعيد ومحمد أبو صعيليك، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- شرح القصائد التسع المشهورات، لأحمد بن محمد النحاس، تح. أحمد خطاب، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٣م.
- شرح القصائد العشر، للخطيب التبريزي، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة صبيح،مصر، د.ت.
- شرح المعلقات السبع، للحسين بن أحمد الزوزني، دار المعارف، مصر، ١٩٢٠م.

- شعر إبراهيم بن هرمة، جمع محمد نفاع، وحسين عطوان، المجمع العلمي العربي، دمشق، د. ت.
- الشعر الحديث في الحجاز، لعبد الرحيم أبو بكر، نادي المدينة الأدبي، المدينة المنورة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر، لعائض الردادي، مكتبة المدني، جدة، د. ت.
- شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، لنعمان عبد المتعال القاضي، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- الشعر في الجزيرة، لعبد الله الحامد العلي، دار الكتاب السعودي، د. ت.
- شعر اللهو والخمر، تاريخه، أعلامه، لجورج غريب، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
- شعر النابغة الجعدي، للنابغة الجعدي، تح. عبد العزيز رباح، ط١، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٤٦م.
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة محمد بن عبد الله، تح. محمد أحمد شاكر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د.ت.
- الشعر والغناء في المدينة ومكة، لشوقي ضيف، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.
- شعراء النصرانية، للويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٠م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض اليحصبي، تح. علي

محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، للتقي الفاسي، تح. عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل، ضبط مصطفى ديب البنا، دار ابن كثير، دمشق، د. ت.

- صفة جزيرة العرب، للهمداني، الحسن بن أحمد، تح. محمد الأكوع الحوالي، دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

- طبقات الشعراء، لعبد الله بن المعتز، تح. عبد الستار فراج، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.

- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، تح. محمود شاكر، ط٢، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- الطبيعة في الشعر الجاهلي، لنوري حمودي القيسي، ط١، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

- الطبيعة والشاعر العربي، لحسين نصار، مكتبة مصر، الفجالة، مصر ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

- طيف الخيال، لعلي بن الحسين الشريف المرتضى، تح. حسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.

- العرب قبل الاسلام، لمحمد محمد مصطفى النجار، دار الطباعة المحمدية،

القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، د. ت.
- عمر بن أبي ربيعة، دراسة تحليلية، لجبرائيل سليمان جبور، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٩م.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والأثر، لابن سيد الناس، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، د. ت.
- عيون الأخبار، لابن قتيبة، محمد بن عبد الله، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، د. ت.
- فضائل مكة وحرمة البيت الحرام، لابن ظهيرة، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- فن الشعر الخمري عند العرب، لإيليا حاوي، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
- في الأدب الجاهلي، لطه حسين، ط٩، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦م.
- القاضي بدر الدين بن حماعة، حياته وآثاره، لعبد الجواد خلف، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، د. ت.
- قاموس الحج والعمرة، لأحمد عبد الغفور عطا، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، د. ت.
- القرى لقاصد أم القرى، لأحمد بن عبد الله الطبري، البابي الحلبي، مصر، د. ت.
- الكامل في التاريخ، لعلي بن محمد، ابن الأثير، ط٢، دار الكتاب

العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- كتاب الأصنام، لهشام بن محمد الكلبي، تح. محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، د. ت.

- كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

- كتاب الأمالي، لإسماعيل بن القاسم، القالي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

- كتاب التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، لعبد الله بن عبد العزيز البكري، ط١، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح. محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل، لمحمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

- الكعبة على مر العصور، لعلي حسني الخربوطلي، دار المعارف، مصر، د. ت.

- الكعبة في حماية الله، لمحمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

- الكعبة، الكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم، لأحمد عبد الغفور عطار، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- الكعبة المشرفة، لأمينة الصاوي، ط١، دار عكاظ، جدة، ١٩٥٦م.
- كنز الدرر وجامع الغرر، لعبد الله بن سعيد أيبك، تح. سعيد عبد الفتاح، د. ت.
- الكنز اللغوي، لعبد الملك بن قريب الأصمعي، تح. أوغست هفتر، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٣هـ.
- الكنى والألقاب، لعباس القمي، ط٣، المطبعة الجديدة، النجف، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء المعري، تصحيح أمين عبد العزيز، ط١، مكتبة توفيق الكتبي، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م.
- المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، لأحمد بن يحيى، ابن الجيعان، مجلة العرب، س١٠.
- المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، ليوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- محاسن الوسائل في معرفة الأوائل، لأحمد بن عبد الله الشبلي، تح. محمد التونجي، ط١، دار النفائس، بيروت، د. ت.
- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، لمحمد الخضري بك، ط٤، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٢٥٤هـ.
- محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، لمحيي الدين بن عربي، دار صادر، بيروت، د. ت.
- محاضرة عن الهجرة إلى الحجاز، لإبراهيم رفعت باشا، ضمن كتاب المقالات، لأحمد عبد الغفور عطار، شركة ستاند للطباعة، ١٣٦٦هـ/

١٩٤٧م.
- المدائح النبوية في الأدب العربي، لزكي مبارك، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- مرآة الحرمين، لإبراهيم رفعت باشا، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.
- مصادر الشعر الجاهلي، لناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر.
- معالم مكة التاريخية والأثرية، لعاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- معاني الشعر، لسعيد بن هارون الأشنانداني، تح. عز الدين التنوخي، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٦م.
- معجم الشعراء، للمرزباني، تح. عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٠م.
- المفضليات، للمفضل الضبي، بعناية حسن السندوبي، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م.
- مقارنة الأديان، الديانات القديمة، لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، لحسين عطوان، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، لأحمد الشريف، ط٢، دار الفكر العربي،

د. ت

- من تاريخنا، لمحمد سعيد العامودي، ط٢، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- المنازل والديار، لأسامة بن منقذ، تح. مصطفى حجازي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦م.

- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، لرفاعة رافع الطهطاوي، تح. عبد الرحمن حسن محمد، وفاروق بدر، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.

- وحي الصحراء، لمحمد سعيد عبد المقصود، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، د. ت.

- الوطن في الأدب العربي، لإبراهيم الأبياري، سلسلة المكتبة الثقافية، ٧٣، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، ١٩٦٢م.

- الوفا بأحوال المصطفى، لعبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي، تح. محمد زهدي النجاشي، المؤسسة السعيدية، الرياض، د. ت.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.

*** الدوريات:**

- التضامن الإسلامي: السنة الرابعة والأربعون، الجزء الخامس، ذو القعدة، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

- منبر الإسلام: العدد ١١، السنة ٤٨، ذو القعدة، ١٤١٠هـ يونية ١٩٩٠م.

- المنهل: العـدد ٤٨١، السنة ٥٦، المجلد ٥١، ذو الحـجـة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- نهج الإسلام: العدد السادس والثلاثون، السنة العاشرة، ذو الحجة، ١٤٠٩هـ - تموز ١٩٨٩م.

* الرسائل الجامعية:

- تشبيهات عمر بن أبي ربيعة، لفوزي محمد علي غانم، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، ١٩٨٨م.
- حكايات الحيوان في العصر الجاهلي، لعزة محمد بدوي، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٧٥م.
- الحيوان في الشعر الجاهلي، لحسين جمعة، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق (لم أقف على التاريخ).
- شعر أمية بن أبي الصلت، لعبد الحفيظ السطلي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٦٤م.
- الظاهرة الصوفية في العصر المملوكي، لوفيق محمد سليطين، رسالة ماجستير.

المحتويات

شكر وتقدير.	٧
استهلال وتقديم.	٩
الباب الأول: الكعبة المشرفة.	١٧
الفصل الأول: عمارة الكعبة المشرفة عبر العصور:	١٩
– بناء الملائكة.	٢١
– بناء آدم عليه السلام.	٢٤
– رفع القواعد.	٢٩
– بناء العمالقة.	٣٨
– بناء جرهم.	٣٩
– بناء قصي بن كلاب.	٤٧
– بناء قريش.	٥٢
– بناء عبد الله بن الزبير.	٦٦
– بناء الحجاج الثقفي.	٧٠
الفصل الثاني: ملحقات الكعبة المشرفة:	٧٧
– جب الكعبة.	٧٧
– مقام إبراهيم.	٧٨

- الحجر الأسود.	٨٣
- حجر إسماعيل عليه السلام.	٩٩
- الحطيم.	
- سقيا إبراهيم عليه السلام.	١٠٢
- الملتزم.	١١٤
- الميزاب.	١١٦
- المستجاب.	١١٧
الباب الثاني : حرمة البيت الحرام عند الجاهليين.	١١٩
المبحث الأول : معتقدات الجاهليين الدينية وعاداتهم وتقاليدهم:	١٢١
المبحث الثاني : الوقوف بعرفة وبقية أعمال الحج:	١٧١
- المبيت بالمزدلفة.	١٨١
- النزول بمنى.	١٨٥
المبحث الثالث: الطواف والتلبية:	١٨٩
- الطواف.	١٨٩
- التلبية.	٢٠٧
- إنشاد الشعر في أثناء الطواف.	٢١٥
الباب الثالث: مثيرات الشوق والحنين إلى الديار الحجازية المقدسة.	٢٣٥
- شعر الحنين	٢٣٧
المبحث الأول: المثيرات والمهيجات الطبيعية ذكر الديار والأطلال:	٢٤١
- لمعان البرق.	٢٥٥

- الأشجار	٢٦٣
- الرياح والنسيم .	٢٦٧
- الجبال .	٢٧٣
المبحث الثاني : الحمام رمز للشوق والحنين .	٢٧٧
المبحث الثالث : الراحلة وحنينها .	٢٨٧
الباب الرابع : كسوة الكعبة المشرفة وخدامها .	٣٣٣
- الكسوة .	٣٣٥
- الزينة والزخرفة .	٣٤٧
- طيب الكعبة المشرفة .	٣٤٨
- خدمة البيت الحرام .	٣٤٩
- الأبرق .	٣٥١
- المعاليق .	٣٥٢
نتائج البحث .	٣٥٥
تراجم الأعلام .	٣٦١
مصادر البحث ومراجعه .	٣٦٩
المحتويات .	٣٩١

هذا الكتاب

لقد حظي البيت الحرام بعناية خاصة واهتمام كبير؛ لمكانته الدينية، فهو يمثل منتصف الدائرة للمسلمين، وملتقى تمركزهم لممارسة عباداتهم الدينية وشعائرهم المقدسة، فبالحج إليه مع الاستطاعة تكتمل أركان الإسلام الخمسة، فتناوله بالدراسة المفسرون، وكتب عنه المؤرخون، ووصفه الأدباء، ونظم فيه الشعراء؛ فكل أدلى بدلوه، ولايزال الموضوع بكراً، والمجال خصباً للبحث والتنقيب.

يتناول هذا البحث وصف البيت الحرام في الأدب العربي، تاريخه بدءاً بتفسير قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ [آل عمران: ٩٦]، وبناته عبر العصور المختلفة، والشعائر الدينية المتعلقة به في الجاهلية والإسلام، وزينته وكسوته.

المجمع الثقافي

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
ص. ب 2380 ـ هاتف: 6215300

ABU DHABI - U . A . E . - P .O. BOX : 2380
TEL. 6215300 - Cultural Foundation
Email:nlibrary@ne1.cultural.org.ae
http://WWW.Cultural.org.ae